الدكتور موسى لقبال

المغرب الإسلامي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر - 1981

رقم النشر/79/767

الجزائر :1981

الإهداء

الى روح من تلقيت عنه أول درس في العلم والاخلاق .. الى أستاذي ورائدي، ومرشدي : عيسى يحياوى .. والى كل الشهداء والمؤمنين مثله ، بقضية العربية وبأمجادها ، وبمفاخر الإسلام ، ورجاله في هذه البلاد .. إليهم أقدم اليوم باكورة أعمالي اعترافا بجميل سابق وتقديرا لدوررائع أصيل .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عالجت في كتابي هذا الجهود السياسية والعسكرية التي قام بها المسلمون ليدخلوا منطقة المغرب ، دائرة الدولة العربية ، وتحت تأثير الحضارة الاسلامية ، ثم تتبعت بذور التنظيمات الادارية ، ومظاهرها منذ أن أصبح للمسلمين مصر جامع ، وحقوق سياسية ثابتة الى ما بعد منتصف القرن الثاني للهجرة . وألاحظ أن العمل العربي في هذه البلاد يعد حاسما لاسباب أهمها :

1 — أنه قرر مصيرا نهائيا لهذه المنطقة ولسكانها في اطار الدولة العربية ، وضمن المجموعة الاسلامية .

2 — وساعد على كسب جماعات كبرى لها ماضيها المجيد ، في الفروسية ، وفي النضال ضد من هو أجنبي دخيل ـ تحملت الى جانب المسلمين مسؤولية اتمام الفتح بوجهيه الثقافي والسياسي سواء في منطقة المغرب ، أو في أرض الأندلس ، وجزر البحر الأبيض المتوسط في الحوض الغربي .

ومما يلفت النظر ، أن الا مازيغ ، الذين طالما استبسلوا في الدفاع عن الوطن وقارعوا الرومان ، والوندال ، والبيزنطيين ، سرعان ما ارتاحوا للعرب المسلمين لمظاهر شتى ، جمعت بينهما . وأهمها رابطة النسب ، فتبادلا الاحترام والاعجاب ثم انضم الا مازيغ الى الحركة الانسانية الجديدة بترحيب منهم ، واقتناع وبرضا ، واغتباط من المسلمين العرب وهكذا فمع توفر القرابة الدموية ، وأخوة السلاح ، لنشر العدل والأخاء ، حدث الميلاد الجديد ، الذي أعقبته نتائج طيبة الثمار .

ان الصعوبات لجمة أمام من يؤرخ لفترة ما من فترات تاريخ المغرب العربي الاسلامي ، خصوصا اذا تعلق الامر بالنظم ، وبالاجهزة الادارية ، وبمظاهر الحضارة ، وبالحزبيات ، والطوائف المذهبية . والسبب في ذلك يرجع اما الى عدم وجود المصادر أصلا ، أو وجودها ، مع فقرها الواضح في النصوص الكاملة . وهنا ألاحظ مدى أهمية المصادر الخطية ، التي تتناول بعض فترات من تاريخ بلادنا ، وتوجد اما في المكتبات العامة في المغرب ، وتونس ، أو الخاصة بواحة ميزاب .

-- ب --

وتمتاز هذه التي توجد في ميزاب باهميتها الفريدة في بابها . لامن حيث رقي مستواها العلمي والفني . وانما لانها هي التي تتحدث وحدها . بافاضة . عن سير الحركة الخارجية المغربية ونظالها السياسي والمذهبي . وهي الفترة التي تظهر من أغمض فترات تاريخ المغرب . وتتطلب عملا جديا هادفا . يقوم به المشتغلون بالتاريخ . وأعتقد . أن دراسة تاريخنا . دراسة زمنية موضوعية . اى على اساس فترات كبرى . هي أجدى لنا من الموسوعات التي لا يجد فيها الباحث تفسيرا مقبولا للاحداث . وأجدى من الملخصات التي لاترضي حاجتنا . وان اعادة كتابة تاريخ الوطن المغربي . بروح جديدة لمن الواجبات الاكيدة على المهتمين بالدراسات التاريخية في عصر الثورة . والحرية . والسيادة . وقد تضمن كتاب المغرب الاسلامي مقدمة . وخمسة أبواب وخاتمة . ومجموعة من الملاحق الهامة .

تحدثت في المقدمة عن مدلول المصطلحات القديمة التي اطلقت علي بلاد المغرب . بحسب تسلسلها التاريخي ومداها الزمني واطارها الجغرافي ومن هذه المصطلحات : ليبيا . وبلاد الافرى . وافريقية . والمغرب . وبلاد الأطلس . كما تحدثت عن سكان المنطقة الأقدمين والطارئين . واصولهم وفروعهم . وأنماط حياتهم الاجتماعية . وختمت المقدمة بالاشارة الى صلة العرب بالمنطقة وبسكانها منذ فتح مصر وعقد معاهدة الاسكندرية . الى ما بعد وفاة عمرو بن العاص ، وابعاد ابنه عبد الله عن ولاية مصر . واثناء هذه الفترة ضم المسلمون منطقتي برقة «بنطابلس» وطرابلس . وتوغلوا في ولاية افريقية (تونس) البيزنطية وربحوا معركة هامة بحوار سبيطلة . تلك المدينة التي ابتسم لها الحظ فغدت قبيل سقوطها في أيدي العرب المسلمين عاصمة ولاية افريقية البيزنطية . ومقرا للحاكم الذي ثار ضد الامبراطور في القسطنطينية . وهو الذي عرف في المصادر العربية بالبطريق جر جير .

-- ج --

أما الباب الأول فشرحت فيه ملامح الاستيراتيجية الجديدة التي بدت في أعمال معاوية بن حديج . قائد جند مصر . ورئيس رهط العثمانية فيها . فقد أرسل السرايا والبعوث الى سائر جهات افريقية بعدَ أن بني معسكرا بالطوب في مكان استيراتيجي ، بجوار مرتفع «القرن» في اقليم قمونيه . حيث بنيت فيما بعد مدينة القيروان . فكان عمله رائدا وارهاصا بذلك ، لخلفه عقبة بن نافع الفهري الذي بني على خطة سلفه واوضح أن هذف بناء القيروان هو أن تصير نقطة ارتكاز . وتجمع . وانطلاق ، ومنارة للعلم والثقافة ، ورباطا للعباد والمجاهدين .

وفي الفترة التالية غدت القيروان قاعدة الفتح المنظم ، ونواة الولاية الجديدة ، بحيث انطلق منها أبو الهاجر دينار الذي رشحه للولاية في افريقية مسلمة بن مخلد والى مصر القوى فنال من

الروم والافارقة في شبه جزيرة شريك ، كما وصل الى حدود منطقة تلمسان ، فضمن للاسلام قوة جديدة هي قوة اوربة ومعظم البرانس وغدا كسيلة وقبيلته أحلافا للمسلمين ضد الروم والأفارقة . ومن القيروان انطلق عقبة بن نافع اثناء ولايته الثانية على رأس حملة كبرى تجاوز نشاطها آفاق افريقية والمغرب الأوسط ، الى أرض المغرب الأقصى ، ولأنها افتقرت الى احكام الخطة ، انتهت بكارثة كبرى في تهودة (63 هـ) في اقليم الزاب . فقتل عقبة وأبو المهاجر وسائر من صاحبهما على أيدي قوات الحلف البرنسي-الرومي ، الذي تزعمه كسيلة الأوربي، الذي حنق على عقبة ، وكره معاملته تجاه أبي المهاجر دينار . واثر هذه الكارثة ، وقع الجلاء الأول عن قاعدة الفتح ، التي أصبحت لفترة خمس سنوات ، تحت نفوذ كسيلة وأنصاره ، يشرفون منها على سائر افريقية ، اما العرب المنسحبون فان بعضهم استقر في الفسطاط ، بينما ترسب فريق منهم برئاسة زهير بن قيس البلوى ، في اقليم برقة ، التي صارت قاعدة ثابتة للمسلمين منذ أمد طويل .

— د —

وعلى كاهل هذا الفريق . وبتدخل أهل الحل والعقد عند الأموى عبد الملك بن مروان ، وقع عبء إرجاع الأوضاع المضطربة في افريقية الى حالتها الطبيعية . وكان لقاء زهير بن قيس البلوى مع كسيلة في ممس ، بجوار سبيبة ، في اطار اقليم قمونية ، لقاء تاريخيا حاسما ، انهزم اثناءه حلف البرانس والافارقة والروم ، وشتت شملهم وقتل كسيلة الاوربي وأصفياؤه . فكانت معركة ممس (69 هـ) ثأرا لقتلى معركة تهودة (63 هـ) ، وبشيرا بنهاية مقاومة فرع البرانس ، والأفارقة ، وعلى الأثر وبعد تنظيم شؤون مسلمي افريقية ، وتأمينهم ، فارق زهير القيروان عائدا الى الفسطاط ، عبر برقة ، التي عرفته من قبل مرابطا لايريم عنها . وفي ساحل (درنة) تعرض لتحد سافر من طرف الروم راح ضحيته مع أغلب رجاله . فكان ذلك بمثابة ثأر لقتلى معركة ممس. وأصبحت مصيبة المسلمين فيه وفي رجاله في هولها ، مثل مصيبتهم من قبل في عقبة ورجاله ، والايجابي في هذه المحنة أنها نبهت الخلافة الأموية الى عنصر خطير من عناصر المقاومة في افريقية ذلك هو عنصر الروم المحليين والأفارقة الذين يتحركون في ظروف معينة بايعاز من اباطرة الدولة البيزنطية. ومن وحي ادراك الخلافة الأموية لطبيعة الأخطار ، وجه عبد الملك بن مروان حسانا بن النعمان الغساني الى افريقية بهدف الثأر لقتلى ساحل درنة ولتأديب الروم والأفارقة ، وللعمل على تصفية سائر جيوب المقاومة المحلية . وقد كان حسان كفؤا للمهمات التي انيطت بعهدته في هذه الفترة الدقيقة وقد كان الباب الثاني شرحا وافيا لجهود هذا الفاتح العربي الكبير ضد الروم والأفرقة في كبرى قواعدهم البحرية وهي : قرطاجنة وملحقاتها ، ثم ضد فرع البتر البد والأهلين الذين تزعمتهم قبيلة جراوة ومنحتهم السلطان والسيادة على سائر السكان ممثلة في زعامة الكاهنة التي وصفت بملكة جبل أوراس .

ونجاح حسان ضد الروم والأفارقة باحتلال قرطاجنة وصبغها بصبغة اسلامية ، ثم ضد فرع البتريقتل الكاهنة واحتضان ابنيها وسائر أفراد قبيلتها ، وفتح باب الجندية أمامهم أسوة بالعرب المسلمين ، هذان العملان : أسدلا الستار نهائيا عما كان يعرف ولاية افريقية البيزنطية وهيأ لميلاد : «ولاية افريقية الاسلامية» «كماً وضعاً» حدا لأية مقاومة جدية مضادة للعرب المسلمين في هذه البلاد .

وبسبب ذلك يعتبر حسان بن النعمان الفاتح الحقيقي لولاية افريقية ولما أصبح يعرف بالمغرب الأوسط أيضا .

وسياسة حسان تجاه مسلمي البربر بتمتين أواصر الحلف معهم ، ومنشآته المدنية والعسكرية ، ومظاهر التنظيم التي أوجدها في قاعدة القيروان الاسلامية جعلته في مقام رفيع بين قادة فتح افريقية وولاتها .

ويبدو أن ميزات حسان هي التي جعلته مبغضا من طرف والى مصر المخظوظ عبد العزيز بن مروان ، الذي لم يهدأ بالا حتى أزاح حسانا عن ميدان افريقية ، وقدم إليه صديقه القديم ، موسى بن نصير ، لكي يجني ثمرة جهود حسان وغرس أعماله البناءة بين سكان افريقية . وأعمال موسى بن نصير- التي تضمنها الباب الثالث - لاتعتبر فتحا جديدا أوكشفا لمنطقة بكر ، خاصة فيما يتعلق بولايتي افريقية ، والمغرب الأوسط اللتين وطئت اكنافهما بفضل نشاط حسان بن النعمان . وعمل موسى البناء انما كان فعلا في أرض المغرب الأقصى وفي شبه جزيرة ايبريا . ولقد كان هدف أعماله :

أ — تأكيد السيادة العربية على المناطق المفتوحة من قبل ، ثم توسيع آفاق الفتح الى ما وراء المغرب الأوسط .

ب — ثم الرغبة في الحصول على الغنائم والأسلاب الوفيرة والتحف النادرة التي ترضى والى مصر ، وتزوده بحجج قوية يتظاهر بها أمام الخليفة عبد الملك الذي كان يتفاءل بحسان بقدر ما كان يكره موسى بن نصير .

ج — وفي هذه الفترة تأكدت بعض الاتجاهات مثل سياسة الحلف ، كما ظهرت اتجاهات أخرى منها :

ان موسى بدأ يأخذ من القبائل التي تذعن له ، رهائن من أشرافها ووجهائها كي يطمئن الى استمرار طاعتهم وولائهم للمسلمين . وقد تجمع عدد كبير من هؤلاء الرهائن في مدينة طنجة ، ووضعوا تحت إشراف طارق بن زياد الليثي بالولاء .

— و —

وقد عين لهؤلاء الرهائن فقهاء وقراء ، ومرشدون ، حتى غدت طنجة بمثابة مدرسة كبرى فضلا عن وضعها كرباط إسلامي .

— وقد اقتدى موسى بن نصير بسلفه حسان عندما فتح باب الجندية على مصراعيه أمام المسلمين الجدد ، الذين انضموا الى العرب بأعداد هائلة .

وبهؤلاء الجند الذين كانوا يتقدون حماسا ، تمكن موسى بن نصير من خوض معارك مشرفة في شبه جزيرة ايبريا ، وفي بعض جزر البحر الابيض المتوسط . وفي هذا الميدان البكر ، كان المسلمون جميعا ، عربا وغير عرب حلفا قويا ضد المخالفين . وبقدرماساعد ميدان الأندلس المسلمين الجدد على ادراك اهميتهم بقدر ما كان عاملا هاما في تسهيل اندماجهم مع العرب الفاتحين .

وتمخضت نهاية عمل موسى بن نصير في افريقية وفي شبه جزيرة ابيريا عن ميلاد جديد : هو ولاية الأندلس الاسلامية المرتبطة بولاية افريقية الاسلامية ومركزها القيروان .

وخصائص الولايتين وطابع علاقاتهما بولاة مصر ، وبالخلفاء في دمشق ، ومظاهر النظم الادارية والمالية والعسكرية المبكرة هي التي تضمنها الباب الرابع. أما الباب الخامس فتحدثت فيه عن قاعدة الخلاف السياسي بين المسلمين وهو الأمامه ، وعن نواة الحزبيات السياسية ، ونشاط رجال المذاهب من أجل نشر ارائهم ، والتوسع على حساب غيرهم ، خاصة في بيئة المغرب الاسلامي ، وبين سكانه الذين كانوا ينعمون بهدؤ وبساطة مذهبية .

وعندما أثمرت حركة الدعوة للمذهب الخارجي بين مسلمي افريقية والمغرب الذين كانوا يعتبرون بحسب العرف الجاري - من طبقة الموالى - وانتشر تأثيرها بين بربر مطغرة وزناته ، وهوارة ونفوسه وورفجومة ولماية وغيرها ، عمت الفوضى سائر اجزاء بلاد المغرب من طرابلس الى طنجة .)

— ز —

لم يستطع ولاة الخلافة الاموية والعباسية ، وبعض الامارات والأسر المحلية أن يضعوا حدا لهذه الفوضى والفتن الداخلية أي لم يتمكن أي منهم من وقف حركة التطور السياسي والمذهبي التي فرضت نفسها وظهر تعبيرها قبيل منتصف القرن الثاني للهجرة ، في شكل خاص : هو التجزئة الاقليمية : السياسية والمذهبية ، لبلاد المغرب الاسلامي .

وظهرت الى الوجود السياسي خمس وحدات متفصلة عن بعضها البعض أسبقها ظهورا هي :

1 — الأمارة الأموية في شبه جزيرة ابيريا - وكانت عاصمتها قرطبة ، وقد أسسها عبد الرحمن ابن معاوية منذ سنة 138 هـ . ولم تتحول الى شكل خلافة الا في القرن الرابع الهجري ، وهو عصر

الصراع بين الأمويين والفاطميين - وقد أشرف على حركة التحول عبد الرحمن الثالث الذي اتخذ لقبا سلطانيا هو الناصر منذ سنة 317 هـ .

2 — ثم امارة بني واسول أو بني مدرار ، في صحراء سلجماسة . وقد أسس الامارة بربر مكناسه الخوارج الصفرية منذ سنة 140 هـ .

3 — ثم الامامة الرستمية ، وقد أسسها عبد الرحمن بن رستم ، بمساعدة لماية وأحلافها الأباضية بعد سنة 140 هـ .

4 — ثم امارة الادارسة العلويين في المغرب الأقصى ، وقد أسسها ادريس الأكبر بمساعدة أوربة وأحلافها منذ سنة 173 هـ . واتخذت هذه الامارة عاصمة جديدة على نهر سبو هي فاس .

5 —ثم امارة بني الأغلب - في افريقية (المغرب الأدنى) وقد أسسها سنة 184 هـ . ابراهيم بن الاغلب التميمي عامل الزاب ، تحت اشراف الخليفة العباسي هرون الرشيد . وقد اتخذت لها عاصمة جديدة بحوار مدينة القيروان ، سميت بالعباسية أو «القصر القديم» ، وفي عهد تاسع أمرائها أصبحت رقادة عاصمة جديدة للأمارة الأغلبية .

— ح —

ولأن هذه الوحدات عجزت عن أن تنسق فيما بينها ، ولم تستطع أن تنشر الهدؤ والأمن وتبسط سيادتها الا في نطاق محدود من أرض المغرب الاسلامي ، بسبب الخلاف المذهبي ، وارتباط نظام الأغلبية بالخلافة العباسية فانها لم تستطع بسبب ذلك ان تعمر طويلا ، وتهاوت صروحها أمام الداعي الشيعي ، وسقطت مدنها وقواعدها تباعا . وحلت محلها في المنطقة دولة علوية جديدة هي الدولة الفاطمية ، التي حاولت منذ عهد عبيد الله المهدي الى عهد المعز لدين الله ، أن تبسط سيادتها الروحية والبسياسية على شبه جزيرة ابيريا . فلم تدرك من ذلك شيئا . وبقيت بلاد الأندلس عنوانا على الأستقلال السياسي والمذهبي عن الفاطميين والعباسيين أيضا .

وفي الختام : أرجو أن أكون قد أسهمت بجهد متواضع في إلقاء بعض الأضواء على فترة هامة من تاريخنا المشترك مع اخواننا أبناء المغرب العربي الكبير والله من وراء القصد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

د . لقبال موسى

كلية الآداب - جامعة الجزائر-

1 ــــ المصطلح الجغرافي

سمي هيردوت المؤرخ ، والرحالة الاغريقي ، وأبو التاريخ كما كان يلقب ، النطاق الجغرافي الممتد من غرب مصر ، حتى البحر الكبير باسم (ليبيا) وأطلق على سكانه اسم (الليبيين) ، تمييزا لهم ، عمن جاورهم ، وراء خط الرمال ، من زنوج وقبل اليونان رحالتهم ، ومؤرخيهم ، كان القرطاجيون قد عرفوا سكان البلاد الاصليين (بالافرى) (1) ، ويظهر أنهم قصدوا بهذه التسمية ، من كان يتبع سلطانهم تبعية مباشرة ويضرب حول مدنهم الكثيرة وأهمها ، أو تيكا او القرية القديمة ، وقرطاجنة ، أو القرية الحديثة ، وربما كانت كلمة «الافرى» أصلا اشتقت منه كلمة (افريقية) (2) التي أضحت تدل لا على النطاق الجغرافي السابق ، بل على قارة من قارات (3) الدنيا القديمة . وبتحطيم قرطاجنة ، عقب الحرت البونية الثالثة (149 ـ 146) ق م وانتصاب السيادة الرومانية في المنطقة ، تظهر في المصطلح الادارى الجغرافي (افريقية) او (ولاية افريقية البروقنصلية) للدلالة على المناطق التي كانت تبعيتها مباشرة للقرطاجنيين ، و (نوميديا) للدلالة على المنطقة ، المتوسطة التي تليها ، وكانت مستقلة . و (موريطانيا) للدلالة على المنطقة الغربية المتطرفة ، وكانت هي الاخرى ، مستقلة عن الرومان . وبتقدم النفوذ الروماني ،

---

(1) قد يراد بالافرى ـ نوع من السكان ، يسكنون الكهوف ، والمغارات ، اعتبارا بأن افرن ـ كلمة امازيغية ، تعني الكهف ، وفضلا عن ذلك ؛ فالتقارب بين كلمتي أفرى وحفرى يرجح هذا التأويل . والانسان الحفرى ؛ معروف عند المهتمين بالدراسات الاثرية ؛ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب 1 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ، 9 ـ 10

(2) في رأى ابن خلدون ومن تابعه ـ أن الكلمة ، نسبت لملك حميرى نزلها يسمى افريقس ـ وابن عبد الحكم ، يرى أن الافارقة ، سكان المنطقة هم الذين سميت بهم البلاد .

(3) وعن التطور في مفهوم افريقية 11 حتى أصبح يعني القارة كلها ، وفي مفهوم ليبيا حتى أضحى قاصرا على أرض الجمهورية العربية الليبية أنظر : محمد عبد الهادي شعيرة : ليبيا ، الاسم ومدلولاته . حولية كلية الآداب والتربية بنغازي مجلد 1 سنة 1958 م .

تجزأ القسمان الاخيران ، فأضحت نوميديا ، قسمين قسما شرقيا ، وأخر غربيا ، وغدت موريطانيا ، قسمين ، قيصرية ، وطنجية ، ثم أضيفت اليهما فيما بعد موريطانيا السطيفية ـ جريا على سياسة الرومان المؤسسة على التجزئة والتفتيت ، للوطن ، ولسكانه ـ وفي العصر البيزنطى (الرومي) يتسع مدلول كلمة (افريقية) ويصبح شاملا لكل المنطقة التي تمتد من برقة ، الى المحيط ، وعن البيزنطيين ، نقلها العرب حرفيا ـ واستعملوها بهذا المعنى العام ـ (1) وعلى هذا السنن حددها بعض المؤرخين المسلمين لم يستثنوا من ذلك ، غير اقليم المدن الخمس (بنطابلس) الذي جعل جزء مستقلا عن مصر ، وافريقية تارة ، والحق بحكومة مصر ، اداريا ، تارة اخرى (2) ، وفي ابن عبد الحكم ـ أقدم وأوثق ، مؤرخي الفتح ، ما يشير الى ان قرطاجنة ، وكانت مستقر سلطان افريقية ، تغلب عليها جرجير ، وكان نفوذه يمتد من طرابلس الى طنجة (3) ويشبه رأى ابن عبد الحكم ـ ما قاله البكرى من ان افريقية تمتد شرقا حتى برقة وغربا الى طنجة الخضراء (4) ويبقى مصطلح افريقية ذا مدلول واسع حتى يظهر في الافق الادارى مصطلح جديد ، هو (المغرب) فيضيق مدلوله تدريجيا ، ويستقر غالبا ، على نطاق فحص القيروان ، أو على المنطقة التي تمتد من طرابلس حتى بجاية ، التي عرفت أحيانا (المغرب الادنى) (5) .

أما مصطلح المغرب فيرتبط ظهوره ، بعصر الفتنة بين على ، ومعاوية ، أى قبل منتصف القرن الاول الهجرى ويظهر أنه استعمل في هذه الفترة للدلالة على الجزء الغربي من العالم الاسلامي ، الذي كان يشمل مصر بملحقاتها ، والشام وما جاوره ويقابله

---

(1) أحمد بن سعيد . التيسير في أحكام التسعير (خ . ورقة رقم 8) ، عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 2 ، 125 وما بعدها . سعد زغلول : المرجع السابق 9 ـ 10 . وكانت افريقية تسمى مزاق (= بيزاسين) . وبهذا وردت في الشعر ، انظر ابن ابن عبد الحكم : فتوح 267 .

(2) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 229 ـ 230 ؛ ط عبد المنعم عامر .

(3) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 246 ـ ويغلب على الظن أن أعتبار مستقر ، جرجير قرطاجنة لا سبيطلة وهم واضح .

(4) المغرب في وصف بلاد افريقية والمغرب ص 21 ، ابن ابي دينار : المؤنس 19 ـ 20

(5) ويلاحظ ابن ابي دينار ان المعاصرين له يحصرون مفهوم افريقية في النطاق الجغرافي الممتد من وادى الطين الى باجة . انظر : المؤنس 20 .

من الناحية الاخرى ، المشرق الاسلامي الذي كان يشمل العراق ، وفارس ، وما وراء النهر. فابن الاثير يشير الى أن عليا أثناء استعداده ، في الكوفة لحرب معاوية في الشام ، خاطب رجاله في الكوفة بقوله : (تجهزوا للمسير الى عدوكم من اهل المغرب ،) وأرسل الى عامله على البصرة ، وهو ابن عباس - يأمره بالاستعداد وتهيئة الناس ، ويقول له : (قد أجمعنا ، على المسير الى عدونا من اهل المغرب) (1) أما اطلاق مصطلح (المغرب) على نطاق شمال افريقية ، كله ، أو جزء منه (2) فأغلب الظن أنه لم يقع ، قبل القرن الثالث الهجرى أى في عصر ابن عبد الحكم ، الذي أشار في حديثه عن نشاط معاوية ابن حديج بقوله : (خرج الى المغرب ، بعد ابن أبي سرح معاوية ...) (3) وكذلك في كلامه عن حسان ومجهوداته في المنطقة (4) وبينما يميز ابن عذارى المراكشي ، بين مصطلحات افريقية ، والمغرب، والاندلس (5) نلاحظ أن الاصطخرى يعتبر المغرب نصفين ، نصفا شرقيا ، هو شمال افريقية ونصفا غربيا ، هو الاندلس ، ويجمعهما في مصور جغرافي واحد (6) .

أما الشريف الادريسي فيحدد بداية ونهاية المغارب الثلاثة صراحة وضمنا ، عندما يذكر «أن مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الاوسط ، وعين بلاد بني حماد» التي قد تمتد حتى طبرقة ، وان بلاد تلمسان بامتداداتها هي قفل بلاد المغرب (7) ، ومعنى هذا ان ما وراء ذلك شرقا هو المغرب الادني ، أو افريقية (8) ، وما وراء حد تلمسان غربا ، هو المغرب الاقصى ، الذي ينتهي عند مضيق الزقاق .

---

(1) الكامل في التاريخ ج3 ص 172

(2) يلاحظ ان اسم المغرب حتى الآن يطلق في عرف المؤرخين والكتاب الغربيين والعرب أيضا على نطاق شمال افريقية من السلوم الى طنجة . هذا بينما اختفى مصطلح المغرب الاوسط ، ومصطلح المغرب الادنى ، وبقي مصطلح المغرب الأقصى مُعمَّراً ، للدلالة على أرض المملكة المغربية الشريفية .

(3) فتوح مصر والمغرب ص 260

(4) نفس المصدر ص 274

(5) البيان المغرب ج ا ص 43

(6) المسالك والممالك ص 33

(7) وصف افريقية الشمالية والصحراوية ص 63

(8) يلاحظ ان استعمال مصطلح افريقية أكثر من استعمال المغرب الأدنى ، الذي لاحظناه في بعض المراجع المغربية . انظر : السلاوي : الاستقصاء 1 ، 33 . عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 127 ، سعد زغلول : المرجع السابق 12 .

وعلى معنى الشمول والترادف ، لمصطلحي افريقية ، والمغرب (1) ، جرى كثير من المؤرخين .

2 — عناصر السكان

سكن منطقة افريقية ، منذ عصر مبكر عنصر الامازيغ ، والافارقة ، فضلا عمن طرأ بعد ذلك ، من الرومان ، والروم ، ويهمنا بنوع خاص التعرض للافارقة ، وللامازيغ الذين كانت لهم صلة قديمة بالمنطقة . فالافارقة ، هم خليط جنسي فيهم من تجرى في عروقه الدماء السامية القرطاجية ، ومنهم من انتسب الى السلالة الآرية . أى من بقايا الرومان والروم ، أو من الايطاليين ، خدامهم ، وكان ولاؤهم غالبا لمن يسيطر على المنطقة ولبثوا حينا من الدهر ، على ولائهم للبيزنطيين وعنهم أخذوا المسحية ، ومظاهر الحضارة الرومانية . وقد دان بعض هؤلاء بالاسلام ، وتقلد بعضهم مسؤوليات ادارية وسياسية في ولاية افريقية اشهرهم (عبد الاعلى بن جريج) مولى موسى بن نصير وعن سبب تسميتهم بالافارقة - يزعم ابن عبد الحكم انهم تناسلوا من فارق بن بيصر ، الذي ضم تحت سلطانه - النطاق الجغرافي الذي ينحصر بين برقة وطنجة واليهم نسبت كلمة افريقية - ويحتمل أن يكون مراد المالكي من استعماله كلمة (عجم افريقية) هو عنصر الافارقة (2) .

أما العنصر الثاني ، فهم الامازيغ ، الذين تواطأ مؤرخو الرومان والروم والعرب والاروبيين ، على تسميتهم بكلمة هجينة تعبر عن مرحلة بدائية من التنظيم الاجتماعي ولا تعني أبدا - معنى الهمجية او الوحشية تلك هي كلمة (البربر) التي نضطر لاستعمالها في تضاعيف الكتاب لشهرتها ، وان كنا نفضل تسمية هؤلاء بما سموا به أنفسهم أي (بالامازيغ) (3) .

---

(1) اما مصطلحات افريقية الصغرى ، وجزيرة المغرب ، وبلاد الأطلس فقليلة الاستعمال بين المؤرخين .

(2) رياض النفوس ج1 ص 21، ابن عبد الحكم : المصدر السابق 229، وفيه « وأقام الافارق (= الا فارقة) ، وكانوا خدما للروم على صلح يؤدونه الى من غلب على بلادهم» . وفي القرن الثالث للهجرة (9م) لاحظ اليعقوبي ان سكان إقليم قسطيلية (الجريد) «من الروم القدم ، والإفارقة والبربر» . انظر البلدان ص 102 أما البكرى (5هـ/11م) فقد أشار الى لهجه خاصة ومتميزة لسكان مدينة سرت (ليبيا) يقوله «ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ، ولاعجمي ، ولابربري ، ولاقبطي ولايعرفه غيرهم» .

(3) في رأى نسابة البربر ، ان البتر ، من نسل قيس عيلان ، وهي قبيلة مضرية فهم ساميون من عرب الشمال ، السلاوي : المرجع 1 ، 31 (نقلا عن ابن خلدون) .

ويمثلون سكان المغرب الاقدمين ، وقد ملأوا سهوله ، واريافه وضواحيه وامصاره ، وجباله ، وبلوله ، وينتسبون فيما يزعم نسابتهم الى جد أعلى يسمى مازيغ بن كنعان بن ... حام . ويميز النسابة العرب بين جذمين كبيرين منهم يختلفان في نوع الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية .

الجذم الاول وتسمى قبائله البرانس

الجذم الثاني وتسمى قبائله البتر

ويفترض هؤلاء النسابة ان البرانس من نسل برنس بن بر بن مازيغ ، وان البتر على أوثق الروايات من ولد مادغيس الابتر بن بر بن مازيغ (1) . وبينما غلب على شعوب البرانس عموما الاستقرار في القرى الساحلية والتلية ، والجبلية ، للزراعة ولتربية المواشي فهم من فريق المستضعفين على حد تعبير ابن خلدون (2) ، غلب على البتر اخوانهم عموما ، طابع البداوة ، فيظلعنون لانتجاع المرعي الخصيب والماء الكثير . فهم من فريق أهل العز والغلبة ، عند شيخ المؤرخين . وقبائل البرانس هي : مصمودة وازداجة ، واوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وصنهاجة ، واوريغة ، ولمطه ، وهسكوره ، وكزولة (جزولة)

وقبائل البتر المشهورة هي : أداسة ، ونفوسة ، وضريسه ، وبنولو الاكبر أو لواته (3)

وهؤلاء البرانس ، والبتر ، يختلف المؤرخون ، والنسابة اختلافا شديدا حول أصلهم ، وعلاقتهم ببلاد المغرب ، ويكادون يجمعون على أنهم عناصر طارئة على هذا الوطن ، أتت بهم الهجرات البشرية من الشرق ، نتيجة لظروف سياسية خاصة ،

ولم نجد من بين المؤرخين والنسابة من يظهر برأي مقبول الا ابن خلدون ، الذي أشار الى أقدميتهم السحيقة في هذه البلاد ، وربما الى أصالتهم فهو بعد أن يستعرض الرواية التي تنسبهم الى ابراهيم الخليل ، والتي تجعلهم عناصر جنسية مختلطة ، والرواية التي تجعلهم عناصر مهاجرة ، اما من اليمن ، او من مصر او من الشام . يدحض فكرة

---

(1) السلاوى : المرجع السابق 1 ، 35 ، وعن مدلول : البربر انظر : سعد زغلول : المرجع السابق 21 وما بعدها

(2) انظر : المقدمة 2 ، 711 ، ط بيروت . وفيه «ان الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية» .

(3) ابن خلدون - كتاب العبر - ج 6 ص 89 - 90 ؛ السلاوى : المرجع السابق 1 ، 31 . سعد زغلول : المرجع السابق 30 - 31 ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 135 وما بعدها .

النسبة الحميرية ، والسامية وينتهي الى القول بانهم كنعانيون من ولد حام بن نوح ، واسم جدهم مازيغ (1) .

ويظهر لى ، أن أسطورة الهجرة ، ان صحت ، يمكن حملها على هجرات الفنيقيين من ساحل الشام الى منطقة شمال افريقية ، منذ أواخر الالف الثاني ق م . تلك التي تمخضت في النهاية عن بناء مدينتي (أوتيكا) او (عوتيقة) اى القرية القديمة وقرطاجة أي القرية الحديثة ، وعن استقرار العناصر الفينيقية واندماجها مع سكان شمال إفريقية .

أما الأمازيغ فهم قدماء في وطنهم ، وذوو نسب في بيئتهم ، وغير بعيد ان يكون جانب كبير منهم قد انحدروا من بقايا انسان شمال افريقية القديم الذي كشفت الحفريات عن نماذجه ، واما طت اللثام عن حياته ، في هذه المنطقة في عصر ما قبل التاريخ .

3 — صلة العرب بالمنطقة ، وجهودهم في التعرف عليها

لما استقر سلطان العرب في مصر ، اضطرت الضرورة الحربية والى مصر عمرو بن العاص - الى التوجه بنظره نحو اقليم برقة ، لتأمين قاعدة الفسطاط الجديدة ، وللحفاظ على المكاسب العربية في مصر ، ولدفع ما قد يظهر من مشروعات بيزنطية ، ترمى الى استرجاع مصر ، عن طريق طرابلس وبرقة ، والوثوب منها الى الشام ، واقتضت هذه (الاستراتيجية) أن يسن عمرو سنة يحتذي بها من جاء بعده ، من ولاة مصر ، من ارسال البعوث والسرايا والطلائع ، لكشف المنطقة ، وللتعرف على سكانها ، وكسبها الى حظيرة الاسلام ، والدولة العربية ، قبل مفاجآتهم بجيوش ضاربة تحتل المنطقة عنوة .

واول بعث ارسله عمرو الى منطقة برقة كان بقيادة قريبة عقبة بن نافع الفهرى ، الذي رجع اليه ، بأخبار مشجعة ، عن المنطقة ، وعن سكانها ، من قبيلة لواته ، ذات الماضي البطولى ، في الكفاح ضد البيزنطيين (2) حملته تلك الاخبار على التوجه بنفسه

(1) وعن هذه الناحية ، وعن احتمال انتساب فرع البتر الى عدنان ، وفرع البرانس الى قحطان ، انظر : لقبال موسى : البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي مجلة الاصالة عدد 24 مارس افريل ، 1975 .

(2) ابن عذارى : البيان المغرب ج1ص1

على رأس جيش من الفرسان ، الى منطقة برقة ، فافتتحها ، صلحا على أُساس قبول اهلها اللواتيين ـ لمبدأ دفع الجزية للمسلمين في مصر ، وفي نفس الوقت ، تمكن عقبة قريبه من احراز نجاح كبير في زويلة ، وبين سكانها الذين قبلوا بالجزية يدفعونها للمسلمين .

وبعد أن تمهدت الامور بين المسلمين ، وبين بربر لواته ، وقبائل صحراء زويلة تقدم عمرو الى مواطن هوارة ، ونفوسه ، وزواغة في سرت ، وطرابلس ، وصبراته وودان ، فأحرز من النجاح في طرابلس وصبراته وغيرهما من مدن الساحل ما احرزه بسر بن ابي ارطاة في بعث ودان وغيره من مدن الداخل ، بحيث لم يبق من المدن التابعة لأقليم طرابلس ، غير قابس ، وجربة ، وجرجيس ، ولما كانت هذه المدن محصنة ، وفي نفس الوقت قريبة من اقليم افريقية ، ومن مركز الثقل سواء في قرطاجنة او في سبيطلة ، فان عمرا لم يشأ أن يجازف بأرواح المسلمين ، قبل أن تكتمل عدته ويكثر عدد جنوده ، ويستطلع رأى الخليفة (عمر) في المدينة (1) .

فلما كتب اليه يستأذنه ، في التقدم الى افريقية (2) ، نهاه ، لتخوفه على مصير المسلمين ، وسط أرض مجهولة ، وفي محيط بشرى متقلب الاهواء (3) . فرجع عمرو الى الفسطاط . بعد أن أصبحت برقة قاعدة ثابتة للمسلمين .

ورغم أن نشاط عمرو في المنطقة لم يشتمل على معارك حاسمة ، ولا على سياسة تهدف الى الاستقرار ، ولم يغير شيئا من عقائد السكان ، ولا من ولاء أغلبهم ، فانه عرف الفاتحين ، وقادة البعوث بعده ، بمدى أهمية القرب من الساحل ، ومبلغ خطورة التوغل في الداخل ، والفائدة من وراء كسب ولاء الدواخل أو ضمان حيادها ، على الاقل ، لاحكام السيطرة على السواحل .

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 229 وما بعدها .

(2) نفسه 232 ، وفية قوله «ان الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل» .

(3) نفسه . وفيه «لا ، انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة» .

وأثبت ابقاء عمر ولعقبة بن نافع في برقة داعيا مرشدا ، ومعلما ، بين بربر لواته ، رغبة عمر والواضحة ، في الاحتفاظ بقاعدة برقة موالية للمسلمين . وبرهن عقبة ، على مقدرة ، وكفاءة ، بما أداه من جليل الخدمة للاسلام ، والمسلمين الجدد ، وبما وفر من راحة للبعوث والحملات الاستطلاعية التي تقاطرت على أفريقية من الفسطاط ، ابتداء من سنة 27 هـ .

ومن أعظمها شأنا — حملة العبادلة (1) ـ التي قادها ـ خلف عمرو ـ في ولاية مصر . عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ذلك أن هذا القائد ، لم يضع وقتا كثيرا أمام طرابلس التي تحصن بها أهلها ، وأوصدوا الابواب في وجوه المسلمين كما تحاشى قابس ـ بلد الافارقة ـ التي بذل جرجير ـ جهدا ملحوظا في تحصينها ونفذ بقوته الى منطقة افريقية ، نفسها فاقتحمها ، وعسكر في (عقوبة) بقرب عاصمة جرجير ـ سبيطلة ، ومنها بدأت جهود القائد للتعرف على المنطقة .ولاستمالة حاكمها الثائر على دولته ، كي يقبل الاسلام دينا ، أو مبدأ دفع الجزية للمسلمين .

وعندما إستبان للمسلمين عدم جدوى اقناع رجل معاند ، مزهو بنفسه ، وبكثرة رجاله ، وماله ، التحموا مع جيوش الروم الضاربة فنالوا منهم ، وقتلوا جرجير (2) . ومنعوا فلولهم من الدخول الى سبيطلة للتحصن بها ، تمهيدا للاستيلاء عليها ، وتحطيم آخر مقاومة للروم ، والافارقة واحلافهم البربر .

ويظهر أن ما عزم عليه الروم ، من تجميع صفوفهم ، ومناجزة ابن ابي سرح من جديد ـ ثأرا لما حل بهم ، وبقائدهم وعاصمتهم . قضى عليه في المهد ـ استبسال ابن ابي سرح والمسلمين ، وتصميمهم على اللقاء . ومن ثم مالوا الى الموادعة والمسالمة ،

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 246 وما بعدها ، ابن عذارى : البيان المغرب 1 ، 2 ـ 3 ، السلاوى : المرجع السابق 1 ، 35 وما بعدها ، سعد زغلول : المرجع السابق 89 وما بعدها ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 152 وما بعدها .

(2) هو جرجير الثاني ، الذي يعرف في المصادر العربية بالبطريق ، وكان ثائرا ضد الامبراطور البيزنطي في القسطنطينية ، لذلك لم يبق في قرطاجنة الساحلية . وانسحب الى سبيطلة الداخلية .

واقترحوا على ابن ابي سرح ، أن يقبل منهم مالا كثيرا ، ويرحل عن بلادهم دون أن يتعرضوا له بسوء . فاهتبل ابن ابي سرح الفرصة ، وقبل مالا كثيرا . وانسحب الى الفسطاط في اواخر سنه 29 هـ . .

وبالنظر لقبول قائد الحملة ، لمبدأ الانسحاب مقابل المال ، ولنشوب النزاع على المغانم بين المحاربين ، وللمبالغة في تقدير ، ما تحصل عليه المسلمون من الروم . نرى أن الحملة كانت حملة غنائم ، وقد لعب فيها المال دورا بارزا ، ذلك ان قائدها لم يخطر بباله ، ان يترك بعد انسحابه ـ واليا مسلما ، أو حامية عربية ، أو يبني قاعدة عربية يلجأ اليها المسلمون ، وينطلقون منها لفتح ما يليها ولعل الميزة الوحيدة التي تحمد لابن ابي سرح ، هي اشتراطه على الروم في عقد الصلح أن تبقى المناطق التي استولى عليها المسلمون قبل الصلح ، بأيديهم ويردوا ما احتلوه بعد عقد الصلح الى أهله ؛ غير أن هذا الشرط يعتبر لاغيا وغير مفيد ، مادام ابن ابي سرح ، لم يبق من يمثله ، ويطبق هذا الشرط ، ويوقف الروم والافارقة عند حدود مناطقهم ، ولم ينفرد بذكر هذا الشرط النويري ـ كما لاحظ مؤنس ـ بل ذكره أيضا ابن عذارى المراكشي ونص عبارته : (وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح ، فهو لهم ، وما أصابوه بعد الصلح ، ردوه عليهم (1) . وقد شغل المسلمون بعد ذلك ، بأحداث «الفتنة الكبرى» ولم يستعيدوا قوتهم ونشاطهم ، الا بعد أن حققوا وحدتهم واتفقوا على خليفة واحد . هو معاوية بن ابي سفيان مؤسس دولة بني أمية بعد عام الجماعة الاول سنة 41هـ (2)

وقد آلت مصر وافريقية . حسب الاتفاق الثنائي بين عمرو ومعاوية الى واليها القديم عمرو بن العاص . وقد كنا نتوقع ـ على خلاف ما جرى ـ ان يبادر هذا الرجل المغامر ، فيتم مشروعاته القديمة التي حد منها نهي عمر بن الخطاب ، غير أننا لم نلحظ أى مجهود في افريقية ينسب لعمرو في ولايته الثانية على مصر . وفي تعليل ذلك لابد من الاشارة الى أن عمرا ، علت به السن ، واندمج في أمور مصر والمشرق ، وليس بمستبعد أن يكون لمعاوية ضلع كبير في تجميد نشاط عمرو وحصره في مصر فقط ، تمهيدا

(1) ابن عذارى ـ البيان ج1 ص 8

(2) ابن الاثير : الكامل ج3 ص 47 ـ 49 ـ السلاوى : الاستقصا، ج1 ص19 ـ 21 جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص 58 ـ 67

للتخلص مما اعترف به لعمرو من الجمع بين ولايه مصر وشؤون افريقية ، ويؤيد هذا الاتجاه ، وندامة معاوية مبادرته بعد موت عمرو ـ بتعيين ابنه عبد الله على مصر فقط ، وعزله بعد فترة يسيرة ، وتقديم عقبة بن عامر الجهنى لولاية مصر . أما افريقية فقد انتدب لفتحها ، بعد طول الهجران ـ قائد جند مصر ، وأخلص رجل ، لقضية عثمان ، وحزب بني أمية ذلك هو معاوية بن حديج الكندى (1) الذي يرتبط بنشاطه ، ويتصل باسمه ، تخطيط استراتيجية جديدة لا عهد لمن سبقه بها . قامت على أساس الاستناد ، على قاعدة ثابتة في المنطقة ، يستقر فيها الجند صيفا وشتاء بعتادهم ومؤنهم ، ومنها ينطلقون لاخضاع النواحي (2) ، وكسب ولاء السكان ، ولما لهذه الاستراتيجية من اهمية في اتمام عملية الفتح الحقيقي ، وفي التمهيد ، لارساء قاعدة القيروان الاسلامية ، اخترت عهد مهندسها ، نقطة انطلاق لموضوع الكتاب .

وعسى أن يكون فيض الهداية ، وعين العناية من الله ، قد شملاني ، اذ وفقت الى هذا الاختيار .

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 260 ويصفه بالتجيبي ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 11 . السلاوى : المرجع السابق ، 36 . سعد زغلول : المرجع السابق 121 وما بعدها . عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 174 وما بعدها .

(2) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 260 ، وفيه « واتخذ قيروانا عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج الى مصر »

الباب الأول

قاعدة القيروان

1 ـــ اصول النشاة والتكوين

يتفق ابن عبد الحكم ، والدباغ ، على القول بأن معاوية بن حديج قام في افريقية ، بثلاث حملات ، احداهن سنة 34 ه والثانية سنة 40 ه والاخيرة سنة 50 ه .

ونعتقد ان تحديد حملة معاوية بسنة 34 ه او بعدها بقليل ، غير مقبول (1) لان الأوضاع الداخلية . في مركز الدولة العربية ، وفي ولايه مصر ، قاعدة الفتح ، كانت غير مناسبة ولان الامور لم تستقر بعد في يد معاوية بن ابي سفيان ، فكيف يوافق على تسيير جيشه . وقادته الاوفياء ، لقضيته في سنتي 34 او 40 ه بعيدا عنه الى ميدان افريقية . اما تحديد نشاط معاوية بسنتي 45 أو 47 ه فيبدو مقبولا ، لانه يتفق ومجريات الاحوال في مركز الدولة العربية ، وفي مصر . فقد استقر نظام معاوية في الشام . وتوفي عمرو بن العاص ، واصبح لزاما على الخليفة الجديد ، أن يعيد الفتوح سيرتها الاولى . بعد أن توقفت ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى ، وفي افريقية نحو عشرين سنة . وينبغي بعد أن حصرنا نشاط معاوية بن حديج في حملة واحدة (2) ان نذكر أنها ربما انتهت من عملها في افريقية على رأس الخمسين ، أو قبلها بقليل .

ويجعل الدباغ من نتائج حمله سنة 34 ه احتفار آبار حديج عند مصلى الجنائز بمدينة القيروان فيما بعد . ومن نتائج احدى الحملتين الاخريين ، بناء معسكر بالطوب عند جبل «القرن» بينما يجعل ابن عبد الحكم هذه النتيجة الاخيرة ، من لواحق حملة سنة 34 ه . ويطلق على المعسكر اسم «القيروان» (3)

(1) انظر ابن عذارى : البيان 1 ، 11 . وهنا ينفرد برواية مسير حملة ابن حديج سنة 30هـ

(2) وكانت فيما يرجح سنة 45هـ ، انظر : ابن ابي دينار : المصدر السابق 27 . السلاوى المرجع السابق 1 . 36 . أما نشاط ابن حديج قبل ذلك فيحمل على اشتراكه في نظام البعوث والسرايا التي لم تنقطع اثناء ولاية عمرو الثانية .

(3) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 260 ـ 261 المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 17 ـ ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 12 ـ 13 ـ أبو العرب تميم : الطبقات ص 15 ـ الدباغ : المعالم ج 1 ص 113 ـ 114 ـ ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 44 ـ 45 ابن خلدون : العبر ج 6 ص 108 ـ السلاوى : الاستقصاء ج 1 ص 36 ـ الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 172 .

أما اسباب هذه الحملة فترجع الى الاوضاع الداخلية المضطربة في افريقية والى تطور العلاقة بين البيزنطيين ، والاهالى الذين ساءهم أن يرهقهم حكام بيزنطة ، بمطالب مالية اضافية اسوة بما أخذه العرب منهم ، نظير انسجابهم ، بعد موقعة «سبيطلة» . وكلما أمعن او ليمبة (اوليمبوس) مندوب الامبراطور (قنسطانز الثاني) (641 ـ 668م) في الضغط على السكان ، ازداد هؤلاء اصرارا على الامتناع ، والتمسك بقولهم : «نحن نؤدي ماكان يؤخذ منا ، وقدكان ينبغي له ، ان يسامحنا ، لما ناله المسلمون منا» (1) وترتب على الالحاح من ناحية ، والرفض من ناحية أخرى ، هياج ، وفتنة ، واضطراب الجأت القائم بأمر افريقية (جناديوس الذي يذكره مرسية باسم (جناحه) وابن عذارى باسم (حباجبه) تحريفا لكلمة اجناديوس الى طرد مندوب الامبراطور بمساعدة ورضا السكان ، ثم الالتجاء الى معاوية في دمشق لينجده وحزبه ضد خصم جديد جمع حوله نفرا من الاهالى ، يسميه ابن عذارى (الاطريون) : (الارطبون) وبناء على هذه النجدة ، اغتنم معاوية بن أبي سفيان الوضعية المضطربة في افريقية . وانفذ حملة ابن حديج مع جناديوس الى افريقية . فهلك القائد الاغريقي ، في الاسكندرية ، ومضى معاوية الى افريقية . فوجدها نارا **تضطرب** على حد تعبير ابن الاثير ، ووجد سكانها يسود علاقتهم مع بيزنطة الارتباك ، والاضطراب ، فعسكر بقواته قرب قرية «الجهنيين» بجوار مرتفع القرن ، او ممطور ، حيث ستقوم قاعدة (القيروان) الخالدة . وكل ذلك في اقليم «قمونية» او «قمودة» (2).

ومصطلح القرن ، أو ممطور ، يرتبط بذكرى معاوية بن حديج ، ويدل على ذلك المرتفع الذي يقع الى الجنوب الغربي ، من مدينة القيروان ، والمعروف الآن باسم (جبل الباطن) اى باطن القرن (3) . ومن معسكر القرن ، انطلقت البعوث والسرايا الى الانحاء : سريةٌ قادها عبد الله بن الزبير الى منطقة سوسه على الساحل التونسي حيث

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 45

(2) يذكر مؤنس حسين : ان قمونية لم يرد لها ذكر في البكرى . والحقيقة انها وردت باسم كورة قمونية ، ومن قراها المروية ، ومذكود أم الاقليم ، ومنها الى جمونس الصابون . انظر فتح العرب للمغرب ص 120 هامش 4 والمغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 75 .

(3) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ج 1 ص 45 وهامش 1

عسكر أحد البطاركة البيزنطيين ويسمى (نقفور) ، تمهيدا للانقضاض على المسلمين ، وسرية قادها عبد الملك بن مروان ضد حصن جلولاء المنيع الذي لا يبعدعن موضع القيروان با كثر من اربعة وعشرين ميلا ، وسرية اخرى الى منطقة بنزرت ، وارسل رويفعا بن ثابت الى جزيرة جربة ، فافتتحها ، وعبد الله بن قيس الغزارى الى جزيرة صقلية فنال من سرقوسه كبرى مدن الجزيرة ، ورجع سالما (1) .

اما الجوانب العمرانية ، ومعالم سياسة الاستقرار التي ارتبطت بالحملة ، ومهدت لقيام القيروان فأهمها :

أ) احتفر معاوية عند معسكر القرن ، موضع القيروان ، آبارا يشرب منها الجند ، وخيولهم ، سميت (آبار حديج) أي غلب اسم أبيه «ومكانها الآن خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق ، عند مصلي الجنائز» (2)

ب) بني عند جبل القرن وحول معسكره ، دورا ، ومساكن بالطوب أطلق عليها اسم (القيروان) وذلك قبل أن تظهر الى حيز الوجود ، مدينة القيروان بمدة سنين واقام فيها مدة وجوده في افريقية ، ومنها بث السرايا الى الارجاء .

ج) ومن مات في هذه الحملة من الصحابة ، والتابعين وبنيهم ، دفن الى جوار معسكر القرن . ومنهم ابوزمعة البلوى الصحابي الذي استشهد في حصار جلولاء فأخذ جثمانه الى حيث يقوم ضريحه الآن في (البلوية) احدى مقابر القيروان الآن التي نسبت اليه ، ثم فاطمه بنت عبد الله بن عمر حفيدة الخليفة الثاني ، التي دفنت بمقبرة باب سلم الآن في القيروان .

وفيما عدا ابن الاثير من مصادر الفتح ـ فان النصوص لم تحدثنا عن طبيعة علاقة ابن حديج مع السكان الاصليين ، أما ابن الاثير فقد أضفى على نشاط ابن حديج ، أهمية بالغة ، وجعل من نتائجه اخلاد الناس الى الراحة والهدوء ، وانقيادهم وطواعيتهم ، الى السلطة حتى عصر الخليفة هشام الذي ظهرت في عصره ببلاد المغرب ، الحركات

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق 1، 10 . ابن أبي دينار : المصدر السابق 28 . السلاوي : المرجع السابق 1، 36 . وفيه ما يفيد أن معاوية بن حديج عزل عن افريقية وأبقي على مصر فقط ، أي بوصفه قائدا للجند ورأس العثمانية بمصر ، وليس واليا عليها كما توهم بعض المؤرخين .

(2) الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 113 ـ 114 ـ المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 19 .

الخارجية بتأثير سياسة ولاة بني أمية ، وهجرات أهل هذه النحلة الى المغرب ، ونص عبارته : «فسكن الناس ، وأطاعوا وعادوا الى مصر ، ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع اهل البلدان وأسمعهم الى زمان هشام حتى دب اليهم اهل العراق»

وابن الاثير ، على حق في موقفه ، وفي استنتاجه . فقد حققت حملة ابن حديج انتصارا على الروم في افريقية واستولت على أهم حصونها ونشرت نفوذ المسلمين ، حتى بنزرت ، وجربة ، وصقلية ، وأهم من ذلك كله ، عرفت العرب بارجاء افريقية ، معرفة تكاد تكون تامة ، ووضعت نواة لقاعدة القيروان (1) .

2 ــ بناء قاعدة القيروان

تميزت مجهودات العرب الحربية ، في افريقية ، منذ عهد عمرو بن العاص الى عهد معاوية بن حديج ، بميزتين : الكشف والتعرف على هوامش الاقاليم ومسالكه . دون الايغال في أراضيه ، ثم العودة السريعة ، بعد انتهاء عمليات الاستطلاع ، اما الى برقة ، او الى الفسطاط ، او الشام . اكتفاء بما حصلوا عليه من معلومات ، ومغانم ، وأسلاب . والسبب في هذه الظاهرة انه لم يكن للعرب ، وقتئذ بافريقية ، معقل حصين يحميهم ، ولا مدينة يلتجئون اليها ، بعد انتهاء أعمالهم ، لاصلاح شؤونهم ، واستجماع قواهم ، وتضميد جراحهم ، وتجديد أسلحتهم . وفي فتوح البلدان للبلاذرى ما يفيد عودة ابن ابي سرح سريعا بعد عقد الصلح ، لانه «لم يكن لافريقية يومئذ قيروان» (2) ، ولا مصر جامع .

غير أن بعض قادة الحملات ، اهتموا منذ بداية وصولهم الى افريقية ، باختيار مكان مناسب ، ينزل فيه الجند بحريمهم ، وذراريهم وأثقالهم ، ويضربون فيه خيامهم ويجتمعون فيه كلما انتهت الحرب ، ريثما يرجعون الى المشرق .

(1) ابن عذارى : البيان ج 1 ص 13 ـ السلاوى : الاستقصاء ج 1 ص 31 ـ ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 230 ـ الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج 4 ص 172 ـ ابن خلدون : العبر ج 6 ص 108 . أما ضبط اسم القائد وتحقيق نسبة فمما اختلف فيهما المؤرخون . فابن خلدون ، والدباغ يجعلانه بن خديج بالخاء . ومرسية يتردد بينها وبين الحاء المهملة ، وعليها جرى السلاوى وابن الاثير والبكرى وابن عبد الحكم ، وتابعهم فورنيل ، وهو المشهور والمتواتر ، وفيما يخص نسبة فابن خلدون وابن الاثير ينسبانه الى (سكون) وابن عبد الحكم والبكري ينسباته إلى (تجيب) وابن عذارى والمالكي والسلاوى يرجعونه الى (كنده) ، أما ابن الناجي فيورد نسبة ، كاملا ، على نحو يثبت صحة نسبة الى (سكن) التي هي فرع من قبيلة كنده . ويرد نسبته الى تجيب .

(2) فتوح البلدان : 229 .

أما فكرة بناء قاعدة ثابتة ، وترك حامية عربية ، لحراسة ما وفق المسلمون الى فتحه ، فلم تظهر بين مشروعات القادة الاولين ، واول من اختار «قيروانا» للنزول فيه هو معاوية بن حديج الذي لاحظنا ان (استراتيجيته) الجديدة تعتبر ارهاصا حقيقيا ، لما تم فعلا في عصر خالفه ، عقبة بن نافع الفهرى ، الرجل الذي غير وجهة الحرب المغربية ، تغييرا كبيرا ، فسعى ونجح في تمكين العرب من اقليم المغرب .

وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى القرشي ، الصحابي ، مولدا ، وآخر من نزل افريقية من طبقة الصحابة ، والذي عين من طرف الخليفة معاوية ، واليا على افريقية بعد انتهاء مهمة سلفه ابن حديج ، لم يكن حديث عهد بهذه الارض . فقد عرفته منذ أكثر من ربع قرن ، مجاهدا ومرابطا ، وداعية ، ونموذجا لما ينبغي أن يبدو عليه المسلم المتحمس لعقيدته . واليه يرجع الفضل فيما أحرزته جهود العرب من نجاح في ليبيا ، وصحرواتها (1) ، وفي منطقة افريقية حتى بداية النصف الثاني من القرن الاول الهجري . وعلى عكس غيره من قادة الفتح ، فقد سلك في نفاذه الى منطقة افريقية . طريق الصحراء ، عبر الواحات ، وفي الرمال ، وتجنب الطريق الساحلي الذي سلكه أغلب قادة الفتح وأصبح لشهرته يعرف «بالطريق الاعظم» عند ابن عبد الحكم و «الجادة» عند ابي عبيد الله البكرى . فأذعنت لدعوته قبائل لواته ، ومزاته ، واطرحت جانب الردة والعصيان ، وافتتح قصور المنطقة . وتمكن بعض فرسانه من السيطرة على مدينة (غدامس) ومن قفصة التي استولى عليها ، توجه نحو اقليم (قسطيليه) اى منطقة الجريد (2) . وأم مدنها توزر - فأذعنت للطاعة ، ولما كان لايعرف - حتى هذا الوقت - عمران ، ولا حياة بشرية ، وراء هذا الاقليم ، فان عقبة رجع مصعدا الى اقليم الهضبة الوسطى ، وفي منطقة (قمونية) وقف على جهود سلفه ، في بناء معسكر القرن ، فلم يعجبه كثيرا ، وقال لأصحابه : «ان افريقية اذا دخلها أمير ، تحزم أهلها بالاسلام ، فاذا خرج منها ، رجعوا الى الكفر ، واني أرى أن أتخذ بها مدينة ، نجعلها معسكرا ، وقيروانا تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » (3) . فاستحسن جنوده الفكرة وتحمسوا لبنا

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 262 وما بعدها . ابن عذاري : المصدر السابق 1، 13. ابن أبي دينار المصدر السابق 29 . السلاوي : المرجع السابق 1، 36-37 سعد زغلول : المرجع السابق 134 وما بعدها عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 191 وما بعدها .

(2) نفسه 264 - 265 .

(3) ابن عذاري : المصدر السابق 1. 13

معسكر يأويهم ، وقاعدة ثابتة ، ينطلقون منها لمزاولة نشاطهم العسكرى ، والتبشيرى ، ولاخضاع القبائل المخالفة ، ومقاومة الروم والافارقة .

وفي غمرة الحماس اقترح بعض رجاله ان تكون القاعدة الجديدة ، قريبة من البحر ، لتكون لجنودها صفة الرباط فلم يقبل ذلك ، لما يجره على المسلمين وقاعدتهم الناشئة من متاعب ، ومخاطر ، من جانب الروم المتفوقين بحريا . كما استبعدت فكرة التوغل بالقدعدة في الداخل ، خشية من تحركات القبائل البربرية ، المتقلبة الاهواء ونجح اخيرا الرأي الوسط ، الذي يقترح بناءها في موضع ، بين الساحل ، والداخل على أن تكون قريبة من السباخ ،ليمكن لأبل المسلمين ، ان ترعي ، في امان (1) .

وبعد هذا الاتفاق ركب عقبة وجماعة من اصحابه ، وبدؤوا يرتادون المناطق ليتعرفوا على انسبها لقيام قاعدتهم الجديدة ، وفي موضع المدينة الحالية ـ الذي كان اجمة تمتليء بالغابات والوحوش على راى اغلب المؤرخين (2) غير المالكى ، الذي زعم ان مكانها كانت تقوم فيه كنيسة او قصر قديم ، ركز عقبة رمحه في الارض وقال : «هذا قيروانكم» فانتقل الناس ، من معسكر القرن ، وبدؤوا يباشرون عمليات التنظيف تمهيدا لتخطيط المدينة ، وبعد أن خطط لاصحابه مواضع نزولهم ، شرع في بناء المسجد الجامع ، في مقره الحالي ، واتخذ حذوه من الجهة الجنوبية دار الامارة لنزول الولاة ، وقلد في ذلك ، وفي خطط القبائل السنن التي راعاها العرب في انشاء مدائنهم الاولى ، الكوفة ، والبصرة والفسطاط ، التي سبقت قيروان افريقية ، في الزمان ، فقد كان الولاة ، قبل عقبة ، في امصار العراق ، وفي وادي النيل يفردون كل قبيلة ، او بطن من بطون القبائل الفاتحين ، بناحية معينة من مساحة المدينة ، تسمى خطة ، لانشاء مساكنهم وأحيائهم الخاصة ، فنزل قوم من (فهر) بالجهة الشمالية من الجامع ، وبنوا مساكنهم ، واتخذوا حولها البساتين ، وعرف هذا المكان ، منازل الفهريين ، او حى الفهريين ، وهم قوم عقبة ورهطه . وهناك في القيروان حارة (يحصب) وحارة (بني نافد)

(1) نفسه 1 ، 14 . ابن أبي دينار : المصدر السابق 29 . السلاوي : المرجع السابق 1 ، 37 .

(2) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 264 ـ 265 . ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 14 ـ 15 .

ورحبة (الانصار) ورحبه (القرشيين) ، وقد يسمى المكان باسم احد الاعيان من المهاجرة .. مثل (درب المغيرة) ودرب أزهر (درب أم أيوب) (1) .

وكانت بنايات المدينة في بدء الامر، على غاية البساطة، واستعمل في بنائها القرميد الآجر المطبوخ ، لوجود الطين المناسب في نفس المكان ، وخلوه من الحجارة اللازمة.

ويبدو في نظر حسن حسني عبد الوهاب ، ان الذي حمل عقبة على اختيار مكان المسجد ، ودار الامارة هو توفر الماء ، لوجود بئر عذبة في المكان تسمى في نظره (بئر أم عياض) لا (بئر روطه) التي تبعد عن دار الامارة والمسجد بمسافة كبيرة ، وتتاخر في ظهورها - في النصوص التاريخية - حتى القرن الخامس الهجري ، مع أنها ، من مستحدثات نهاية القرن الثاني الهجرى ، **وترتبط** بذكرى ، هرثمة بن أعين والى الرشيد على افريقية حسب رواية ابن الرقيق ويلتمس لذلك سببا معقولا ، فيما اشتهرت به ضاحية القيروان من جفاف وفقر في المياه ، جعل الولاة يتجهون نحو انشاء الصهاريج - الفسقيات - لخزن مياه الامطار والسيول ، ويستبعد أن يقيم عقبة مسجده ومقر حكمه ، في مكان لا يوجد فيه الماء للشراب وللوضوء (2) .

وتنسب رواية المورخين كرامة لعقبة ، عند ما باشر الجند عملية التنظيف والبناء ، **فقد وقف على رأس الوادي الذي يخترق المنطقة ونادى بأعلى صوته مخاطبا الوحوش والحيات** «يا أهل الوادي ارحلوا رحمكم الله - فانا نازلون - وانا من وجدناه بعد ثلاثة أيام قتلناه ، فجعلت الحيوانات تخرج من الأجمة في مجموعات كبيرة ، تحمل صغارها ، وهي فارة من المنطقة ، بحيث لم ير أهل المنطقة بعد هذا النداء ولمدة أربعين سنة ، حية ولا عقربا .

وينفرد أبو العرب تميم ، والدباغ ، بنسبة هذه الكرامة لا الى عقبة بن نافع بل الى سميه عقبة بن عامر الجهني الذي جاء افريقية مع جيوش الفتح (3) .

---

(1) الدباغ : المعالم ج 3 ص 6 و 19 - البكري : ص 23 .

(2) أنظر القسم الاول من (ورقات عن الحضارة العربية) لحسن حسني عبد الوهاب ص 48 و 49 .

(3) الطبقات ص 9 - الدباغ : المعالم ج 1 ص 99 - 100 ؛ ويلاحظ أن بعض النصوص تنسب لعقبة بن عامر نفس الدور الذي قام به عقبة بن نافع ، والارجح أن ابن عامر انما ولي مصر ، ومنها قاد الغزو والثغري في البحر ضد الروم ، لكنه لم يل افريقية ، ولم يقد حملة مشهورة لفتح بعض نواحيها .

وقد حدد ابن عذارى ، مجموع مساحة المدينة ، بعد انتهاء عملية البناء بثلاثة عشر ألفا وستمائه ذراع (1) وجعلها ابن الاثير ثلاثة آلاف ، وستمائة باع (2) ويظهر ان تحديد الرجلين يشمل ، المدينة ، بما فيها ، من المسجد ، ودار الامارة ، ومعسكر الجند ، وخطط القبائل ، والمساجد الخاصة ، ثم مساكن القبائل الموالية للمسلمين ، ويؤيد ذلك أن بناء هذه المدينة حمل كثيراً من البربر على اعتناق الإسلام ، راضين مغتبطين ، والانضمام الى السلطة الجديدة ، والاقامة حول القاعدة الناشئة .

وقد واجهت المسلمين ، بعد الانتهاء من عملية البناء وتحويط المسجد مشكلة تحديد مكان القبلة ، فبقوا أياما يرقبون ، مطالع الشمس ، ومغاربها . وقالوا لعقبة : ان جميع أهل المغرب سيضعون قبلة مساجدهم ، على هذه القبلة ، كل ذلك للمبالغة ، في الدقة والضبط ، فاغتم عقبة ، لهذه الحيرة التي رانت على معسكره وتروى بعض النصوص ، أن عقبة ، وهو في منامه ، أتاه آت ، وأمره أن يضع لواءه على كتفه اذا اصبح ، ويسير فانه سوف يسمع تكبيرا ، لا يسمعه غيره ، فحيث ينقطع التكبير فهو المكان الصحيح للمحراب (3) .

ويغلب على الظن أن هذه القصة مصطنعة ، لان ابن عبد الحكم ، يقول ان عقبة ركز رمحه ، لتحديد موضع المدينة ، وليس لتحديد مكان المحراب (4) ومثلها كثير ، في حياة عقبة في افريقية ، وهي بدون ريب ، من فعل الاخباريين ، والرواة المتشيعين للفهريين (آل عقبة) ، وكما رأينا المؤرخين اختلفوا حول مشكلة تحديد القبلة ، او مكان المدينة ، وحول أول ما بني منها ، هل دار الامارة ؟ أو مسجدها الجامع ؟ اختلف أهل اللغة في تحديد مدلول كلمة (قيروان) فقيل هي موضع اجتماع الجند ، وقيل مخزن المؤن والاثقال ، وقيل هي الجيش نفسه . ولا مانع في نظرى - ان تكون القيروان - مكانا يأوي إليه المدنيون والعسكريون ويودعون فيه أمتعتهم ، وأثقالهم .. ويتساءل حسين مؤنس ، بعد أن يقرر أن لفظ (القيروان) فارسي معرب ، لماذا لا تكون كلمة قيروان - كلمة بربرية ، حرفت عنها فيما بعد كلمة (تاكيروان) ، التي أطلقت على مدينة ابي

(1) البيان المغرب ج 1 ص 16 ، ويلاحظ زغلول أن هذا يحمل على المدينة العسكرية وما جاورها .
(2) الكامل ج 3 ص 234 ، وهذا يمكن أن يحمل في نظره على المدينة العسكرية فقط ، أنظر تاريخ المغرب 147
(3) العبدري : الرحلة ص 57 - 68 ، ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 15 - 16 .
(4) فتوح افريقية ص 265 .

المهاجر دينار (1) . وهو في هذا التساؤل محاذ للتحقيقات التي وصل إليها أستاذ جيل المؤرخين في تونس حسن حسني عبد الوهاب (2) .

واختيار مكان البناء كان اختيارا موفقا الى حد بعيد ، ودل من جهة على استراتيجية عقبة الجديدة ، في عملية فتح المغرب ، وكسب سكانه ، ومن جهة أخرى عما كان ينتظره من نتائج ايجابية اثر قيام هذه القاعدة الجديدة ، وسط محيط أجنبي معاد .

فقد كانت في مركز وسط ، بين الساحل ، والهضبة الوسطى ، وفي نفس الوقت تقرب من منطقة المراعي ، وهي لذلك تستطيع أن تراقب المنطقتين معا ، وتحبط كل ما قد يتوقع من غارات بربرية مفاجئة تنطلق من ناحية الهضبة الوسطى . أو غارات بيزنطية تأتي من منطقة الساحل ، وفي امكان الجند العربي من قاعدته الحصينة ، أن يجوس خلال المنطقة للكشف والاستطلاع ، والفتح ، ثم العودة الى نقطة انطلاقه وكانت القيروان ، حتى هذا الوقت - تقع في نهاية الطريق الاعظم - الذي يمتد من الفسطاط ، عبر برقة - الى اقليم افريقية .

* * *

وكان قيام قاعدة القيروان حدثا ، له أهميته البالغة ، في تاريخ افريقية الاسلامية لانها اصبحت نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب . كما كانت قاعدة الفسطاط نواة لولاية مصر الاسلامية ، ونظرا لاهمية المنطقة ، وبكارتها وغناها ، وكثرة أسلابها ، ورحابة ميدانها - كانت منية ولاة مصر منذ عهد عمرو بن العاص .

وقد أراد باني قاعدة القيروان ، أن تكون معسكرا للجند ومأوى لذويهم ، ومستودعا لذخائرهم ، وحرزا يقيهم ثورات السكان ، وقاعدة انطلاق لاستكمال فتح المنطقة ، ونشر الاسلام بين سكانها ، ومنارة للثقافة والمعرفة ، ومقرا لولاة المسلمين وقد بقيت زاخرة ، عامرة بالعلماء والزهاد ، والمرابطين منذ أن أنشئت ، الى يوم الناس ببركة دعاء مؤسسها «المستجاب» (3) . ورغم أن ظروف بيزنطة ، وأوضاع السكان الداخلية ،

---

(1) فتح العرب للمغرب ص 54 .

(2) ورقات ج 1 ص 50 .

(3) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 16 . ابن عبد الحكم : المصدر السابق 266 .

كانت مضطربة الا أن قاعدة كهذه ، لايمكن أن يتم بناؤها دفعة واحدة ، وفي مدى قصير ، ولذلك ،روى أن عمليات البناء الاولى استغرقت نحو أربع سنين (51 ـ 55 هـ) ثم نمت وتوسعت في عهد ولاة افريقية ، خاصة حسان ، وموسى بن نصير ، ويزيد بن حاتم المهلبي ، فالاول جدد بناء مسجدها ، وزاد في عمرانها بما أقامه من مصالح حكومية . والثاني ، اهتم بتوسيعها، وأنشأ فيها (دار الضرب) لسك النقود . وهو أول من ضربها في منطقة افريقية (1) . والثالث اصلح القيروان ، ورتب أسواقها ، وجعل لكل صناعة مكانا ، متبعا السنن الذي كان معهودا في المدائن التي أنشأها العرب في العراق . مثل البصرة ، والكوفة ، وواسط ، وبغداد . وسرى نظام أسواق القيروان ، الى عواصم المغرب الاسلامي ، مثل تاهرت الرستمية ، وسجلماسة عاصمة بني مدرار الصفرية ، وفاس العلوية . وعبر الى جزيرة الاندلس وصقلية ، فظهر في بالرم ، وقرطبة ، واشبيلية (2) .

* * *

وعند ما أظلها القرن الثاني ، كانت مصرا جامعا ، وحاضرة لولاية ممتازة ، وأم مدن أفريقية الاسلامية . وفاقت في عظمتها مجد مدينة قرطاجنة وعفت على آثارها .

ويهمنا أن نلاحظ ، ان نتائج قيام قاعدة القيروان ، كانت باهرة ، فقد أقبل كثير من الامازيغ على اعتناق الاسلام ، وجاوروا القاعدة الجديدة ، واطمأنت نفوس المسلمين ، وقويت روحهم المعنوية ، واتسعت مناطق نفوذهم ، واضحت لهم حقوق ثابتة في المنطقة ، وصار لهم مجال حيوي ، للتوسع ، وزالت عنهم العزلة في البيئة وانقشع الخطر الذي كان يتهددهم من طرف السكان . ولله در المؤرخ ابن الاثير ، الذي أفصح بأجلى بيان عن النتائج عند ما قال : «ودخل كثير من البربر في الاسلام ، واتسعت خطّة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود ، بمدينة القيروان ، وأمنوا ، واطمأنوا ، على المقام فثبت الاسلام فيها» (3) ومن خلال ما اورده ابن الاثير أيضا

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ج 1 ص 51 .

(2) وقد سميت كثير من أسواق القيروان باسم مؤسسيها ، أو باسم من كان يسكن بجوارها مثل سوق اسماعيل ، وسويقة ابن المغيرة ، وسوق بني هشام ، وسوق دار الامارة ، ومثل ذلك في نسبة ابواب المدينة وأحيائها مثل باب أسلم و باب نافع ، و باب أبي الربيع ، و باب أحرم ، و باب أزهر ـ أنظر كتاب الورقات ج 1 ص160.

(3) الكامل في التاريخ ج 3 ص 235 .

نستنتج أن عقبة أثناء انشغاله بعمران القيروان وتمصيرها لم يبق ساكنا ، ولم يترك جنوده دون نشاط عسكري ، فدأب على ارسال البعوث الى الاطراف ، لبث الرعب في نفوس السكان صرفا لهم عن مضايقة المسلمين المنهمكين في عمليات البناء ، ولعل أهم ما يلفت النظر في حملة عقبة الاولى ـ انها كانت عملا (تمدينيا) لا عملا حربيا ـ وكان هدفها ، وضع (نقطة الارتكاز) وكسب ولاء السكان ومن ثم ابتعدت عن سياسة الاغارة على مراكز العمران ، للسلب ، وللمغانم ، ولذلك لم يحصل قائدها ، على ما تعود قادة الحملات السابقة ان يحصلوا عليه ، من وافر الاسلاب التي بقيت حتى هذا الوقت وبعده ، مقياسا لنجاح القائد وعاملا مهما في تمديد ولايته ، ورضا أولى الامر عنه في دمشق ، ومصر ، ومن هنا نستطيع أن نجد تفسيرا معقولا ، لعزل عقبة فجأة ـ عن الميدان الافريقي ، ولما يبدأ الشطر الثاني من مشروعه . ومن دون شك كان **مسلمة بن مخلد والي مصر الجديد ، قد ساءه انصراف عقبة عنه ، فكاد له وسهل مهمة** عزله ، وعندما أصبح يحظى بميزة الجمع بين ولاية مصر ، وشؤون افريقية (1) ، انتدب للمهمة الاخيرة مولى أثيرا ، وخادما مطيعا (2) ، وهو دينار أبو المهاجر الذي بادر منذ بداية وصوله الى افريقية ، بارتكاب هفوتين ، فأساء الى عقبة بتصفيده ، وسجنه ، وبالغ في ايذائه معنويا فهجر مدينته وأخلاها من سكانها (3) ، ويظهر أن الاساءة الى عقبة ، قد دفع اليها دفعا بتأثير من مولاه ، ولم يتراجع في ذلك ، الا عندما تدخل الخليفة لاطلاق سراح عقبة ، وارساله الى دمشق ، حيث بسط للخليفة شكاته ، في ألم وحسرة «فتحت البلاد ، وبنيت المنازل ، ومسجد الجماعة ، ودانت لى ، ثم أرسلت عبد الانصارى فأساء عزلى» فاعتذر الخليفة ، لمكانة والى مصر من الحزب الاموى . ووعد عقبة برده الى عمله ، حينما تسمح الظروف (4) .

وبالنسبة لقاعدة القيروان ، فقد كره هذا المولى ، أن ينزل فيها ويضرب معسكره وتخير لذلك ، مكانا يقرب منها ، وأقام فيه قاعدة جديدة ، وردت بصيغ مختلفة في

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 16 . ابن عبد الحكم : المصدر السابق 265 . السلاوي : المرجع السابق 1 ، 37 .

(2) نفسه 1 ، 17 . ابن عبد الحكم : المصدر السابق 266 .

(3) ابن أبي دينار : المصدر السابق 29 . ابن عبد الحكم : المصدر السابق 266 .

(4) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 266 .

النصوص التاريخية . فهي «دكرور ، او تكرور ، عند المالكي ، وتاكرونة ، وتاكيروان» عند الدباغ ، وربما كانت الصيغة الاخيرة مقتبسة من اللهجة البربرية ، وهي نطق أهلي، محرف لمدينة (القيروان) بزيادة التاء ـ كأداة للتأنيث عندهم ـ وتعويض القاف بالكاف لعدم وجوده في لهجةالبربر ، فتكروان اذا هي القيروان نفسها ، بلسان البربر ، الذين ، لايستبعد أن يكونوا قد أشاروا على دينار ببناء قاعدة ، وأثروا عليه أيضا في اختيار المكان ـ الذي ربما كان أقرب الى منازلهم ، في جبل (وسلات) مسكن قبيلة مزاته البربرية (1) .

ابتني دينار ابو المهاجر ـ قريته وسط البربر ، وبالتعاون معهم ، وجد في تشييدها ، تخليدا لآثاره في افريقية . وحرص على تعميرها بالسكان ، بينما أخلى القيروان ، وحمل الناس على هجرها ، ولكنه لم يخرب مبانيها ، فيما يرجح ـ وهذا ما ينبغي أن يحمل عليه كلام بعض المؤرخين (2) .

ونلاحظ في موقف دينار ، من قاعدة عقبة ، وتعويضها بقاعدة جديدة أقامها وسط مضارب البربر ، وبمساعدتهم ، اتجاها سياسيا جديدا ، يقوم على أساس التقرب من السكان الأقدمين ، وكسبهم للاسلام باللين والحسنى ، وربط أواصر الحلف معهم ، ضد الروم الدخلاء (3) . وهذا الاتجاه لم يتفطن له أغلب من سبق أبا المهاجر ، غير عقبة الذي رأينا جموع البربر ، تدخل في الاسلام ، اثر كل كرامة من كراماته ، واثناء بناء القاعدة ، وبعد انهائه ، انضم المسلمون البربر ، الى العرب في نشاطهم الحربي ، ضد الروم وضد غير المسلمين ، من بني جلدتهم .

وسياسة التقريب بين العنصرين ، والتحالف بين الجمعين ضد الروم ، سيسهر على رعايتها ، حسان ، وموسى بن نصير ...

ولم يتميّز هذا القائد المولى بهذه الميزة فقط ، بل تذكر النصوص التاريخية أنه أول من أوغل في المغرب الاوسط (4) ، وأول من طبق سياسة الاستقرار بعد انهاء العمل

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ج 1 ص 50 .

(2) الدباغ : المعالم ج 1 ص 42 ـ 43 .

(3) لا تعطي المصادر التاريخية لابي المهاجر ، ما يستحقه من اهتمام خاص ، بسبب اتجاهاته الجديدة ، وذلك لاساءته الى عقبة ، وكونه من طبقة الموالي ، وليس من طبقة الصحابة .

(4) السلاوي : المرجع السابق 1 ، 37 (نقلا عن ابن خلدون) .

العسكري . فأقام كامل فصول السنة في افريقية (1) ، ونعتقد ان بذور هذه السياسة ، بدأت بمعسكر القرن ، وطبقت فعلا في بناء قاعدة القيروان ، وان لم يترك عقبة ، حتى تظهر معالم سياسته الجديدة ، ففوجيء بالعزل .

3 ـــ نشاط قاعدة القيروان

تشير أغلب مصادر الفتح ، الى أن أبا المهاجر قام ـ من قاعدة القيروان ـ تاكيروان ، بنشاط ملحوظ ، ضد الروم ، في قرطاجنة ، ثم ضد فرع البرانس الذين كانت زعامتهم معقودة ، في هذه الفترة ، لقبيلة (اوربة) واميرها ، كسيلة بن لمزم (2) .

كان عامة البربر منذ القديم ـ يكرهون الحكم البيزنطى ، لانه نفوذ أجنبي ويبغضه النصارى منهم ، بسبب ما جرى عليه الا باطرة من سياسة دينية مخالفة لمذهب غالبية السكان ، وكانوا لا يترددون ، في الانضمام الى كل من يثور ضد الحكم البيزنطي ، ويرفع راية العصيان ، لاحظنا ذلك أثناء حركة هرقل ضد فوكاس ، وأثناء حركة ـ جرجير ـ ضد هرقل نفسه ، ومن نصارى البربر ، لقى جرجير ، مساعدة مخلصة في حربه ضد العرب المسلمين ، أثناء معركة سبيطلة الحاسمة . وعند ما انهزم ، وظهرت الفوضى السياسية ، والانقسامات الداخلية في افريقية ، رأينا نفرا من سكانها يطلب مساعدة الخلافة الاموية ، لارجاع الوضع الطبيعي فيها ، فكانت حملة ابن حديج .

وليس بمستبعد أن يكون البربر قد انسحبوا في هذه الفترة الى الداخل ، واعتصموا بقراهم ، وانساحوا في سهولهم ، غير مبالين ، بما ستسفر عنه المعركة بين العرب ، والروم ، مادامت مضاربهم في حرز من الفاتحين ، أما منذ أن قدم أبو المهاجر ، وبدت معالم سياسته ، التي انبنت على اساسين : طرد الروم وتأليف البربر وكسبهم الى حظيرة الاسلام ، فقد ظهرت حركة المقاومة من جديد ، ومال نصارى البربر الى التحالف مع الروم ، ورضوا بمعونة بيزنطة التي سلكت في عصر قنسطنطين الرابع سياسة التسامح الديني ، والاهتمام بأمر افريقية (3) .

---

(1) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 266 .

(2) اختلفت المصادر حول اسم أبيه ، فهولمزم ، عند ابن عذاري ، ولزم عند ابن خلدون ، واغز عند السلاوي ، وكمرم عند ابن الاثير . وهي عموما متقاربة .

(3) عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 215

وفي هذا الوقت تصدت قبيلة أوربة ، النصرانية ، البرنسية لقيادة حركة المقاومة ، ضد الفاتحين ، وتكفل زعيمها كسيلة ، بالسير بالجموع الحليفة نحو النصر ، في المعركة المرتقبة مع العرب ، الذين بدأت طلائعهم في منطقة (أوربة) وتشير النصوص التاريخية ، الى أن اللقاء الذي تم بين جموع كسيلة الزاحفة ، من هوامش المغرب الاقصى وجموع العرب الزاحفة ، من القيروان ، قد اسفر عن هزيمة البربر وأسر قائدهم ، وتأليف قلبه الى الاسلام . فاصطنعه أبو المهاجر ، واختصه بصحبته ، وصافاه . وقد تبع اسلام هذا القائد ، اسلام قبيلته أوربة ـ على الاقل ـ وكانت نصرانية ، ومن أقوى فروع البرانس ، وتوزعت بطونها بين منطقة أوراس والريف ومن خلال ما اورده كل من المالكي والدباغ نرى أن أبا المهاجر ، يخضع المراكز التي يمر بها ، في حملته ، ويخلدذكراه ، في المغرب الاوسط ، بحفر عيون ومنابع قرب تلمسان ـ مازالت تحتفظ ـ حتى اليوم ـ مع تحريف بسيط باسم (عيون أبي المهاجر) (1) .

وتعتبر هي و(آبار حديج ، وماء الفرس ، في صحراء فزان ، ومعسكر القرن ، وقاعدة القيروان ،، وتاكيروان) في عداد الآثار الاسلامية ، التي ترتبط بعصر الفتح (2) .

ولم نعثر في المصادر التي بين أيدينا ، عما يفيد وقوع حرب عنيفة بين أبي المهاجر ، وكسيلة ، لميل الاول ، الى سياسة اللين والمداراة ، التي أوقعت الزعيم الاوربي ، في شراك صداقته ، وقد تحاب الرجلان ، وتفاهما بعد انجلاء المعركة ، وطالت بينهما الصحبة ، وسادت علاقاتهما ، روح الفروسية ، حتى أصبحا نموذجين لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الفاتحين وأهل البلاد الاقدمين ويشير ابن خلدون الى قبيلة اوربة ، وسياسة أبي المهاجر ، في قوله «ولى على اوربة بعد سكرديد بن رومي ـ كسيلة بن لزم الاوربي ، فكان اميرا على البرانس كلهم ، ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة 55 هـ كان

---

(1) السلاوى : المرجع السابق 1 ، 37 .

(2) وقد ظلت ذكرى هذا الوالي حيه ، في افريقية ، لابسياسته الحكيمة ، اوبآثاره فقط ، وانما ايضا بأحفاده ، ومواليه ، ومنهم من كان على جانب موفور من الثقافة مثل عيسى بن محمد بن سليمان بن ابي المهاجر ، الذي ألف كتابا عن (فتوح افريقية) ضاع ، ولعله كان عمدة رواة أحداث الفتح ، وكتاب تاريخ افريقية (انظر الطبقات لابي العرب تميم ص 120) .

كسيلة بن لزم ، مرتادا المغرب الاقصى ، في جموعه من اوربة وغيرهم ، فظفر به أبو المهاجر ، وعرض عليه الاسلام ، فاسلم ، واستنفذه ، واحسن اليه ، وصحبه» (1) .

ولاطمئنان أبي المهاجر ، من ناحية البربر ترك مدينة(تاكيروان) أثناء عمله في المغرب الاوسط ـ دون وال يحرسها ، أو حامية عربية تدافع عنها . ولم يخلف فيها غير ضعفاء القوم ـ من الشيوخ ، والنساء ، والاطفال . ولم يخش أن ينضم أهلها ، والبربر في منطقتها ، الى إخوانهم ، ويطردوا من بقي فيها من المسلمين ، لان السياسة التي جرى عليها في معاملة السكان ، كبتت فيهم روح المقاومة . وهكذا نرى ان هذا المولى ، هو المخطط لسياسة التحالف بين العرب ، وعنصر السكان الاقدمين لطرد الروم ، تلك التي سيكون لها اثر ايجابي ، في استكمال عملية فتح المغرب ، والاندلس .

واظهر نشاطات قاعدة القيروان ، في عهد ابي المهاجر ، نشاط هذا القائد ضد الروم ومركزهم المنيع في قرطاجنة ، وفي فحص تونس ، على خلاف غيره من قادة الفتح المسلمين السابقين الذين لم يتجهوا هذه الوجهة اطلاقا ، فبني معسكرا قريبا من المدينة ليزاول منه نشاطه ، وكلف (حنش بن عبد الله الصنعاني) بالعمل على فتح شبه جزيرة (شريك) (2) فافتتحها وأشرف أبو المهاجر ، على تقسيم غنائمها ، وعلى ارسال خمس الخلافة الى مصر .

ويفهم من عبارة المالكي (صالح أبو المهاجر عجم افريقية) استجابة هذا القائد ، لعروض الصلح ، التي تقدم بها الروم ، والافارقة ، عقب انكسارهم ، في شبه جزيرة (شريك) ، بيد اننا لم نعرف ما هية الصلح ، ولا ثمنه ، وبما ان المصادر ، لم تفدنا بشيء يوضح ذلك ، ومن المستبعد ، أن يقبل أبو المهاجر ، نظير الصلح فدية مالية ، لان ذلك لا ينسجم وسياسته ، التي كانت مؤسسة ، على ضرورة ايجاد نقط ارتكاز

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص 146 ـ السلاوى : الاستقصاء ج 1 ص 37

(2) تسمي أيضا جزيرة باشو ـ باسم كبرى مدنها ، المندثرة ، وهي عبارة عن المسافة بين تونس وسوسة ، ومن مدنها : قصر نابل ، ويسمى أحد ابواب تونس الذي يؤدي اليها باب الجزيرة (الكبرى ص 39 ـ الادريسي ص 87) . انظر المالكي ج 1 ص 20 الذي جعل القائد حسينا بن عبد الله الصنهاجي وخطأ النساخ فيه بين . أما شريك فهو والد قرة بن شريك العبسي أحد ولاة مصر في العصر الاموى ، السلاوى : المرجع السابق 1 ، 37 . سعد زغلول : المرجع السابق 152 . عبد العزيز سالم : المرجع السابق 2 ، 216 .

ينطلق منها المسلمون نحو هدفهم الكبير ، قرطاجنة ، التي بقيت رمزا لمقاومة الروم العنيدة ، فالارجح أن يكون شرط على الروم ، أن يحتفظ المسلمون بما استولوا عليه من مناطق ، حول شبه جزيرة شريك .

والنظرة العادلة لسياسة هذا الرجل ، في افريقية ، تقود حتما ، الى الاعتراف الصريح ، بأهمية دوره ، في تقدم حركة الفتح ، ونشر الاسلام ، بين بربر المغرب الاوسط ، الذين غدوا حلفاء يوثق بهم (1) ، ثم في ايجاد مراكز ثابتة للتوصل منها الى تكسير مقاومة الروم ، واقتحام قرطاجنة ، للظفر نهائيا بأرض المغرب وسكانه ضمن المجموعة العربية الاسلامية ، ولو لم يكن هذا القائد المولى ، سياسيا متسامحا وذا هدف محدد لما استطاع أن يحصل ، على هذه النتائج الطيبة الثمار .. وسنرى ، أن سير بعض قادة الفتح ، على نقيض هذه السياسة بدافع نفسي شخصي ، أدى الى خسران العرب كل ما ربحوه ، وبقوا وحدهم ، أمام حلف قوى من الروم ، والبربر . ومن نشاطات قاعدة القيروان بعد انتهاء ولاية ابي المهاجر حملة عقبة الكبرى التي وصل بها الى المحيط .

ذلك أن يزيد بن معاوية ، الذي كان على علم بما جرى لعقبة ، أنصفه من أبي المهاجر ، وارجعه الى الميدان الافريقي ، واليا على شؤون الفتح وكان عقبة متلهفا على العودة ، لينتقم لنفسه من أبي المهاجر ـ الذي أهانه وعفى على آثاره . وبادر منذ وصوله الى افريقية ، **بالقبض ، على أبي المهاجر وتصفيده في الحديد ، ومصادرة امواله ، وتخريب (تاكيروان)** مدينته وهجرها واعادة تجديد ما خرب من مباني القيروان ، وتشييد مباني جديدة ، وجلب السكان اليها ، فعادت القاعدة الى بهجتها ، ونضارتها . واستعادت نشاطها من جديد ، وقبل أن ينطلق منها عقبة في حملته الكبرى ، استخلف عليها زهيرا ابن قيس البلوى ، وعمر بن علي القرشي ، وترك لحراستها ، والدفاع عنها حامية عربية (2) كثيرة العدد ، ثم أوصى اولاده بجملة وصايا حسنة ، وبين لهم هدف حملته المرتقبة في قوله :

(1) وسياسة الحلف مع السكان الاقدميين التي سهر عليها أبو المهاجر ، طبقت في اقليم ما وراء النهر على سكانه الاتراك ، ويلاحظ بعض المؤرخين العرب أن سياسة الحلف في المغرب وضع أسسها عقبة بن نافع الفهري . أنظر : شعيرة : الممالك الحليفة في اقليم ما وراء النهر ـ مجلة آداب الاسكندرية 1948 ص 37 وما بعدها .

(2) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب (قطعة منه) 40 ؛ ابن عبد الحكم : المصدر السابق 267. السلاوي : المرجع السابق 1 ؛ 38 .

(اني قد بعت نفسي الى الله ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله ، وأراكم لاترونني بعد يومكم هذا) ، واخيرا ودعهم وغادر مدينته العامرة ، فسلك طريق الهضبة حتى مدينة ، باغاية ـ المطلة على جبل أوراس (1) فالتحم مع حاميتها الرومية ، ومع البربر في ناحيتها ، فتظاهروا بالهزيمة وتراجعوا ، وتحصنوا داخل اسوار باغاية الحصينة ، ولعدم جدوى ـ الحصار الذي ضرب على المدينة ، غادرها عقبة الى اقليم الزاب ـ الذي كان يقوم فيه عمران مستبحر ، وتنتشر حول مدينته الكبرى ـ أدنه ـ (2) ثلاثمائة وستون قرية . فلما بلغ الروم والبربر ، أمره ، التجأ بعضهم الى الجبال ، وتحصن البعض الآخر بالحصون ، وعلى واد قريب من (أدنه) عسكر عقبة برجاله ليلا ، فباتوا في حراسة ، ومراقبة ، حتى سمى هذا الوادى ـ تخليدا للحادثه ـ وادى سهر ، واحتفظ بهذه التسمية حتى عصر البكرى (3) .

وفي الالتحام الذي حصل بين الفريقين في الصباح ، أصاب المسلمين عنت كبير ، وتسرب اليأس من احراز النصر ، الى نفوسهم ، لولا ثقة عقبة بنفسه وبثه الحماس في رجاله الذين استعادوا ، ثقتهم بأنفسهم ، وتمكنوا بعزم قوى ، من هزيمة الروم ، والجائهم الى الحصون .

لم يشأ عقبة ، أن يحاصرهم ، بعد ان اعتصموا بحصونهم ، لقلة جدوى الحصار ، ورحل عن منطقتهم ، الى نواحي نهرى (شلف ومينة) وبقرب حصن تاهرت القديم ، حيث مضارب قبيلة (برفجانة) عسكر بقواته ، فواجهته تجمعات هائلة من الروم والبربر ، ثقلت على المسلمين وطأتهم ، وحيرت قائدهم ، الذي لم ينس عادته ، في مثل هذه الظروف فخطب في جيشه ، مشجعا ، وضاربا الامثلة ، بالصحابة الاولين الذين بايعوا رسول الله (ص) ـ بيعة الرضوان ـ على قتال المشركين ، فأعجبوا برباطة جأشه ،

---

(1) باغاية مدينة أولية ذات انهار وثمار ، ومزارع ومسارح وعلى مقربة منها جبل أوراس . وهو المتصل بالسوس ، ويسكن فيها قبائل مزاتة ، وضريسة ، وكلهم اباضية في عصر البكرى . انظر : ص ص 51 ، 144 . ص ص 51 ، 144 .

(2) يرسمها ابن خلدون والدباغ (اذنة) والبكرى والمالكي (ادنة) وابن الاثير (اربة) ويحتمل أن تكون بالزاى المعجمة (ازبة) واليها ينسب الاقليم الذي هي عاصمته ولعلها النطق العربي ، لمدينة زابي البيزنطية ، التي اندثرت ، وبانقاضها بنيت مدينة المسيلة (المحمدية فيما بعد) .

(3) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب 59 ، 144 .

وأرتاحوا لأرشاداته واستعدوا لخوض غمار معركة الشهادة ، لأعزاز الدين ، ورغم أنهم لقوا عنتا كبيرا في القتال لكثيرة اعدائهم ، فان النصر كان حليفهم ، ضد التجمعات الرومية ـ البربرية ، التي لاذت فلولها بحصن تاهرت ، فأصابها ، ما أصابها ، على أيدي المسلمين (1) ، ونفس المصير ، لقيه التجمع الجديد الذي التأم حول مدينة تلمسان التي سار اليها المسلمون بعد ذلك ، وتذكر النصوص التاريخية ، أن عقبة واصل سيره نحو منطقة الريف ، والسوس الادنى (مغرب طنجة) وفي عاصمة الاقليم : طنجة ـ التقى عقبة مع حاكم الاقليم (يوليان) الذي أظهر الاعتراف بالتبعية والولاء ، فتقبل منه عقبة هدايا وعمل بنصائحه ، تجاه الاندلس ، فلم يقصدها ، وتجاه الروم والبربر في منطقة السوس الادنى والاقصى . فقصد صحراء درعة ، ومضارب أهل اللثام ، من بطون قبيلة صنهاجة الكبرى ، حتى أشرف على (ماليان) أو (آسفى) على البحر المحيط . وقد بنى عقبة عدة مساجد في هذه المناطق لتكون مراكز لنشر الاسلام ، وتعليم البربر أصوله . مسجد في درعة ، وآخر في نفيس ـ البلد الانيس ـ وآخر في ايجلى ـ قاعدة السوس الاقصى ، وآخر في ماسة (2) .

والنصوص التاريخية تصور عقبة ، عند ما أشرف على المحيط بصورة من استخفه الحماس ، وملك عليه كل مشاعره ، فأوغل بفرسه وسط الماء . ثم لوى عنان فرسه مكتفيا بالاعتذار ، عن عدم اقتحام البحر الزاخر (3) وعاد أدرجه . وفي طريق العودة ، ضمن للاسلام قبائل (حاحة ، ورجراجة ، وصودة) وعند وادى تنسفت ، بين موقادور ، ومراكش ، ترك بين البربر ، لتعليمهم أصول الاسلام شاكرا من أصحابه ، عرف به هذا المكان حتى اليوم (4)رباط شاكر، وفي مضارب دكالة ، بين وادي تنسيفت ووادي ام الربيع ، خسر كثيرا من أصحابه، في محاولته اخضاع هذه القبيلة للاسلام (5) بعد ان تمنعت عن طريق الحسني ، واللين ، بعد ذلك لم يصادفه من المتاعب ، ما يستحق

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 53 ـ المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 24 .

(2) البكري : المصدر السابق 160 . سعد زغلول : المرجع السابق 164 .

(3) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 24 ـ 25 ـ ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 54 ابن خلدون ، كتاب العبرج 6 ص 146 .

(4) سعد زغلول : المرجع السابق 165 .

(5) يذكر ابن خلدون أن المصامدة فرضوا حصارا على عقبة في منطقتهم فخفت قبائل زناتة لنجدته وفك الحصار عنه أنظر العبرج 6 ص 217 (ط بيروت)

أن يذكر ، حتى وصل قرب مدينة طبنة ، من امهات مدن الزاب ، وثغور افريقية ، التي تبعد عن قاعدة القيروان ، بنحو مسافة ثمانية أيام . فأمر معظم جيشه ، بسرعة العودة ، الى القيروان ، ثقة بنفسه وبما فتحه من بلاد ، واخضعه من سكان ، وبقي في مجموعة قليلة من الفرسان ، عول عليهم ، في تصفية بعض قلاع الروم ، في المنطقة ، ومنها حصن تهودة ، وحصن باديس . ولما وصل مشارف الحصون ، ولاحظ الروم قلة من معه اختمرت في عقولهم فكرة الاجهاز عليه . وقدروا مسبقا أهمية ذلك ، بالنسبة لواقع الاحداث في المنطقة ، (ان في قتل هذه الخيل ، قتال اهل الارض) (1) .

وبادروا برمية بالحجارة ، وشتمه ، واغلاق الحصون في وجهه ، وهورابط الجأش ، يدعوهم الى الاسلام . كما راسلوا كسيلة البربرى ، الذي يغلب على الظن أنه ترك معسكر عقبة خفية ، او بعلم أمير الجيش الذي استهان به ، وحقر من شأنه . فلم يتوان عن اهتبال الفرصة ، للثأر لكرامته ، وللنيل من عقبة . وجمع جمعا كبيرا ، ضم البرانس ، وحلفاءهم الروم وتصدوا لقتال فئة قليلة لم يتجاوز عددها ثلاثمائة فارس . ولم تكن نتيجة اللقاء غير التي كانت متوقعة ، فهزم المسلمون ، وقتلوا عن أخرهم ، في تهودة بما في ذلك عقبة وابو المهاجر .

ويذكر بعض المؤرخين أن معركة تهودة ، أسفرت عن أسر جماعة من أصحاب عقبة ، فيهم محمد بن أوس الانصارى ، ويزيد بن خلف العبسي ، تدخل صاحب قفصه المسلم ـ الذي يسميه ابن خلدون ابن مصاد ـ لدى كسيلة حتى قبل الفدية فيهم ، ثم أرسلهم الى القيروان(2) .

وان هذا التدخل من جانب صاحب قفصة لفائدة المسلمين ، له مغزى يساوى في أهميته ، اسراع قبيلة زناتة من قبل ، الى نجدة عقبة ، وتخليصه من الحصار الذي ضربته عليه قبائل مصمودة في منطقة السوس ، وتعاونها معه ، لحمل جانب كبير من هذه القبائل ، على الاخذ بالدين الجديد . ومن دون شك تأثرت هذه الجماعات

---

(1) المعالم : الدباغ ج 1 ص 47 .

(2) تظهر بعض الروايات كسيلة في مظهر الرجل الوفي لواجب الصداقة التي تربطه مع أبي المهاجر ، وان ثورته ، وقيامه ضد عقبة انما كان لتخليص صديقه السجين ، الذي قتل في غمار المعركة على حاله ، وهو مشدود الوثاق دون أن يعلم به صديقه . السلاوي : المرجع السابق 1 ، 39 (نقلا عن ابن خلدون) سعد زغلول : المرجع السابق 169 .

الاسلامية من أهل البلاذ ، من النهاية المحزنة التي ختمت بها حياة عقبة ، ورفاقه . وقد دفن الشهداء حيث ماتوا (1) ووضعت على قبورهم اسنمة ، وجصصت ، وبني عليها مسجد ، ومزارات ، وأصبحت المنطقة كلها تعرف باسم (سيدي عقبة) عوضا عن تهودة التي تنوسيت ، ووضعت أحاديث نسبت الى الرسول ، في لعنها مسبقا (2) ، وتحقير شأنها ونهى الناس عن سكناها ، وتعظيم فضل المجاهدين الذين ضمهم ترابها الى حد مساواتهم ، في الاجر بشهداء بدر ، أولى معارك الاسلام الحاسمة (3) .

4 — الحياة السياسية بعد إخلاء القيروان

كان لكارثة تهودة المروعة ، أثر سيء في نفوس مسلمي افريقية ، ورجال حامية القيروان . فتبلبلت أفكارهم ، واضطربت نفوسهم ، وهبطت الروح المعنوية عند كثير منهم ، وشملهم غضب شديد من هزيمتهم السياسية ، وصيرورتهم بين فكي الرحي ، الروم في الساحل وفي القلاع ، والبربر في الدواخل ، وفي القرى وقد أصبحوا حلفا قويا هدفه الاطاحة بكل ما كسبه المسلمون من سمعة ، وانتصارات . قام زهير اثر سماع الحادثة ، خطيبا في القيروان ، فأوضح للناس ما صار اليه حال اخوانهم في تهودة - من أرض الزاب - وحثهم على ضرورة البقاء في القاعدة للقاء المعتدين ، فاما الشهادة ، وهي شرف الابطال ، واما النصر الساحق ، الذي يرهب الاعداء ، ويمكن للاسلام ، وللقاعدة الاسلامية ، من الاستمرار في هذه الديار . فجاء رأي الاغلبية ، مؤيدا لفكرة الانسحاب ، الى المشرق ، حتى لا تأتي الفتنة الهوجاء ، عمن بقي من المسلمين ، وبدأ حنش بن عبد الله الصنعاني ، يشرف فعلا ، على عملية الانسحاب واذ لم يبق مع زهير - نائب الغيبة - الا أهل بيته ، ونفر يسير من المسلمين ، انسحب هو الآخر ، وأخلى القاعدة الى حين ، واستقر ، قريبا منها ، في اقليم برقة ، يرقب تطورات الاحداث (4) وينتظر مددا جديدا ، من ولاة مصر او من خلفاء دمشق . يواجه به

---

(1) البكري : المصدر السابق ص 74 .

(2) نفسه ص 73 .

(3) ابن خلدون : العبرج 6 ص 147 .

(4) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 18 . الرقيق : المصدر السابق 46 . سعد زغلول : المرجع السابق 170 - 171 . عبد العزيز سالم : المرجع السابق 230 وما بعدها .

الموقف المضطرب ، ويعيد به الوضع الى حالته الطبيعية . ولم يبق في القيروان ، بعد انسحاب حنش وزهير ، ومن معهما ، غير الشيوخ ، والنساء والاطفال ، وأصحاب الاثقال .

وهكذا أخليت قاعدة القيروان ، في وقت كانت فيه الخلافة الاموية بعد وفاة يزيد بن معاوية ، تعيش في أزمات سياسية متتابعة ، وضاعت على العرب ثمار جهودهم المضنية ، وانقلبت انتصاراتهم المطردة فجأة الى كارثة كبرى ، وأصبحت الجماعات الاسلامية في القيروان ، تحت رحمة كسيلة ، وجماعته الذين زحفوا الى قاعدة افريقية الاسلامية ، وعند ما دخلوها ، فرت بعض فلول العرب بينما طلب من فضل منهم البقاء ـ الامان من الزعيم الاوربي فاستجاب لطلب الامان .

جلس كسيلة بمكان عقبة ، في دار الامارة بالقيروان ، ومنها بدأ يمارس نشاطه ، وسلطاته الجديدة ، كأمير على افريقية ، ويدعم نفوذه بين البربر والجماعات الاسلامية فيها ، واستمر على ذلك فترة خمس سنوات ، ومع أن النصوص لم تحدثنا عن طبيعة العلاقة ، بينه وبين الروم ، الا اننا نرجح انها كانت علاقة مودة وتعاون ضد العرب ، ومن المستبعد أن نستنتج من ذلك ، ومن قتله لعقبة ، وجماعته ، ردته عن الاسلام ، وانتشار الحركة في قبيلته ، عكس ما مال اليه بعض المؤرخين (1) ، لأن تصرفاته تجاه من بقي في القيروان من المسلمين ، تدفع فكرة الردة الدينية ، وقد يقوم دليلا على بقائه مخلصا لعقيدته ، ما تضافرت عليه مصادر الفتح ، من حسن اسلامه ، ورضاه بالامتحان ، والاهانة ، مع صديقه أبي المهاجر دينار ، ومن المؤكد أنه فهم أن موقف عقبة منه ، مرجعة الى اسباب شخصية منها صحبته لابي المهاجر ، وارتباطه به ، ويرجح ذلك ، ما ورد في بعض النصوص ، من أن ثورة كسيلة ، التي سماها ـ البعض ردة ـ كانت تستهدف تخليص صديقه القديم من أسر عقبة (2) . وهذا بلا شك موقف ينم عن النبل ، والوفاء ، ونلاحظ ان اغلبية مصادر الفتح ، لم تتورط في وصف كسيلة ، بالمرتد . وما جاء في ابن عذارى ، من أن الناس اجتمعوا بعبد الملك بعد ولايته . وسألوه تخليص افريقية من كسيلة اللعين ، تجوز في التعبير يفسر الغضب الدفين ،

(1) ابن خلدون ج 6 ص 147

(2) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 25 ـ الدباغ : المعالم ج 1 ص 48 .

ولاينهض حجة ، على حركة الردة . وآية ذلك ، موقف القائد البربرى من المستأمنين ، فقد فضل ان ينسحب ، عن القيروان ، للقاء زهير ، بعيدا عنها ، خوفا على سكانها الذين ارتبط معهم بعهود (1) .

هذه معركة تهودة ، وتلك بعض آثارها ، فما هي الاسباب التي أدت اليها ،

ياتي في مقدمة أسباب الكارثة . عدم احتفاظ عقبة بكامل جنده فدفع ذوى الاغراض الى التجمع ، للنيل منه . وعدم تأمين ظهره باقامة حاميات في كل ما والى المسلمين من حصون وقلاع ، وتطويل خط سيره ، دون اعتماد ، على قوة تحميه وراءه ، ودون وثوق من اكتساب السكان ، خطأ جسيم ، ولم نلحظ في حملة عقبة الكبرى ، خطة غير ميل عقبة الى الفتح ، والجهاد ، معتمدا فقط ، على سلاح التوكل . ومحتسبا الاجر والثواب ، فأية خطة ، بل أية براعة ، من كل هذا التطويح ، في الآفاق المغربية حتى شاطىء المحيط ؟ وأية نتيجة لسياسة العنف ، والامعان في التقتيل ، غير زرع الاحقاد ، وتكثير الاعداء ، ودفع ذوى الاغراض من البربر الى التحالف مع الروم ، أخذا بالثأر . وهذا ابن الاثير ، المشهود له بالضبط ، والدقة ، يقول بصدد نشاطه في السوس : فقتل فيهم قتلا ذريعا ، وبعث خيله في كل مكان ، هربوا اليه . «وفي مكان آخر» وقاتلهم ، وهزمهم ، وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا فيهم وسبوا سبيا كثيرا (2). واذا كان من سمات القائد الماهر ، ان يتناسي أحقاده، ويتعالى عن اغراضه الشخصية ، خدمة للصالح العام ، او يختص بالعقوبة المذنب فقط ، فان عقبة ، لم يتسامح مع ابي المهاجر فقيده ، واصطحبه معه على حاله الى أقاصى بلاد المغرب ، واستبد به الغضب ، فأساء الى صديقه كسيلة ، دون جريرة ارتكبها وامعن في الاساءة اليه متناسيا ، انه من المؤلفة ، وممن اشتهروا بالعز ، والصولة في قومهم ، ولم ينس ابو المهاجر ، وهو في محنته ، واجب النصح فأوضح لعقبة بلطف ، مدى خطورة تصرفاته ، ورجاه أن يراجع موقفه ، ولا يستفسد قلب هذا «الجبار» ويذله في حماه ، وبين أهله وذويه ، فلم يهتم عقبة بذلك ، وخال النصيحة دفاعا من صديق عن صديقه ، وفهم خطأ ، أن أبا المهاجر انما فعل ذلك لانه يأمل في وقت ما ان ينتقم لنفسه من عقبة ، اعتمادا،

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 18 ـ 19 .

(2) الكامل في التاريخ ج 4 ص 53 ـ 54 .

على صداقته لهذا الامير ، وهكذا ضاع رشد عقبة ، وتطرف ، وواصل سياسته تجاه الامير ،دون حذر فما كان من الاخير الا ان استغفل المسلمين وفر ، وكان فراره بداية لمأساة تمرد البربر ، ونكثهم العهود ، ولاحياء صلاتهم مع الروم بقصد القضاء على العرب ، في أحرج اللحظات ، وعند ما ظهر كسيلة بتجمعاته الهائلة ، نصح ابو المهاجر عقبة بمعاجلته ، قبل ان يحكم خطته ، فندم عما فرط منه ، ولات ساعة مندم . وترجل عن فرسه ، وصلى ركعتين ، وأمر باطلاق سراح ابي المهاجر من قيده ، وانفاذه الى القيروان ، فأبى القائد السجين والامر خطير ، الا أن يثبت مع اخوانه ، لينال معهم شرف الاستشهاد .

ويخيل الى أن خوف عقبة من عزل مفاجيء ، هو الذي حمله على القيام بهذه المغامرة ، التي انتهت بفشل ذريع ، فضاعت قاعدة الفتح ، وتألب الروم والبربر ضد المسلمين ، وأن من يجعل همه ، الفتح الحربي فقط ، وجبر الناس على اعتناق الاسلام ، واهانة عظمائهم ، والانتقام الشخصي ، وحب الظهور لا يعد في نظري ، بين من يستحقون حمدا كبيرا ، ولا ذكرا في قائمة من فعلوا خير لفائدة التقريب بين العرب ، وأهل البلاد الأقدمين .

والذي يظهر لى بعد مناقشة أعمال عقبة ، وتصفح ما قيل عنها في مصادر الفتح ، ان هذه الحملة الانتحارية ، التي حيرت المؤرخين ، فتناقضوا واضطربوا ، لم يعد لها الاعداد الكافي ، من الناحيتين المادية ، والمعنوية ، فضلا عن كونها افتقرت الى الخطة المحكمة ، وتخللتها ضروب العنف ، والقسوة والاهانات ، ومن ثم عادت بحصاد سيء الثمار ، وحملت المسلمين ، على اخلاء قاعدة القيروان ، والجلاء عن افريقية ، والاستعداد لبداية مشروع الفتح ، من جديد .

* * *

لم يكن أمام كسيلة ـ بعد انسحاب الحامية ، وكل خفيف الحمل ، قادر على استعمال السلاح ، في القيروان ، ما يمنعه من الدخول اليها ، بجموعة المؤلفة من البربر والروم (1) ، لملء «الفراغ السياسي» .

---

(1) الرقيق : المصدر السابق 46 ـ 47 . ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 18 .

وقد تصرف منذ دخوله المدينة ، تصرف الحكام المستقلين ، ولم يشأ أن يظهر بمظهر الرجل العنصري ، القاسي القلب ، فبعث الطمأنينة في نفوس من بقي من المسلمين ، ومنحهم ما طلبوه من الامان ، ولم ير ضرورة لتتبع آثار المنسحبين منهم الى الشرق ، وكان في وسعه أن يعطل سيرهم ، ويلحق بجموعهم المفككة خسائر باهظة .

لم تبدر من كسيلة (1) أية بادرة تشعر بندمه عما وقع منه تجاه عقبة ورجاله ، كما لم تسجل النصوص ، على لسانه أية أراء معادية للعرب أو للاسلام ، مما يبعد عنه تهمة الردة الدينية ، التي خلط المؤرخون بينها وبين ثورته السياسية ضد العرب . ولقد عرف للقيروان ، قدسيتها في نظر المسلمين ، فاحتفظ بها قاعدة للمغرب ، وحكم منها الاطراف ، ولم يمس الآثار الاسلامية فيها ، وتمتع المسلمون ، تحت رعايته ، بالسلام ، والطمأنينة . ولوكان للرجل نوايا سيئة ، ولو صح أنه ارتد ، لانتقم من بقايا المسلمين ، ولعفى على القيروان وآثارها .

وقد كان يمكن ، أن يدفعه الى ذلك علاقته الودية مع الروم ، وقرابته الدموية من نصارى البربر ، الذين كانوا عونا له ، يوم تهودة ، وغداة زحفه على القيروان .

واستمر الرجل على سياسته المتزنة ، تجاه المسلمين طيلة الفترة التي انتصب فيها حاكما في القيروان وافريقية (2) .

ومن المنطق أن نعترف بأن ذلك هو ما يستنتج فعلا من واقع الاحداث ، بسبب الفجوة التي تركها اطباق مصادر الفتح ، على السكوت ، عن هذه الفترة التي نالت من ظلم وجور المؤرخين حتى خالوها فترة لعينة ، لا تستحق أن يلتفت اليها ، لان مصدر الاحداث ، ومحركها رجل لعين ! !

لم يكن كسيلة ليهنأ هذه الفترة ، على كرسي الامارة في القيروان ، لو لم تكن أحوال الدولة الاسلامية ، مضطربة هي الاخرى . فيزيد خليفة بني أمية والمسؤول قبل غيره على عقبة ورجاله كان قد توفي اثر معركة تهودة مباشرة ، ولم يلبث ابنه معاوية الثاني في

(1) عبر عنه ابن عبد الحكم بابن الكاهنة ، أنظر : فتوح مصر والمغرب 268 ـ 269 . ولعل هذا يشير الى اشتراك هذه الأميرة في المؤامرة ضد عقبة ؛ أي الى بوادر حلف بين البتر والبرانس .

(2) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 269. ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 18 . الرقيق : المصدر السابق 46 . السلاوي : المرجع السابق 1 ، 39 .

الحكم أكثر من ثلاثة أشهر ، سلم على أثرها الخلافة لرئيس الفرع المرواني (مروان بن الحكم) الذي شغل فترة خلافته القصيرة ، بالحروب بين النزعتين القيسية والكلبية ، التي حسمت مؤقتا بتغلب النزعة الكلبية ، رديفة الخلافة الاموية ، في معركة مرج راهط المشهورة (65هـ) . وعند ما آلت خلافه بني أمية الى عبد الملك بن مروان ـ واجهته مشاكل الشيعة والخوارج في المشرق ، ومنازعة الزبيريين في الحجاز والعراق ، ومطالبة زعيمهم ، بالخلافة ، فلم يكن بد من أن يسالم عبد الملك البيزنطيين مؤقتا في آسيا الصغرى ، ويصالحهم بالمال حتى لا يثيروا في وجهه متاعب أخرى ، هو في غنى عنها . ويتفرغ لمعالجة الموقف الداخلي ، وعند ما تمكن من السيطرة على الوضع في العراق ، والحجاز ، وظهرت بوادر الاستقرار النسبي استجاب لرغبة أكابر المسلمين ، في ضرورة الثأر لعقبة ، ونجدة مسلمي افريقية ، وتخليصهم ـ وتحرير قاعدتهم من استبداد كسيلة ، الاوربي ، ولكنه أوضح لهم ان هذه المهام لاتناط الا بعهدة رجل ، هو في مثل شخصية عقبة ، ورعا ، وعقلا ، وطلب منهم أن يشيروا عليه ، بمن يستجمع هذه الخصال ، فأشاروا بزهير بن قيس البلوى ـ نائب عقبة ، الذي بقى مرابطا في برقة ، لا يريم عنها ، وبرروا اقتراحهم بمكانة زهير عند عقبة ، وخبرته ، ومواقفه . فوافق عبد الملك ، وأنفذ الى برقة من يخبر زهيرا ، بنبأ تعيينه واليا على افريقية ، وبأمر الخليفة بضرورة الدخول فورا لانقاذ من بها من المسلمين ، فرد زهير على الخليفة يعرفه بضيق الحال ، وقلة عدده ، وعدته ، وبكثرة جموع كسيلة ، المتغلب على القيروان ، فأمده الخليفة بالرجال والخيل ، وبالاموال من مصر (1) ، وجعل في مساعدته مجموعة من رجال الحرب أهمهم ابن حيان الحضرمي ، وتبيع ربيب كعب الاحبار الذي جمع الى الخبرة في الحرب ، المهارة في الكهانة . واكتمل لزهير جيش عظيم بلغ ـ حسب رواية المالكي ـ ستة آلاف رجل ، ألفين من البربر ، واربعة آلاف من العرب . زحف بهم نحو افريقية ـ وفي اقليم قمونية ـ (2) حيث مدينة القيروان الخالدة ، عبأ جيشه على هيئة القتال وأقام بظاهر المدينة ، ولم يدخلها ، حتى استراح

(1) الرقيق : المصدر السابق 47 ـ 48 . ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 19 . سعد زغلول : المرجع السابق 172 . عبد العزيز سالم : المرجع السابق 233 وما بعدها .

(2) يذكر المالكي أن زهيرا ، نزل بقرية (قرشانة) من ضواحي القيروان ولعلها قلشانة ج 1 ص 30 .

جنده ، وعندئذ زحف نحو معسكر كسيلة ، الذي وجده بجوار قرية سبيبة على واد يعرف بـ (وادى ممس) .

ذلك أن الامير الاوربي ، لم يكن في عزلة عما يجري في المشرق ، وفي برقة من اعداد للعودة . فلما عرف عزم زهير على الوثوب بالقيروان ، وبالخارجين عن وحدة الصف ، وسمع نبأ زحفه ، سخر منه ، وأظهر عدم اكتراث بتحركاته ، ثقة بجموعه الكثيرة ، من البرانس والروم ، الذين يتجاوزون في عددهم ، أضعاف جيش زهير . ومع ذلك ، فقد بني كسيلة ـ استراتيجيته الحربية على اساسين : اخلاء المدينة ، ثم اختيار مكان يتلاءم والمعركة القادمة ، من حيث وفرة المياه والقرب من الجبال ، ومن الصحراء . وأبان لرجاله ، ولأركان حربه أن في القيروان جماعات اسلامية ، منحناهم أماننا ، ونخشى ان نشب القتال بيننا وبين زهير أن يثبوا علينا ، وينضموا الى جيش (الانقاذ) . أما اختيارنا لمكان يقرب من الجبال ، فضرورة حربية . فنحن اذا انتصرنا على المسلمين تتبعناهم ، الى طرابلس ، ومحونا آثارهم ، وقطعنا آخر أمل لهم ، في العودة ، فيخلص لنا المغرب الى الابد (1) واذا دارت علينا الدائرة ، فزعنا الى الجبال ، والى الصحراء ، نحتمي بهما ، لنفلت من قبضة المسلمين ، وانتقامهم .

وعلى أساس هذه الاستراتجية ، أقام ليلة بجموعه على وادي ممس (ممش) (2) وفي اليوم التالى للزحف التقى الجمعان فاشتدت بينهما الحرب ، حتى حملت الناس على اليأس من الحياة ، وكثر الضحايا من الفريقين ، وتواصلت في شدتها وعنفها ، من الجانبين ، حتى قتل كسيلة وانهزمت جموعه ، وخارت قواهم ، فأطلقوا أرجلهم وأعنة خيولهم ، الى الريح ، وفروا ، وسيوف المسلمين تنزل على هاماتهم ، صواعق ، وسهامهم تنفذ فيهم خوارق ، ولم ينقطع طلب المسلمين لفلولهم حتى نهز ملوية (3) ،

---

(1) ابن عذارى . المصدر السابق 1 ، 19 . الرقيق . المصدر السابق 50 .

(2) انظر المالكي الذي يجعل مكان اللقاء . قصر ابي عبيد ج 1 ص 28 . وممس قرية بيزنطية كانت من محارس الروم ، وتحدث عنها البكرى فقال : انها قرية عامرة آهلة بها مسجد ، وفندق ، وهي تجاور مدينة سبيبة مباشرة . (انظر البكرى ص 146) .

(3) اتفقت المصادر على ذلك ، ويبدو أنه غير ميسور ، بسبب بعد نهر ملوية ، كذلك أشارت بعض النصوص الى استيلاء المسلمين على سقبنارية (الكاف) ، أثناء تتبع فلول المنهزمين ، وأنهم سقوا خيولهم من نهر أرجح أنه نهر ملاق من فروع مجردة ، وليس نهر ملوية ، وهذا ما ينبغي أن تحمل عليه النصوص .

وعلى هذه الصورة ، ثأر زهير في معركة (ممس) لقتلى شهداء معركة (تهودة) وأقام في القيروان ، بعد العودة اليها . فأمن أهلها ، وبدأ يصلح ما فسد من امورها ، ويظهر أن البربر ، والروم ، تفكك حلفهم ، وانثال جمعهم بعد واقعة ممس ففزعوا من زهير ، واعتصموا بقلاعهم وحصونهم .

والذي يستنتج من النصوص التاريخية ، أن طابع حملة زهير كان تأديبيا بحتا ، فلم يكن في نيته أن يقوم بأي عمل آخر ، ولم يكلف من طرف الخليفة بغير ذلك ، ومن ثم عاد الى المشرق عقب انتهاء معركة (ممس) ، وتأمين قاعدة القيروان ، من أي أذى ، بترك حامية صغيرة فيها (1).

ومع أن المؤرخين يفسرون سرعة انسحاب زهير ، بنزعته الدينية ، وميله الى الزهد ، والتقشف ، والبساطة ، في الحياة ، ويذكرون تأييدا لذلك قوله : «ان بافريقية ملكا عظيما ، واخاف أن أميل الى الدنيا ، فأهلك» فان واقع الامر ليس كذلك ، لسبب هام هو أن افريقية ، لم تصبح بعد أرضا هادئة ، موطأة الاكناف ، ولم تستقر نفوس اهلها بعد ، لاسيما ، بعد التقتيل العنيف الذي تميز به نشاط عقبة في حملته الكبرى ، وزهير أثناء وبعد معركة (ممس) التي قضت على أشراف البربر ، وفرسانهم حتى غدا هؤلاء قطيعا ضالا ، وفي حالة قلقة . وليس من المقبول أن تكون افريقية في هذا الوقت ـ أرض رفاهية في العيش ، وبسطة في الحال ، حتى تأنف نفس زهير من البقاء فيها ، وربما يكون الاقرب الى المنطق ، القول بأن هذه البلاد مازالت حتى هذا الوقت منطقة رباط للزهاد ، والعباد ، والمجاهدين .

وقد تكون الحالة المضطربة التي وجدت بعد معركة (ممس) والجو العدائي الذي سيطر على العلاقة بين العرب ، والبرانس ، وتحفز هؤلاء للثأر هو الذي جعل التعاون بين الفريقيين صعبا ، وصير اقامة زهير في القيروان متعذرة .

ومع أن بعض النصوص تتحدث عن تامين زهير لاهل المدينة فانها لم تشر الى انه أخلف نائبا ، في القيروان ، يمثل سلطة الخليفة ، وهو ما حقه ان يفعله احتياطا لهجوم محتمل قد يقوم به البرانس ، والروم ، ضد قاعدة القيروان .

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 20 .

ويستفاد من عبارتين وردتا في ابن عذارى نصهما : (رحل زهير في خلق عظيم ، وأقام بها كثيرا من اصحابه) ان زهيرا ، كان يعرف أن مهمته انتهت في افريقية ، بعد ممس) وان عليه أن ينظم الجلاء عن المدينة ، ويعمل على تأمينها بحامية عربية ، ويترك أصحاب الاثقال فيها (1) .

ويبقى لتفسير سرعة انسحاب زهير من القيروان ، افتراض واحد يتمثل في احتمال اطلاعه ، على ما يدبره الروم ، في الخفاء ، ضد منطقة برقة ، ذلك التدبير الذي حال دون تنفيذه ، وجود زهير على رأس حامية ، عربية قوية في المنطقة ، وقد لاحظنا أن الافارقة في برقة ، بالتعاون مع روم صقلية ، يستجيبون لرغبة الدولة البيزنطية . ويغيرون على ساحل برقة أثناء غيبة زهير (2) .

وتشير مصادر الفتح ، الى أن زهيرا عند ما وصل برقة ، وأخبر بالغارة الرومية ، وبما نال المسلمين ، من عنت وارهاق ، خف للحاق باروم ، وبصحبته نفر يسير من جنده ، بهدف انقاذ أسري المسلمين . وترك معظم جيشه في الطريق الرئيسي ،يسير سيرا عاديا ، وعند ما أشرف على قوة الروم ، ووجدها كثيرة . مال الى انتظار بقية الجيش ، واحجم عن المغامرة بهذا النزر اليسير من أصحابه . فلما انطلقت استغاثات أسرى المسلمين ، وتكررت ، واندفع بعض المتحمسين من جنده يخوض المعركة ، بعد ان عيروا زهيرا بالجبن جرفه تيار الحماس ، وامر بقية أصحابه بالترجل حتى لا يفر أي أحد منهم ، وفي اللقاء غير المتكافيء بين الطرفين ، في منطقة (درنة) هزم المسلمون وقتلوا جميعا ، وصار ما عندهم من سلاح وخيول وأمتعة غنيمة سائغة للروم ، الذين ابحروا بعد هذا النصر الى جزيرة صقلية (3) .

واذا اخذنا بما ورد في ابن عبد الحكم ، والبلاذرى فان قبر زهير ، وقبور اصحابه كانت معروفة حتى القرن الثالث الهجري ، في مدينة درنة (بقبور الشهداء (4) .

---

(1) البيان المغرب ج 1 ص 21 .

(2) نفسه . الرقيق : المصدر السابق 52 . سعد زغلول : المرجع السابق 175 ـ 176 .

(3) يروي المالكي أن معركة درنة ، أسفرت عن نجاة واحد من أصحاب زهيرج 1 ص 31 .

(4) فتوح المغرب ص 273 ـ فتوح البلدان ص 131 .

أما بقية أفراد الجيش ، الذين لم يشتركوا في المعركة نتيجة بعدهم عن ميدانها ، فقد وصلوا دمشق ، ورووا لعبد الملك ، ما وقع لزهير ، خليفة عقبة ، فتأثر تأثرا عميقا لهذه النهاية ، المحزنة ، التي تشبه في هولها وشدتها كارثة تهودة ، من قبل ورغبوا منه ، أن لا ينحني أمام الروم او البربر ويترك افريقية نهبا مقسما بينهم ، ويفرط في الحقوق الثابتة التي حصل عليها العرب بجهودهم ، ودمائهم ، وطالبوه في النهاية بأن يرسل اليها من يسد ثغرها ، ويصلح أمرها ، فأجابهم : (لاأرى أحدا كفؤا لافريقية كحسان ابن النعمان) (1) .

ومهماقيل في أسباب الكارثة ، وفي سرعة انسحاب زهير فالذى يرجع عندى ـ ان انسحاب زهير ، يعتبر خطأ سياسيا واستراتيجيا ، يدل عل سلبية الخلافة الاموية ، تجاه مصير الجماعات الاسلامية ، في افريقية وحقوق العرب الثابتة ، وضعف الشعور ، حتى الآن بما أصبح يسمى (افريقية الاسلامية) وقد ترك الانسحاب ، فراغا سياسيا كبيرا ، ساعد على تعقد الامور ، وانتشار الفتن ، واضطرام نار الحروب القبلية . وتحرك الروم ، ويخيل الى أن قتل زهير في درنة ، من طرف الروم ، هو الذي قضى على سلبية الخلافة ، وجعلها تغامر بالقيام بمجهود حربي جديد ، في افريقية تولى كبره حسان ابن النعمان .

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 21 ـ 22 .

الباب الثاني

استكمال عملية الفتح ودور حسّان بن النعمان

(74 — 85) هـ

1 ــ الاستراتيجية العربية الجديدة بعد كارثة ساحل درنه

أدى استشهاد عقبة واصحابه في قرية (تهودة) (1) بتدبير من البرانس ، والروم الى تنبيه الفاتحين المسلمين ، الى ضرورة تصفية المقاومة البرنسية ، وتحطيم التحالف الديني والمصلحى الذي ربط بين البربر البرانس ، والروم ، لتستطيع الجماعات الاسلامية أن تطمئن على مصيرها ، ولهذا كانت معركة سهل (ممس) فاصلة في وضع حد للمقاومة لولا الأحداث التي أدت الى مصرع زهير ، وأصحابه على ساحل (درنة) بتدبير الروم المحليين وروم (بيزنطة) و (صقلية) والتي حصرت مهمة من يأتي بعد زهير في ضرورة الثأر له حفظا لكرامة الخلافة ، وتصفية لنفوذ البيزنطيين في افريقية ، ولن يتم ذلك بغير الاستيلاء على الحصون والمحارس الرومية ، في السواحل ، واحتلال (قرطاجنة) كبرى هذه المحارس في افريقية .

وتحطيم الروم ، وهم عنصر المقاومة الثاني ـ وتصفية قاعدتهم الكبرى في افريقية البيزنطية ، والقضاء على عنصر المقاومة المحلية التي تمثلت في حركة البربر البتر بقيادة زعيمتهم الكاهنة ، كانت هذه الاعمال من نصيب الفاتح العربي ، الكبير ، (حسان بن النعمان الغساني) الذي عينه الخليفة عبد الملك برسم فتح افريقية نهائيا ، فأنجز المهمة بنجاح كبير ، يستحق معه أن يلقب عن جدارة «فاتح المغرب» وقاهر الروم والبربر معا .

من الراجح ان الخليفة عبد الملك ، لم يلتفت التفاتا كليا الى شؤون افريقية الا عقب عام الجماعة الثاني ، عندما تمكن من القضاء قضاء مبرما على حركة ابن الزبير في العراق وفي الحجاز سنة 73 هـ ، ومن تبديد شمل الحركات المذهبية التي أثارها

---

(1) وعند وصف مدينة تهودة وعناصر سكانها ومذاهبهم أنظر : البكري المصدر السابق 72 ـ 73 .

الخوارج والشيعة في العراق ، وآية ذلك ضخامة عدد الجيش الذي صحب حسانا الى افريقية ، واطلاق الخليفة يد هذا القائد للتصرف في اموال مصر ، بغية اعداد الحملة ، وتجهيز رجالها تجهيزا كاملا .

2 — التعريف بحسان ، ومغزى تعيينه على رأس الحملة الافريقية

فمن هو هذا القائد الجديد ؟

هو حسان بن النعمان بن عدى بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر بن الازد (1) .

يعتبر من القادة المشهورين في الشام ، وهو من سلالة ملوك الغساسنة ، كان مقربا من خلفاء بني أمية ، وذا شخصية قوية ، ويتمتع بثقة كبيرة في الاوساط السياسية في دمشق ، حتى كان يلقب (الشيخ الامين) (2) .

وحسان هو أول الولاة الشاميين الذين عهدت اليهم مسؤولية الفتح في افريقية في عصر الخلافة الاموية ، وينهض تعيينه واليا على افريقية ، وقائدا على فتوحها من طرف ـ الخليفة ـ دليلا على مدى اهتمام الخليفة شخصيا بأمر الفتح ، وبمسألة تأمين الجماعات الاسلامية ، والحفاظ على المكاسب العربية في هذه المنطقة النائية .

حتى هذا الوقت كان ولاة الفتح من أهل الحجاز، أو من أهل مصر، وكان أمر افريقية يهم ولاة مصر في الدرجة الاولى ، وكان الخلفاء في دمشق ، يوافقون فقط على ما يعمله هؤلاء الولاة ، واما منذ توليه حسان على يد عبد الملك ، فقد أصبح اهتمام الخليفة بافريقية اهتماما مباشرا ، ودون تدخل من ولاة مصر .

أمر الخليفة الاموي ـ حسانا بالتوجه على رأس قواته الكثيرة الى مصر ، ليراقب الموقف عن كثب ، وليعمل من هناك على تجميع قواته وتنظيمها ، وفوضه في أموال مصر ، يستغلها في شراء العدة ، وفي تغطية اعطيات الجند ، وحاجياتهم ، وفي الاغداق على الناس استجلابا لهم .

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 23 ـ دائرة معارف البستاني مجلد 7 ص 30 .

(2) نفس المصدرج 1 ص 31 .

وقد فسر بعض المؤرخين موقف الخليفة ـ خطأ ـ بانه توليه لحسان على شؤون مصر زيادة على افريقية ...

ويروون أن الخليفة «أمر عامله على مصر حسانا بالمسير الى افريقية» (1) مع ان والى مصر في هذا الوقت هو أخو الخليفة وصنوه عبد العزيز بن مروان .

3 ـــ نشاط الحملة ضد قرطاجنة ، وفحص تونس

وبعد أن تمت كل الاستعدادات في مصر ، خرج حسان منها بناء على أوامر الخليفة ، على رأس قوة عظيمة بلغت أربعين الفا من المحاربين ، انضمت اليهم في طرابلس مجموعات عربية وبربرية مع أولئك الذين كانوا قد نزحوا عن افريقية واستوطنوا طرابلس مؤقتا .

وقد أمر حسان على مقدمة جيشه (محمد بن ابي بكير) و (هلال بن ثروان اللواتي) (2) وهذا منه تصرف له مغزاه ، فلم يشأ ان يفرق في ميدان ممارسة المسؤولية بين العرب والبربر المسلمين . وستكون هذه السياسة رائدته عند ما يتم فتح افريقية ، وتعتبر هذه القوة التي قادها حسان أكبر قوة ضاربة تطأ أرض افريقية حتى هذا الوقت ، ولذلك كان وزنها ثقيلا وكانت نتائجها عظيمة .

وعند ما وصلت افريقية كان لوصولها صدى كبير ، فدخلت القيروان ، قاعدة افريقية الاسلامية دون ان تصادف أية مقاومة ، وفيها ظهر لحسان أن يناجز الروم أولا ، ثم يلتفت بعد ذلك الى جيوب وعناصر المقاومة الاهلية حتى لا يجتمع شمل الفريقين ، ويقوى جمعهم ضد المسلمين . ويظهر لى أن ذلك ما يستنتج من الرواية التي تنسب الى حسان تقصية لاحتمالات الموقف ، وسؤاله السكان عن أعظم سلطة سياسية في افريقية ، وان هؤلاء دلوه على قرطاجنة .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبرج 6 ص 109 ـ السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 42 .

(2) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والمغرب ص 269 ـ 270 ـ ابن عذاري : البيان ج 1 ص 22 .

لقد كانت قرطاجنة عاصمة (الارخونية) وقاعدة الروم واعظم مدن افريقية البيزنطية ، على البحر الرومي ، لاتبعد عن القيروان ، القاعدة الاسلامية الكبرى بأكثر من مائة ميل بينما لا تتجاوز المسافة بينها وبين تونس اثنى عشر ميلا في عمران برى متصل ، واشتهرت بآثارها العظيمة الضخمة ، واهمها ، الحنايا التي تنقل الماء اليها من جبل زغوان ، وتعد احدى عجائب الدنيا ، ثم المسارح المعلقة التي زخرفت جدرانها بصور الحيوانات والصناعات والرياح (1) ، ويشير ابن عذارى الى أن أهل تونس يسمونها (المعلقة) (2) . وقد عقد الواقدى ، صاحب (فتوح افريقية) فصلا للحديث عن المعلقة وصاحبها ... وكيف تم للمسلمين فتحها ...

قصد حسان قرطاجنة او (المعلقة) بكل قواته ، وحاصرها فاستبسل من كانوا داخلها ، من الروم ، وكانوا عددا كثيرا ، ولا يستبعد أن يكون بجانبهم وقت ـ الحصار ـ نفر من نصارى البربر ـ كما أشار الى ذلك ابن الاثير .

ورغم ما أبداه المحاصرون من المقاومة ، فان وطأة الجيش الاسلامي كانت شديدة عليهم لا سيما بعد أن تناقصت كمية المياه ، التي تغذى المدينة ، بسبب عطب ، أو قطع متعمد للقنوات ، ولذلك فبعد القتل الذريع ، والاسر الذي نال فرسان الروم ، استسلموا للواقع ، وتظاهروا بطلب الامان ، والرغبة في ايقاف القتال ، فلما منحهم حسان ما ارادوه ، أخلوا المدينة ليلا الا من ضعفائهم ، وبعض اثقالهم وفروا في السفن ، اما الى جزيرة صقلية ، أو الى جزر البليار بساحل الاندلس .

وحينما دخل المسلمون المدينة ، ووجدوها خاوية ليس فيها ، الا من لم تتيسر لهم سبل الفرار ، خرجوا منها للقاء التجمعات الرومية البربرية التي التأمت حول اقليم (صطفوره) وكبرى مدنه بنزرت (3) ، على مسافة غير بعيدة ، من قرطاجنة فأنزلوا بها الهزيمة وتشتت شملها ، على نحو الجأ الروم الى التحصن بمدينة (باجة) (4) أما البربر ففروا الى مدينة بونة (5)

---

(1) ابن أبي دينار : المؤنس ص 31 .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 23 ، وذلك بسبب هذه المسارح العجيبة .

(3) وعن بنزرت أنظر : 58 .

(4) وعن باجة أنظر : البكري 56 ـ 57 .

(5) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 24 ، وعن وصف بونه مدينة القديس أوغسطين أنظر : البكري 54 ـ 55 .

أرسل حسان بعد ذلك بعوثا وسرايا الى كل منطقة اضطراب فمهد الاقاليم ، وقضى على آثار المقاومة . وبينما هو منهمك في تتبع فلول المنهزمين ، بلغه ان سكان فحص تونس ، وضواحي قرطاجنة من البدو دخلوا المدينة بعد أن تأكدوا من نبأ سقوطها ، وفرار حاكمها البيزنطي ، فأسرع اليهم ، وبعد أن حاصرهم داخل المدينة ، حصارا شديدا ، دخلها عنوة واعمل السيف في رقابهم ، واباح للجند سلب ونهب أموالهم وامتعتهم ، واستقدم بقية سكان الضواحي ، وامرهم بتخريب حصون المدينة ، وهدم أسوارها ، فغدت خرابا يبابا او (كأمس الغابر) على حد تعبير ابن عذارى .

ويظهر أن الاعياء كان قد غلب على الجند ـ بسبب هذه المجهودات وفشت فيهم الجراح ، لذلك رجع حسان الى قاعدة القيروان ، ليستريح أفراد الجيش وتندمل جراحهم ، ويعاد تنظيم صفوفهم من جديد ، استعدادا للجولة القادمة ، وكانت هذه المرة ضد البربر البتر ، في منطقة اوراس الذين تجمعوا حول امرأة غريبة الاطوار تلقبها جميع المصادر بـ (ملكة جبل اوراس) ويسميها شيخ المؤرخين ابن خلدون (دهيا بنت ماتية بن تيفان) .

4 ـــ حسان والكاهنة

لقد كان يظن العرب ، ان المقاومة البربرية ، أخمدت تماما ، بعد معركة سهل (ممس) ، وان احتلال قرطاجنة ، وهدمها وتشريد الروم ، وحلفائهم من نصارى البربر ـ اهل المدر ـ سيجعل ارض المغرب أرضا هادئة ، خالصة للمسلمين ، حتى جاءت الاحداث التالية ، لتبرهن على خطأ هذا التقدير ، ذلك ان المقاومة وان انتهت حقا بالنسبة لفرع البرانس ، النصارى المتأثرين بالحضارة وبالمثل البيزنطية ، الذين أثرت عليهم هزيمة (ممس) تاثيرا مباشرا ، فانها لم تنته بعد ، بالنسبة لفرع البتر (اهل الوبر) وبالنسبة للروم الذين بقوا يراقبون الاحداث من بعيد فلما بانت لهم ثغرة دخلوا منها .

والذي يلاحظ بوضوح ، ان الانتصارات العربية الحاسمة على البرانس ، وعلى الروم معا ، كان لها تاثير كبير على الحالة النفسية لسكان المناطق الدانية . وأبسط ما يقال ، انها جلبت الانتباه الى المسلمين ، فانضم اليهم فريق ، اعجابا ببطولاتهم ورغبا ، واحتاط منهم فريق آخر رهبا ، وبقي يساوره القلق من تحركاتهم ، وان اعتقد في

النهاية انه لايوجد حل أمامه يرضى الفاتحين ، غير قبول الاسلام دينا والانسجام مع المسلمين ، او الاحتكام الى السيف .

تشير المصادر التاريخية الى ان حسانا ، بعد أن أعاد تنظيم جيشه واصلح أموره ، رأى أن يمهد البلاد بالقضاء على ما بقى من عناصر المقاومة ، فسأل أهل القيروان عمن يكون قد بقي من ملوك افريقية ممن لهم قيمة في ميزان الاحداث ، ليناجزه الحرب ، أو يسلم ، فأشاروا الى امرأة تقطن منطقة أوراس يخافها الروم في افريقية ويخشون بأسها ، ويذعن لسلطانها جميع البربر «فان قتلتها ، دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ، ولا معاند» (1) .

هذه المرأة تلقب بالكاهنة ، وأغلب الظن ، ان سبب ذلك ما اشتهرت به من السحر والشعبذة ، والتنبؤ بالاحداث في المستقبل (2) . اما اسمها فاختلف في ضبطه . فهي (دهيا بنت ماتيه بن تيفان) عند ابن خلدون و (دامية بنت نيفاق) عند ابن ابي دينار ، وشيء بين هذين عند جوليان (دماميا - دحيا ؟) ، وكانت ملكة (اقليدة) اوكبيرة الاقطاعيين في منطقة اوراس ، وافصالها من قبيلة جراوة البترية المستقرة التي كانت لها الزعامة ، والرئاسة على البتر كلهم (3) وكانت مع قومها تدين باليهودية ، كما أشار الى ذلك ابن خلدون (4) ومال بعض المؤرخين الى التماس الدليل على ذلك من لقبها ، رغم انه لقب عربي صرف . ويميل جوليان الى تفسير عنف مقاومتها للعرب ، على أساس الدين اليهودي والنزعة البربرية .

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 25 .

(2) ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 102 .

(3) ابن خلدون : العبر ج 1 ص 109 .

(4) ابن خلدون : المصدر السابق ج 6 ص 107 ؛ ورغم أن الديانة اليهودية وجدت سبيلها الى بلاد المغرب ، منذ عصر الفنيقيين ، والرومان ، حيث وفدت عناصر يهودية من الشرق ، أومن ايطاليا أو اسبانيا في فترات مختلفة ، فان الاخذ بهذا الرأي بالنسبة للكاهنة يخالف ما أشارت اليه نصوص مغربية أخرى سابقة عن عصر ابن خلدون ، ومؤداها أن الكاهنة كان لها صنم عظيم من خشب كانت تعبده وينقل معها حيثما كانت ، ومعنى ذلك أنها كانت وثنية أنظر : المالكي : رياض النفوس 1 ، 35 . سعد زغلول : المرجع السابق 183 .

ويذكر ان هذه المرأة قل ان يوجد لها نظير في افريقية ، بالنسبة لما اوحت به من اساطير ، وينتهي الى القول بأن النساء في بلاد البربر ، لعبن عدة مرات أدوارا رئيسية ، حتى عهد الموحدين (1) .

بعثت الاتحاد بين البربر البتر ، فالتفوا حولها مع غيرهم خاصة اثر تفرق شمل البرانس بعد موت كسيلة ، وهجرة بعض فلولهم الى المغرب الاقصى . ويظهر انها كانت تتبع أخبار العرب ، وتراقب حركاتهم ، وهي في معتصمها بكتلة اورلمى ، وقد تكون لها علاقة بالمؤامرة التي قضى فيها على عقبة ورجاله في تهودة ، في أرض الزاب الذي يجاور سفوح أوراس (2). وآية ذلك انها عند ما سمعت عن طريق عيونها ـ نبأ زحف حسان اليها من القيروان ، انتقلت في جموع ضخمة من منطقة اوراس ، ومهدت للقاء المنتظر مع حسان ، باحتلال مدينة (باغاية) التي تشرف على المنطقة ، وهدمتها حتى لايتحصن بها حسان ، وينطلق منها للهجوم على منطقة الكاهنة ، كما شتتت شمل من بها من الروم ، والبربر الذين ارتابت في ولائهم ، أوخشيت ان ينضموا الى الفاتحين ، فينقلبوا ارصادا عليها .

ولما ضللها حسان ، وتخير لنزول جيشه مكانا ملائما في أعلى وادى (مسكيانة) حتى يسهل عليه الحصول على الماء لتموين الجيش لحقته آخر النهار وعسكرت أسفل الوادى (3) .

لم يشأ حسان ان يبادر بالقتال ، فبات الفريقان على أهبة الاستعداد للمعركة الفاصلة ، وهذا ما يفهم بوضوح من قول ابن عذارى ، (فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم (4) وعند الصباح التحم الجيشان في قتال مرير صبر له الفريقان وانتهى بهزيمة حسان وجنده . فقتل من رجاله عدد كثير ، واسر من خيرة الشباب ثمانون رجلا حتى عرف مكان المعركة بـ (وادي العذارى) (4) .

---

(1) جوليان : تاريخ افريقية الشمالية ج 2 ص 20 .

(2) ابن عبد الحكم : المصدر السابق 269 . السلاوي : الاستقصاء 1 ، 43 .

(3) راجع ابن عبد الحكم الذي يسميه (نهر البلاء) وابن عذاري يسميه نهر (سكتاتة) والمالكي (مكناسة) وابن الاثير نهر (نيني) والسلاوي نهر (مليانة .

(4) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 25 .

أطلقت الكاهنة سراح اغلبهم ، بحيث لم تحتفظ بغير خالد بن يزيد العبسي لشجاعته ، ووسامته ، وتبنته على الطريقة البربرية «ما رأيت في الرجال أجمل منك ، ولا أشجع ، وانا اريد ان أرضعك فتكون اخا لولدى !» (1)

فأحضرت دقيقا ملتوتا بزيت ، ووضعته على ثدييها ، وامرت ابنيها وخالدا أن يأكلوا ثم قالت : «قد صرتم اخوة» (2) .

وقد قربت خالدا واتخذته مشيرا وعملت على توثيق أواصر الود والاخاء بينه وبين ولديها ، ـ وكان أحدهما يونانيا والآخر بربريا (3) ـ وذلك لقوة فراستها ، وتنبؤها بمصيرها وبما سيكون لهذا الرجل عند حسان .

وبعد أن انجلت معركة (يوم البلاء) عن اندحار العرب ، انسحبوا وجند الكاهنة في اثرهم حتى خرجوا من منطقة قابس ، ولما نزلت فلول الجيش الاسلامي في أقليم (برقة) . بلغ حسانا جواب الخليفة ، بأمره بالبقاء حيث هو . وكان حسان قد أرسل الى الخليفة يخبره بهزيمة العرب واخلاء القاعدة الاسلامية من جديد . وانحسار نفوذ المسلمين الى ما وراء قابس ومما قاله في رسالته : «ان امم المغرب ليس لها غاية ، ولايقف أحد منها الى نهاية ، فكلما بادت أمة خلفتها امم ، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم» (4) .

أقام حسان ـ بناء على اوامر الخليفة ـ بجوار قصور قديمة من حيز برقة فبنى هناك منازل ومعسكرات لجنده ، أصبح مجموعها مع ما كان موجودا من قبل ـ يسمى (قصور حسان) ، وكانت مدن برقة ، ولوبية ، ومراقية ، واجدابية ، تابعة لنفوذه (5) .

وبقي في هذه المنطقة مدة خمس سنوات (6) ينظم صفوف جيشه ويراقب تطور الأحداث في إفريقية وينظر اذنا جديدا من الخليفة في دمشق .

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 27 .

(2) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 34 .

(3) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 27 . الرقيق : المصدر السابق 58 . وهنا يرد ذكر أسميهما : (قويدر ، ويامين) .

(4) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 26 .

(5) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 270 .

(6) يحد المالكي المدة بثلاث سنوات فقط ، لانه يجعل مسيره الى افريقية سنة 69 هـ أي مكان نهير (ص 33) .

ولحرصه على ما يجرى في المنطقة بعد رحيله عنها ، طلب من خالد ، ان يوافيه بأخبار الكاهنة ، وبحقيقة موقفها ، وعلاقاتها مع الروم ، ومع البربر خاصة ويكتب اليه ايضا عن وضعية البربر ، وروحهم المعنوية ومدى تماسكهم وبقائهم مخلصين لقضية الكاهنة ، فكتب اليه يخبره بمدى تذمر البتر من الكاهنة ، وبضعف علاقاتها مع الروم ، والبرانس الذين استاءوا من تخريب العمران ، وبأن القوم لا تربطهم رابطة في هذه الفترة ، وحثه في النهاية على الاسراع بالزحف للاجهاز على الكاهنة (1) .

ذلك أن الكاهنة لما عرفت ان حسانا وان ابطأ سيعود لا محالة ، جمعت قومها ، وأذنت لهم بسلوك ما يسمى (سياسة الارض المخربة) في افريقية لان العرب في زعمها ـ يطلبون من افريقية المدن والحصون والاموال ، اما البربر فلا يتعلقون بغير المزارع والمراعي .

ولذلك عند ما أمرت بأن تهدم الحصون ، وتخرب المدن ، وتقطع الاشجار ، وتتلف المزارع والمراعي ، لييأس العرب ، وينصرفوا عن التفكير في العودة مرة أخرى الى افريقية . وافق البتر ـ أهل الظعن والنجعة ـ على ما أمرت به وطبقوه باخلاص في المرحلة الاولى فلما أفاقوا ندموا عما بدر منهم في حق العمران ، آية ذلك : انفضاضهم من حولها شيئا فشيئا ، والمصادر التاريخية ، التي تسمى هذا الفعل المنسوب الى الكاهنة والى قبيلتها (خراب افريقية الاول) تشير في نفس الوقت تدليلا على فظاعة العمل ، الى أن هذه المنطقة ، كانت (ظلا واحدا من طرابلس الى طنجة وقرى متصلة ، ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا اكثر خيرا ، ولا اوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصونا من اقليم افريقية والمغرب ، مسيرة الفي ميل في مثله ، فخربت الكاهنة ـ لعنها الله ـ ذلك كله (2) .

ويلاحظ في هذا الصدد ان كسيلة وقومه من البرانس المستقرين رغم اصرارهم على طرد العرب ، وتصفية نفوذهم من المنطقة بعد (تهودة) ، لم يخطر ببالهم قط ان يلتجئوا الى هذه السياسة الاجرامية ، سياسة تخريب العمران ، والمعالم الحضارية ، التي آتت أكلها المر للكاهنة ولمن أشار عليها بذلك .

(1) تحايل خالد في التستر على مكاتبته ، فجعل كتابه الاول في خبز ملة فلما عرفت الكاهنة سر الامر ، وضع كتابه الثاني في حنوسرج ، فلم يغب عنها هذا التدبير أيضا ، ومع ذلك نجا الرسول بالكتابين ووصل الى حسان ، وعليهما بني خطته في العودة السريعة (ابن عبد الحكم ص 270 ـ 271) .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 26 ـ ابن أبي دينار : المؤنس ص 17 .

لقد كانت نتائج هذه السياسة سيئة لا بالنسبة للعرب الذين كانوا سببا في وقوعها . وانما بالنسبة للكاهنة وقومها وبالنسبة الى البربر ، عموما الذين ضرب اقتصادهم القومي في الصميم .

أضرت هذه العملية الوحشية بالكاهنة ، واساءت الى القضية التي زعمت انها تدافع عنها ، فتغيرت نفوس البربر حيالها وكرهوها ، وكان ذلك ارهاصا بانفراط عقد الاحلاف والموالين ، ففر من البربر خلق كثير التجأوا الى ساحل الاندلس ، وجزر البحر الابيض المتوسط ، وذهب فريق منهم الى اقليم برقة يستغيثون بحسان لما حل ببلادهم ، من الكاهنة . وفي هذا الوقت وصلت الامدادات من دمشق ، والاذن لحسان باستعادة افريقية ، وهكذا فمع اجتماع المبررات ، واستكمال الاستعدادات يبدأ العمل المادي ، لارجاع القاعدة الاسلامية ، واخضاع البتر البداة .

زحف حسان نحو الكاهنة ، فمر في طريقه بمدينة قابس - بلد الافارقة - التي طالما تمنعت عن الفاتحين ، واغلقت الابواب في وجوههم - فقدم اهلها فروض الطاعة والولاء ، ونصيبا من الاموال ، ورأى حسان ان يعين على المدينة واليا مسلما فاغتبط القوم ، ثم ترك الطريق الساحلي ، وعرج على مدينة (قفصه) وعلى اقليم (قسطيلية) وارض (نفزاوه) فافتتح جميع ذلك ، سلما ، وتقبل الولاء من السكان .

وعند ما علمت الكاهنة نبأ زحفه وقرب وصوله ، رحلت غير بعيد عن منطقة اوراس وقبيل اللقاء الحاسم ، اطلعت ابنيها وخالدا على تنبؤها بحادث قتلها ، على يد حسان ، وان رأسها سيفصل عن جثتها ، ويرسل الى الخليفة في دمشق .

ومع انها رفضت فكرة الفرار ، لان ذلك في نظرها عار (1) ، واصرت على المقاومة حتى النهاية المجيدة ، فانها طلبت من خالد - وقد ادخرته لمثل هذا اليوم - ان ياخذ الامان لابنيها من حسان ، واخبرتهما بما سيظفران به من عز ، ورئاسة في قومها ، بفضل سعة أفق حسان .

ولاشك أن هذا الموقف المتناقض ، من الكاهنة ليدل من جهة على الفروسية والاستماتة للدفاع عن قضية الوطن ، ومن جهة اخرى على ايثارها الخير والسلامة لمن اخلصت الحب لهما طيلة حياتها .

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق 1 ، 28 .

انطلق خالد فأخبر حسانا بما تنبأت به الكاهنة ، وبرغبتها في تأمين ولديها فاستجاب حسان ومنح الامان لهما لكنه تحفظ عليهما حتى ينجّلي الموقف بوضوح وولى خالدا قيادة المقدمة في جيشه ، وتقدم الى معتصم الكاهنة . اما هي فقد خرجت من مخبئها ناشرة شعرها ، وهي تصيح مخاطبة قومها : انظروا ما دهمكم فاني مقتولة .

وعند ما التحم الجيشان في المعركة الفاصلة التي ظنها البعض «انها الفناء» انهزم البربر ، وتفرقوا ، فاقتفى العرب اثرهم تقتيلا ، واسرا ، وادركوا الكاهنة وقتلوها عند مكان سمته المصادر (بئر الكاهنة) (1) واحتزوا رأسها ، وارسلوه الى المشرق كما تنبأت بذلك من قبل . واثر ذلك تجمع البربر وساعدهم الروم ، وقاتلوا حسانا فلما هزمهم وطلبوا الامان منه لم يقبل الا بشرط أن يسلموا ، ويقدموا من قبائلهم اثنى عشر ألفا يكونون عونا للعرب ، في اتمام عملية الفتح فقبلوا هذا الشرط واسلموا بين يديه (2) ولما كان قد سبقهم في الاسلام ، وفي الدعوة اليه ولدا الكاهنة اللذان قالا لقومهما (قد لزمتنا الطاعة ، وسبقنا اليها وبايعناه عليها) فان حسانا قدم على كل ستة آلاف من البربر ، ولدا من ابني الكاهنة ، واستصحبهم معه وارسلهم الى مختلف النواحي ليعملوا السيف في رقاب كل من لم يذعن من الروم او البربر ، ومن هذا الوقت أصبحت مهمة نشر الاسلام في المغرب ليست مقصورة على العرب فقط انما أصبحت تشاركهم فيها عناصر قومية أخرى .

ولاشك أن سياسة التسوية بين العرب والبربر ، في الفيء واستمالة البربر واشراكهم في تحمل مسؤولية القيادة ، والعمل على نشر الاسلام ، بين ذويهم تلك التي بتر بها دينار ورعاها حتى آتت ثمرها ، سهر عليها حسان ، منذ فصل عن طرابلس الى ان انتهت مدة ولايته ، على افريقية .

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية ص 271 ـ المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 36 ويشير هذا الاخير الى أن قتل الكاهنة ، ربما كان في مدينة طبرقة ، ويسجل مدى تعجب الناس من ضخامتها حتى كانت الاترجة تجري ما بين عجيزتها ، وأكتافها ـ أما البكري فيسمى قصر الجم ، حصن الكاهنة ، ربما لانها اختفت فيه من العرب أو التقت بجواره معهم في احدى المعارك (أنظر البكري ص 20) ـ دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد 2 ص 305 .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 29 .

ويشير ابن عذارى الى أن حسانا بعد ان اطمأن على استقرار الاحوال في افريقية بعد اسلام البربر ، رجع الى قاعدة القيروان ، في رمضان من سنة 82هـ فبنى فيها مسجدها الجامع أي جدده ، ودون الدواوين ، ووضع الخراج على عجم افريقية ، وعلى من أقام معهم ، على النصرانية ، من البربر ، وجلهم من البرانس (1) ، واقلم هناك حتى عزل ، وعوض بموسى بن نصير .

5 — عودة جديدة إلى قرطاجنة ، وصبغها بصبغة إسلامية

اما الاشارات التي تضمنها (رياض النفوس) للمالكي و (معالم الايمان) للدباغ . فصريحه في أن حسانا بعد أن قتل الكاهنة توجه نحو قرطاجنة وفحص تونس ، فمر في طريقه بقرية (طنبذة) فأقام معسكره فيها ، ووجه بعثا بقيادة مولاه ابي صالح الى قلعة زغوان فلما استعصت عليه بعد قتال دام ثلاثة ايام ، ذهب اليها حسان بنفسه ، في خيل مجردة ، فأخدها صلحا (2) ورجع الى معسكره في (طنبده) (3) ومن هناك واصل السير الى قرطاجنة التي عاد اليها الروم ، وبجوارها خرج اليه الروم ، فقاتلوه قتالا عنيفا ، ولما انهزموا على اثر ذلك هزيمة منكرة ، وعرفوا عدم جدوى المقاومة ، احتالوا في الخلاص باموالهم ، واهليهم ، وتظاهروا بالطاعة ، وقبول الجزية ، وفي الليل لحقوا مراكبهم وتركوا المدينة خالية ، وخرجوا من احد ابواب المدينة وكان يسمى «باب النساء» دون ان يشعر بتدبيرهم المسلمون حتى دخلوا المدينة صباحا . وعندئذ امر حسان بتخريب المدينة وحرقها ، وقطع مصادر المياه عنها ، حتى ييأس الروم ، من العودة اليها مرة اخرى ؛ ولما كانت قرية ترشيش - التي بنيت على انقاضها مدينة تونس - بعيدة عن البحر فقد عمل حسان على ايصالها به «فهو الذي اخرق البحر اليها» (4) ولكي يطمئن من يبقى

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 29 - ابن عبد الحكم : الفتوح ص 271 - دائرة المعارف مجلد 2 ص 305 الرقيق القيرواني : المصدر السابق 64 .

(2) يلاحظ المالكي أن هذا المولى نزل في موضع مجاور لزغوان ، أصبح فيما بعد يسمى (فحص ابي صالح) رياض النفوس ج 1 ص 37 .

(3) راجع المعالم ، حيث رسمها الدباغ (طنبزه) وقال عن القلعة انها (قلعة زعفران) تصحيفا . ج 1 ص 61-62 وسميت في عصر البكرى (المحمدية) ص 38 .

(4) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 37 - الدباغ : المعالم ج 1 ص 62 .

من المسلمين في هذه المنطقة من غارات الروم البحرية . وكان لهم حتى هذا الوقت التفوق البحرى على المسلمين في المغرب ، عمل على بناء دار لصناعة السفن في تونس ، التي حولها الى ميناء بحرى للمسلمين وكان مرفأها القديم يسمى (رادس) .

6 ـــ حسان وقاعدة القيروان

اقام حسان بالقيروان مدة شغل أثناءها بتعمير المدينة وتجديد جامعها وتحسينه . وببعث الراحة والطمأنينة في نفوس الجماعات الاسلامية فيها ، التي تزايد عددها بكثرة الوافدين من الضواحى . وهكذا اصبح المسلمون يشعرون ، باستقرار تام ، وقد اقتضى وضع المدينة ،وكثرة سكانها تكليف حنش الصنعاني بمهمة جباية اموال الصدقة من المسلمين . وقد لخص الدباغ وضعية المدينة الجديدة ، والحالة النفسية لسكانها بقوله : «اقام بها (حسان) وعمرها المسلمون ، وبنوا بها المساكن وانتشروا فيها وكثروا وأمنوا من اعدائهم وقطعوا شوكتهم ، واقر الله أعينهم ، وعلموا ان الله قبل دعوة عقبة بن نافع ، فيما دعا لهم (1) ، وجاءت نفس الاشارات السابقة في كتاب (المغرب في بلاد افريقية والمغرب) لابي عبيد الله البكرى . وانفرد البكرى برواية حادثة تحايل صاحب قرطاجنة على حسان ، اثناء الحملة الاولى ، ويسميه (مرناق) (2) وذكر البكرى ان غارة بحرية مفاجئة شنها الروم ، على من بقي من المسلمين في قرطاجنة أثناء رحيل حسان عنها ، فقتل من المسلمين واسر منهم ونهبت أموالهم ولم يكن ملجأ يتحصنون فيه من عدوهم ، انما كانوا يقاتلون وخيامهم ومعسكراتهم مكشوفة في العراء . ويجعل البكرى هذه الحادثة محور المكاتبة التي تمت بين حسان والخليفة ، عبد الملك ، والتي انتهت بقيام دار الصناعة (ترسانة) في ساحل ترشيش (3) .

والذي يستنتج مما ذكره البكرى ان قرطاجنة لم تخرب بمجرد ان تم فتحها لاول مرة ، بدليل ابقاء مجموعة من المسلمين مرابطين بجوارها ، وهم الذين تلقوا الضربة

---

(1) المالكي : المصدر السابق ج 1 ص 38 ـ الدباغ : المعالم ج 1 ص 63 .

(2) يوجد في هذا الوقت في ضواحي تونس مكان بهذا الاسم ، كان يسمى في عصر البكري فحص مرناق ، ويتضمن ثلاثمائة وستين قرية محصورة بين جبلين هناك (أنظر البكري ص 37) .

(3) البكرى : المغرب ص 37 ـ 38 حيث يروى أحاديث وقصصا في فضل الرباط برادس الذى هو محرس للقيروان . الرقيق : المصدر السابق 65 .

المفاجئة ، التي وجهها لهم الروم بقيادة البطريق (يوحنا) عند ما نزلوا بالمدينة ، واستعادوها . وانما نالها التخريب بعد ان استعادها العرب مرة أخرى من الروم .

ويختتم المالكي فترة ولاية حسان بقوله : «استقامت افريقية كلها وامن اهلها ، وقطع الله مادة اهل الكفر منها ، وصارت دار اسلام الى وقتنا هذا والى آخر الدهر (1) .

7 — حسان وعبد العزيز بن مروان

ويذكر ابن عذارى ان حسانا بقي في القيروان ، لا يغزو احدا ولا ينازعه أحد حتى استقدمه عبد العزيز بن مروان ، والى مصر تمهيدا لعزله ، وفي البحث عن سبب معقول لموقف والى مصر من حسان ، نلاحظ أن المسألة شخصية ، ومادية في نفس الوقت . فوالى مصر يظن أنه غضب على حسان لانه كان يتحاشى الرجوع اليه في شؤونه ، ويذاكر الخليفة مباشرة ، ودون وساطته في شؤون افريقية . وقد استكبر والى مصر ، هذا الموقف ، وهالته المنزلة التي تبوأها حسان ، في قصة فتح افريقية ، والغنائم الوفيرة التي حصل عليها ، ومن ثم نراه لا يكتفي بما اهداه اليه حسان - أثناء مروره بمصر - عائدا الى دمشق - بل يصادر بجشع معظم الاسلاب والنفائس ، ويستبقيها لنفسه ، حيث لم يفلت منه الا تلك التي اخفاها حسان في قرب الماء ، مبالغة في الستر والحذر ، وكانت هذه جواهر وذهبا وفضة وهي التي أفرغها ، أمام الخليفة الوليد بن عبد الملك ، بعد أن شكا له سوء تصرف عمه عبد العزيز بن مروان ، وبقدر ما غضب الخليفة على عمه ، بقدر ما كانت فرحته واغتباطه بهذه الغنائم الوفيرة ، فشكر حسانا على اخلاصه ، وعزم على رده الى عمله في افريقية ، لولا سورة الغضب التي الحت على حسان وهو «الشيخ الامين» فجعلته يقسم (بأن لا يلي لبني أمية عملا أبدا) (2) .

انطوى الخليفة على غضبه من عمه ، الذي تصرف بحرية ، وندب للعمل في افريقية رجلا كانت له به منذ القدم ، صلة ود ، وحماية ، هو ابو عبد الرحمن موسى

---

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 38 - الدباغ : المعالم ج 1 ص 63 .

(2) ابن عذارى : البيان ج 1 ص30 - 31 ، وعلى رأى ابن الاثير الذي يجعل عودة حسان أثناء حياة عبد الملك بن مروان ، يكون غضب الخليفة اذا ، من اخيه وواليه على مصر عبد العزيز بن مروان . انظر الكامل ج 4 ص 179 - 181 ، وابن عبد الحكم : الفتوح ص 272 ، الرقيق : المصدر السابق 67 . سعد زغلول : المرجع السابق 203 .

بن نصير ، اما حسان فاتح قرطاجنة ، ومهندس دار الصناعة ، وقاهر الروم ، والبربر . وباعث الوحدة الاسلامية بين العرب والبربر ـ فلم يعمر طويلا بعد اعتزاله السياسة ـ ومات في دمشق ، من شدة التاثر على نكران الجميل . وكأن العناية الالهية جعلت هذا الرجل يبر بقسمة ، ويترك افريقية بعد ان مهدها ووطأ أكنافها لخلف يجني ثمار ذلك سهلة سائغة .

وتشاء الظروف والاقدار ، ومعها اهواء الخليفة أن يجد هذا الخلف رغم اخلاصه وبلائه ـ كسلفه ـ مصيرا قاتما قل أن نعثر على نظيره في قصة القادة الفاتحين .

8 ــ منشآت جديدة في الأرض المفتوحة

تفرغ حسان بعد ان قضى على عنصرى المقاومة ، في افريقية الى التنظيم الداخلي . للبلاد المفتوحة . فاختص مدينة القيروان ، حاضرة افريقية ، ومحرس الداخل ، بجانب كبير من عنايته ، فهدم المسجد القديم ماعدا المحراب ـ واعاد بناءه ، وزاد فيه وحسنه ، واعتمد في عمله على بقايا كنيسة قديمة ، وحمل اليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما «ورفض تسليمهما مقابل زنتهما ذهبا ، لصاحب القسطنطينية» (1) واقبل الناس على البناء والتعمير ، فاتسعت خطة المدينة وكثر عدد سكانها .

وقد اتضح لحسان خاصة بعد الاغارة الرومية المفاجئة على قرطاجنة واستردادها . أن لاسبيل لاستقرار المسلمين ، الا بتخريب قرطاجنة المدينة البيزنطية التي يصعب الدفاع عنها والعمل على انشاء مدينة جديدة تخلفها ، تستجمع خصائص المدن الداخلية من حيث الحماية من الغزو ، وميزات المدن الساحلية من حيث القرب من البحر . فكتب الى الخليفة عبد الملك يصور له حال المسلمين عند الاغارة ، واثرها ، واوفد لنفس الغاية ولاقناع الخليفة ، سفارة من اشراف العرب بلغ عدد افرادها أربعين رجلا . فتاثر عبد الملك لما نال المسلمين ، وكلف عامله على مصر واخاه عبد العزيز بن مروان ، ان يرسل الى معسكر افريقية ألف اسرة قبطية ، ويحسن عونهم ، ويجهزهم ، حتى

---

(1) البكرى : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 22ـ 23 ، ويظهر انه الامبراطور (ليونتيوس) .

يصلوا الى (ترشيش) وهي قرية كانت بجوار تونس ، او بنيت الاخيرة مكانها ، او هي تسميه قديمة لتونس ـ الاسم العربي ـ (1) .

وارسل الى حسان ، عامله على افريقية ـ يأمر ببناء دار لصناعة السفن (2) وان يجعل ميناء بحريا ترسو فيه ، والذي يجب ان يكون (قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر) ، وحدد نوع مساهمة البربر ، التي تمثلت في قطع الاخشاب من الغابات ، الداخلية ، وجرها الى دار الصناعة لتبنى منها المراكب البحرية . اما مهمة الميناء الجديد ، فتنحصر في كونه ، قاعدة انطلاق ضد الروم في البحر ونقطة حراسة للقيروان في الداخل . «وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وان يغار منها على ساحل الروم ، فيشغلوا عن القيروان ، نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم» . (3) فلما وصل القبط الى موضع رباط حسان ، بدأ في تنفيذ المشروع ، البحرى الجديد ، ويظهر ان حسانا حفر وسط البرزخ الذي كان يفصل بحيرة تونس عن بحر رادس ، قناة عميقة ، أجرى اليها الماء من البحيره والبحر ، لتسير فيها السفن حتى تصل الى القرية الداخلية القديمة ، وهي (ترشيش) (4) وفي هذه القرية التي أصبحت ميناء بحريا ، بنى حسان دار الصناعة التي أصبحت متصلة بالميناء . وهذا متصل بالبحيرة ، وهي متصلة ببحر رادس ، وأنشا المراكب البحرية ، وباشر المسلمون الغزو البحرى ، ضد الروم فأكثروا فيهم «النكاية ولهم الاذاية» على حد قول البكرى .

عمرت قرية تونس واستبحر عمرانها ، حتى غدت مصرا ، واهتم الولاة المسلمون بعد حسان خاصة عبيد الله بن الحبحاب ، بالقاعدة البحرية ، وبدار الصناعة : فحصنوها ، وجددوا مبانيها ، وبنوا فيها المساجد ، واهمها مسجد الزيتونة الذي وضع اساسه حسان ، واتمه ابن الحبحاب . وكل ذلك ، لتتوفر المصر الجديدة على خدمة الجند الاسلامي في النواحي الروحية والمادية .

---

(1) ابن ابى دينار : المؤنس ص 6ـ7ـ8ـ الأدريسى : وصف افريقية الشمالية ص 81

(2) الرقيق القيرواني : المصدر السابق 66 . ومنه يفهم أن الوليد بن عبد الملك هو الذي أمر بتهجير ألف أسرة قبطية برسم المساهمة في بناء دار الصناعة . سعد زغلول : المرجع السابق 199 وما بعدها .

(3) البكرى : المغرب ص 38ـ الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ص 66

(4) يذكر ابن ابي دينار أن هذا اسم لتونس قديما ، قبل فتح العرب ، أما بعد ذلك فسموها تونس ، نسبة لراهب كان يوجد في كنيسة بهذا المكان ، أو لأن المسلمين كانوا يسمعون ترانيم الرهبان ، من صومعة قريبة فتؤنسهم ، وتطربهم ، فأطلقوا هذا الاسم على المكان . صفحات ، 5 ، 6 7 .

وقيام هذه المدينة الجديدة ، ينهض دليلا على مدى اهتمام المسلمين بالعمران ، وبناء المدن ، ويشير في نفس الوقت ، الى أن العرب ، في المغرب بفضل هذه القاعدة البحرية - أصبحوا قوة بحرية مرهوبة منها يمارسون الغزو البحري ويحمون ، سواحلهم وثغورهم من اى عدوان بيزنطي ، واما الروم فقد انحسر نفوذهم ، عن هذه المنطقة ، بعد ان خسروا للابد - قاعدتهم الكبرى ، التي ورثت مجدها البحري والسياسي والثقافي مدينة تونس الاسلامية ، وفقدوا عنصرا هاما من عناصر تفوقهم على العرب المسلمين . ولقد ادت المدينة الجديدة وقاعدتها البحرية ، مهمتها الدفاعية والهجومية ، كاملة . فمنها انطلق المسلمون نحو صقلية وجنوبي ايطاليا ، منذ بداية القرن الثاني ، حتى تم اخضاعهما للسيادة الاسلامية في عصري الاغالبة والفاطميين .

وانشاء ميناء تونس ودار صناعتها ، بمساعدة البربر ، يدل على الثمار الطيبة التي بدأ يجنيها ، المسلمون ، من سياسة حسان ، نحو البربر ، عند ما اشركهم في الخدمة العسكرية ، وسوى بينهم وبين العرب ، في تحمل أعباء القيادة ، والدفاع ونشر الاسلام ، وفي تقسيم الغنائم ، والاسلاب ، واطرح جانبا النظرية العتيقة التي تجعل البربر في وضع الشعب المهزوم ، الذي فتحت ارضه ، عنوة ، ولم يمارس السلب والنهب كما جرت العادة . وانما عامل البربر برفق وبحكمة ، ليكسبهم ، الى الاسلام ، واقدم على خطوة جريئة أخرى ، عند ما طبق نظام الاقطاع الزراعي فقسم الارض بين المسلمين منهم ، وجعل لكل قبيلة قطعة ، من الارض تستغلها وتكون مسؤولة عن صدقاتها ، وهذا ما يستنتج من عبارة المالكي «ومن ذلك صارت الخطط للبربر ، في افريقية ، فكان يقسم الفيء بينهم ، والارض ، وحسنت طاعتهم ، فدانت افريقية ... ودون الدواوين (1) » والعبارة الاخيرة تشير ، الى ناحية أخرى من نواحي التنظيم ، التي أحدثها حسان ، فقد دون الدواوين . أى اتخذ التراتيب الادارية ، وهيأ السجلات ، وعين المصالح الحكومية المختلفة ، وهيئة الموظفين ولغة الادارة ، ونواب الاقاليم . واذا كانت النصوص في هذه الناحية ضنينة لم تشر الى اللغة التي استخدمت في دواوين افريقية في بداية الفترة الانتقالية - ولا يستبعد ان تكون العربية خاصة بعد حركة التعريب الشاملة في مصالح الدولة المركزية في دمشق - فان المؤكد بفضل النصوص - ان حسانا استعمل مولاه أبا صالح نائبا في القيروان ، بعد رجوعه الى المشرق ، وكان من قبل قد

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 36 .

انتدبه لاعمال عسكرية ، ضد قلعة زغوان ، بحيث أصبح تكليف الموالى بأهم المناصب في المغرب شيئا مألوفا ، وذلك منذ ان سنه رجل من هذه الفئة ، هو دينار ابو المهاجر ، وفي برقة عين حسان على خراجها ، ولتحقيق التفاهم مع سكانها ، من الافارقة وبقايا الروم ـ رجلا قبطيا تسميه المصادر ـ ابراهيم بن النصراني ، الذي يظهر انه عوض فيما بعد ـ عقب فراره بغلام ، عبد العزيز بن مروان ، الذي يسميه ابن عبد الحكم (تليدا) (1) .

وفي الناحية المالية نظم حسان الجزية ، او ضريبة الرؤوس ، ووضعها على الروم وعلى الافارقة ، وعلى نصارى البربر ، وكانت غالبيتهم ، من البرانس ، وكذلك نظم الخراج ، وهو الضريبة ، العقارية على كل هذه الطوائف ، غير المسلمة ، (2) ويستنتج من نص اورده المالكي «ولى حسان على صدقات الناس والسعي عليهم حنشا بن عبد الله الصنعاني التابعي) » (3) ان مهمة جمع اموال الجزية والخراج من اهل الذمة قد اسندت الى رجال من طائفتهم ، او التزم السكان انفسهم ، بجمعها ، وتسليمها في وقتها ، كما كان الشأن مع قبيلة لواته في برقة الذين لم يدخل ارضهم جاب ، ولا مستحث (4) اما ظاهر النص فيشير ، الى ان حسانا عين عاملا مسلما ليتكفل بجمع اموال الزكاة ، والعشور ، من المسلمين .

ونعتقد ان حسانا بسلوكه سياسة المساواة بين العرب والبربر ، في الادارتين المدينة ، والعسكرية ، قد حبب الاسلام الى نفوس البربر ، وغيرهم ، فاعتنقوه عن اقتناع بسماحته ، وتعلموا اداته المعبرة عنه وحصلوا اصوله ، وانتشرت بينهم العادات والتقاليد العربية ، واللهجات العربية جنبا الى جنب مع الاسلام ، واللغة العربية الام ، وتوسعوا في بناء المساجده ، من برقة الى درعة .

بقي علينا بعد ان ناقشنا اعمال حسان في افريقية ، أن نبحث عن تاريخ مقبول لهذه الأعمال ، وعن صداها في المصادر التاريخية .

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 272 ـ 273 .

(2) دائرة المعارف الاسلامية مجلد 2 ص 305 .

(3) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 38 .

(4) البلاذري : فتوح البلدان ص 227 .

9 ـــ صدى نشاط حسان ، في مصادر الفتح المختلفة

تختلف المصادر التاريخية اختلافا شديدا ، حول تحديد تاريخ مضبوط لنشاط حسان ، في بلاد المغرب ، فابن عبد الحكم ، أقدم واوثق مصادر الفتح يجعل تاريخ دخول حسان لأول مرة الى افريقية سنة 73هـ ، وتاريخ رجوعه الى المشرق سنة 76هـ ويشير الى نزوله بطرابلس ، عند مجيئه ، واصطحابه المسلمين الذين فروا من القيروان اثناء اخلائها ، وتقديمه للقيادة على البربر هلال بن ثروان اللواتي ، ويروي قصة صراعه ، مع الروم ، في قرطاجنة ، ومع البربر في منطقة أوراس وانسحابه من افريقية الى (انطابلس) اثر هزيمة (نهر البلاء) تاركا بعده ابا صالح مولاه نائبا عنه في القيروان ، ثم يشير الى قصة رجوعه ، وهزيمة الكاهنة ، عند جبل أوراس ، في موضع (بئر الكاهنة) ودور خالد بن يزيد في انجاح اعمال حسان ونشاط هذا الاخير ، وأخذه الامان لولدى الكاهنة ، وعامة البتر ، ويختم الحديث بالاعمال التنظيمية التي أنجزها حسان أثناء اقامته في القيروان (1) .

ويروى البلاذرى قصة تكليف عبد العزيز بن مروان ، لحسان بالفتوح في افريقية وجهود هذا القائد ضد الكاهنة ، تلك الجهود التي تحطمت في المرحلة الاولى فانسحب حسان الى قصور من حيز برقة ـ يضمها قصر سقوفه ازاج ، سميت قصور حسان ـ ونجحت في الجولة الثانية ، ايما نجاح حتى أن الشاعر ابا محجن نصيبا روى انه حضر مشهدا لسبي البربر عند عبد العزيز بن مروان ـ فلم ير قط ـ حسب تعبيره ـ أحسن وجوها من هؤلاء (2) .

وابو بكر المالكي ، والدباغ يحددان تاريخ حملة حسان بسنة 69هـ ـ أي مكان حملة زهير ، بن قيس البلوى ، ويشيران الى أن حسانا رجع الى القيروان بعد هزيمته للكاهنة ، وقتلها ، في رمضان سنة 84هـ فأقام بها ثم رحل نحو قرطاجنة وفحص تونس ، وينفردان بالقول بقتل الكاهنة عند مدينة طبرقة وبذلك أخذ جوليان ـ ثم بالاشارة الى تقسيم الارض الى خطط معينة ، وتوزيعها ، بين البربر والى سياسة التسوية مع العرب في الفيء ، وتوليه حنش مهمة ، جمع الصدقات ، ويختمان الحديث بالاشارة الى

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 269 ـ 271 .

(2) البلاذري : فتوح البلدان ص 231 .

مبلغ الغنائم ، التي صحبها حسان في رجوعه الى المشرق وكان على حد روايتهما ، خمسة وثلاثين ألف رأس من سبي البربر ، وثمانين الف دينار من الذهب حفظت في قرب الماء خوفا من سطو عبد العزيز بن مروان ، وعلى هذا التحديد جرى ابن خلدون والسلاوي (1)

وابن عذاري رغم انه يجعل تاريخ دخول حسان الى المغرب سنة 78 هـ وتاريخ رجوعه الى القيروان بعد انهاء أعماله ـ رمضان سنة 82 ـ هـ أي أن ما أنجزه الرجل من أعمال ـ حسب روايته تم في خلال أربع سنوات فقط ـ الا أنه يستدرك فيقول : « وغزوات حسان لم ، تنضبط ، بتاريخ محقق ، ولا فتحه لمدينة قرطاجة ، وتونس ، ولا قتله الكاهنة » (2) .

وتردد ابن أبي دينار بين سنوات 76هـ 77هـ و79هـ بالنسبة لتاريخ دخول حسان أرض المغرب ، وحدد نهاية أعماله بسنة 84 هـ أي بعد هزيمة الكاهنة في طبرقه ، أوفي جبل أوراس .

أما ابن الاثير ، شيخ مؤرخي المشرق ـ فيذكر ولاية حسان ضمن أحداث سنة 74 هـ ، ويحدد تاريخ مجيء موسى بن نصير ، الى افريقية ، خلفا لحسان بسنة 89 هـ ، ويروي أعمال حسان ضد الروم ، في قرطاجنة ،واقليم صطفورة ، وجهوده ضد البربر ، البتر ، في أوراس ، تلك الجهود التي فشلت عند (وادي نيني) فاضطر حسان أن يرابط ، مدة خمس سنوات في برقة ، حيث بنى قصوره ، ينتظر الامدادات من الخليفة ، وفي أثناء هذه الغيبة ، عمدت الكاهنة الى تخريب المدن ، والقلاع وافساد المزارع والمراعي ... وينفرد ابن الاثير بتسمية هذا العمل البربري ـ الخراب الاول لافريقية ـ وبالقول بأن الكاهنة خرجت من معتصمها في أوراس ، احتجاجا لقتل كسيلة فاستولت على افريقية ، وعاثت فيها فسادا ، وان حسانا عند ما تمكن في النهاية من قتلها ، أستخلف على افريقية ، مولاه ، وقفل راجعا الى المشرق أثناء حياة الخليفة عبد الملك بن مروان (3) .

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 31 ـ 38 ـ الدباغ : المعالم ج 1 ص 55 ـ 63 ـ ابن خلدون : العبر ج 6 ص 109 ـ السلاوي ؛ الاستقصاء ج 1 ص 42 .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 22 ـ 31 .

(3) ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 179 ـ 181 .

ويظهر لي أن التاريخ الأقرب للصحة ، هو ما يأخذ به ابن عبد الحكم أي سنة 73 هـ ويؤكده ابن الاثير ، مع خلاف ظاهري ، بين الرجلين ذلك أن منطق الحوادث في المشرق ، كان يمنع الخليفة من الاستغناء عن هذا العدد الكبير من جيشه ومن خيرة قادته . قبل سنة 73 هـ أما في هذه السنة ، فقد نجح الخليفة في القضاء على فتنة ابن الزبير ، في الحجاز ، فاستعادت البلاد الاسلامية بعد عام الجماعة الثاني ، وحدتها واستقرارها ، وأصبح الخليفة يشعر باطمئنان مكنه ، من الاتجاه نحو الاهتمام بأرض المغرب من جديد . وقد أمر حسانا أن يستقر في مصر ، حتى تكتمل عدته ، وتتبلور الاوضاع ، في افريقية ، ومن الارجح أن هذا الاعداد قد استغرق كامل سنة 73 هـ بحيث لم تتوجه الحملة الافريقية الا في بداية سنة 74 هـ كما اوضح ابن الاثير ، وليس ببعيد القول بأن اعمال حسان ضد الروم ولقاءه الاول مع البتر ، في أوراس ، قد تمت في بحر سنة 74هـ وعند ما استأنفها بعد خمس سنوات ، أى سنة 79هـ كللت بالنجاح ، التام في نهاية سنة 82هـ فانصرف حسان بعدها ، للاعمال الانشائية ، مثل بناء دار الصناعة ، وتصفية بعض جيوب المقاومة ، في المناطق الساحلية ، والجبلية . واعادة بناء مسجد القيروان ، وبناء مساجد أخرى في تونس ، وقرطاجنة ، ولاشك أن هذه الاعمال الضخمة اقتضت منه وقتا ليس بقصير ربما امتد الى أواخر سنة 85هـ .

الباب الثالث

تأكيد السّيادة العربية على المناطق المفتوحة

دور موسى بن نصير (86 — 92) هـ

1 ــ كيف وصل موسى إلى مركز الولاية

عندما رجع حسان بن النعمان ، الى المشرق ـ وقدم لعبد الملك بن مروان تقريرا عما انجزه ، من اعمال ، في افريقية ، ووضع بين يديه الاموال ، والغنائم ، شكره ، واجزل له العطاء وعينه من جديد ، واليا على افريقية ، بما في ذلك منطقة برقة ـ فتجهز في الشام ، وانضم اليه في مصر ، بناء على أمر الخليفة جماعة من المتطوعة ، منحهم رواتب خاصة ـ وبدأ يستعد للتوجه من مصر الى مقر عمله .

ولما سمع عبد العزيز بن مروان ـ والى مصر ـ نبأ تعيينه واليا ، وضم برقة اليه ـ استدعاه وجرى بينهما نقاش حاد أظهر اثناه ـ حسان تصلبا ، وعنادا وتصرف عبد العزيز ، اعتمادا على قرابته من الخليفة ـ تصرفا غير كريم تجاه أكبر قادة الفتح في أفريقية ـ وانتهى اللقاء بين الرجلين بتمزيق والى مصر ، لعقد التولية ، وتعيين موسى بن نصير ، خلفا لحسان ، ورجوع هذا الاخير الى دمشق . لم يرد الخليفة رأى أخيه فيفرض حسانا ، ويبعد موسى ـ مع حبه للاول ، وكراهيته الشديدة للثانى ـ وكل ما فعله انه اصغى بعناية الى شكوى حسان ، واوصى أخاه ــ بحسان خيرا ، لانه ميمون الطائر .

واذا صح ما اورده ابن غذاري ، فإن الخليفة ساءه الامر كثيرا حتى هم أحيانا بعزل أخيه عن ولاية مصر ، لولا مرضه الشديد ، ونصيحة الناصحين ، ومنهم قبيصة بن ذؤيب ، بضرورة التمهل « فلعل الموت يأتيه فنستريح منه» (1) .

وعندما توفي بالفعل ــ أصبحت ولاية مصر ، من نصيب عبد الله بن عبد الملك ولما توفي الخليفة نفسه بعد سنة ــ وخلفه ابنه الوليد لم يهتم بالامر كثيرا ، وارسل الى والى مصر ، يؤكد ولاية موسى بن نصير ، على افريقية .

---

(1) البيان المغرب ج 1 ص 34 .

وعلى هذه الصورة تمت ولاية موسى وخلصت له بلاد المغرب ـ وابعد حسان عنها ، وهي صورة تشير الى طموح بعض ولاة مصر ، واحساسهم بقوتهم ، وتمسكهم بنفوذ خاص في افريقية ، وجنوحهم للاستقلال بالرأي ، وافتياتهم أحيانا على الخليفة نفسه ، والتجرؤ على رد أوامره ، اذا تعارضت مع مصالحهم الشخصية .

فعبد العزيز بن مروان ، كان يؤثر موسى بالخير ، بقدر ما كان يكره حسانا ، ولا يريد له ان يلي المسؤولية من جديد ، وقد آثاره خاصة ، ضم برقة اليه ـ التي كانت مجالا خاصا لنفوذه يضع على رأسها من يسير في فلكه ، وعلى العكس منه الخليفة عبد الملك الذي كان يتفاءل خيرا بحسان ، ويثق فيه ، ويريد ان يسند اليه المهام الكبرى ، ويحقد على موسى بن نصير منذ القدم ـ ويود لو تمكن من عزله كلية عن النشاط السياسي ، لأنه موصوم عنده بفساد الذمة والاختلاس .

ورغم ما يستنتج مما حفل به كتاب الأمامة والسياسة) لابن قتيبة ، من ان عبد الملك خفت حدة كراهيته لموسى ، عند ما بلغه نبأ توفيقه في أعماله ، واحرازه على وافر الغنائم ، فإن الذي لا شك فيه ، ان الخليفة ، بقي مغتاظا حتى وفاة أخيه ، وليس من البعيد ان يكون تعيينه لأبنه على رأس ولاية مصر تمهيدا ، لأرجاع حسان الى الميدان لولا وفاة هذا الاخير اثر حادث العزل بمدة يسيرة ، وهكذا خلا الجو لموسى ، وساعدته كل الظروف لكي يظهر مرة أخرى في ميدان المسؤولية ، التي كان يسعى اليها جاهدا ، ويحيك الدسائس للوصول اليها .

2 ـــ شخصية موسى بن نصير

تختلف المصادر في نسبه اختلافا شديدا ، فالبلاذرى ينسبه الى اسرى عين التمر ثم يورد روايتين ينسبه في احداهما الى لخم ملوك الحيرة ، وفي الأخرى الى فرع اراشه من قبيلة بلى (1) .

ويتردد ابن عذاري بين نسبته الى لحم من عرب الجنوب : وبين نسبته الى بكر بن وائل من عرب الشمال ، ويذكر نقلا عن كتاب الصلة ، انه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد (2) .

(1) فتوح البلدان ص 232 .

(2) البيان المغرب ج 1 ص 32 .

ويمضي يوليوس فلهوزن على القول بنسبته الى اليمن ، ويفسر على اساسها ما لقيه هو وأبناؤه من إضطهاد على يد الخليفة سليمان ، وينقل السلاوي عن إبن خلكان ان موسى من طبقة التابعين وممن اشتهروا بالعقل ، والحكمة ، والظفر المطرد في الحروب (1) .

كان ابوه نصير ، قائدا للحرس الخاص بمعاوية ، أثناء ولايته ، على الشام ، واشتهر بقوة الشخصية ، وبالمحافظة على الحياد ، فيما شجر بين معاوية ، وعلى ، فامتنع عن السير ، مع جيش الشام ، الذي توجه الى صفين ، ولما استفسره معاوية أجابه بما اسكته (لا اشركك بكفر من هو أولى بالشكر منك وهو الله تعالى) (2) .

اما ابنه موسى ، فقد استهل حياته السياسية خصما معاديا للحزب الاموى ، ومشايعا لابن الزبير ، حتى هزم رجاله ، في معركة ، مرج راهط ، بجوار دمشق 65هـ (684 م) ، على يد مروان بن الحكم ، ففر الى مصر ، واستجار بولد الخليفة عبد العزيز ، ورغب منه التوسط لدى والده ، ليؤمنه على حياته ، فتم له ما اراد ، بعد ان قبل يد الخليفة مروان ، واقسم ليهبن عمره في خدمة آل مروان ونصرتهم ، وبقي في مصر بجوار صديقه ، وحاميه ، فأتيحت له فرصة التمرس ، بأساليب السياسة ، ومخالطة رجال الادارة وارباب الفكر ، والثقافة ، فكان لذلك أثر كبير فيما اشتهر به من مهارة في الادارة ، وتطلع الى السلطة ، ورغبة شديدة في الثقافة ، والعلم .

وقد ابتسم له الحظ عند ما اسند اليه عبد الملك بن مروان مهمة مستشار ومتولى خراج البصرة لمساعدة أخيه بشر بن مروان ، لكن سياسة الترف ، والتظاهر بالعظمة والانفاق عن سعة ، والا كثار من المنح للمتملقين ، اوقعت مالية البصرة في ارتباك وعجز ، فغضب الخليفة ، وتوعده شرا ـ وارسل الى البصرة الحجاج بن يوسف واليا ، بعد وفاة اخيه ، ليحاسبه على ما بيده من اموال البصرة ، فلما سمع ذلك فر الى مصر ملتجئا عند حاميه القديم وهو اليها ، فاصطحبه عبد العزيز بن مروان معه الى دمشق ، وحضر المقابلة العاصفة بينه وبين الخليفة وتدخل للعفو عنه ، فقبل الخليفة ، شريطة

(1) الاستقصاء ج 1 ص 42 .
(2) ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 259 .

ان يلتزم بغرامة مالية ـ وقد اعترف موسى أنه ادى الى الخليفة خمسين الف دينار منجمة على ثلاثة اشهر ـ (1) .

وبعد براءة ذمته ، وسكون غضب الخليفة عليه ، سافر الى مصر ، وبقي فيها ملازما لصديقه يرقب فرصة للظهور ، على المسرح السياسي من جديد ، وقد تهيأت ، أو هيأها بحيله ، ودسائسه ، وذلك عندما ترامت الاخبار الى مصر بعودة حسان الى المجال الافريقي ، وضم برقة اليه ، وتنحية (تليد) غلام عبد العزيز بن مروان عنها (2) .

ذلك أن هذا الاخير وطن نفسه على الوقوف ضد حسان وعمل على أضعاف مركزه ، وعيره بالتفريط في افريقية وبرقة وتركها بين يدي الروم (3) ـ ومزق عقد ولايته الجديدة ـ وخاطبه باستعلاء (أقعد في بيتك ، فسيولي هذا الامر من هو خير منك ، وأولى به منك ، في تجربته ـ ومعرفته وسياسته ، ويغني الله أمير المؤمنين عنك) .

3 ـــ تهيئة الجو لتسلم المسؤولية

سار موسى بعد أن أنتدبه والى مصر للعمل فى افريقية ، الى حيث كان يعسكر جيش افريقية ، ينتظر مجيء قائده حسان ، فخطب في الجنود ، مبررا لهم أبعاد حسان ، بسبب كفره بالنعمة ، وتطاوله على أولى الامر والنهى ، وموضحا أن أخا الخليفة ، « وشريكه وصنوه » ، ومن لا يتهم في عزمه » قد أسند الى الامر ، بعد تأمل واجتهاد ، وأعترف بأني كأحدكم أقع في الخطأ ، فأرجو منكم مساعدتي ، وعرض مشاكلكم علي ـ وقد أمر والى مصر ـ بصرف رواتبكم مضاعفة ثلاث مرات فخذوها هنيئا مريئا» .

يستنتج من هذه الخطبة ، أن جانبا كبيرا من الجيش ساءه عزل حسان ففتر عن السير الى افريقية ، وأعتبر ولاية موسى ، حدثا غريبا ، ومدبرا ، وحركة مسرحية ـــ ولما

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 32 . أما ابن عبد الحكم فيذكر أن عبد العزيز بن مروان هو الذي تحمل الفدية لاعجابه بموسى بن نصير وصداقته له . أنظر الفتوح ص 274 .

(2) ابن قتيبة ج 2 ص 59 ـ 60 ،

(3) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 274 .

كان والي مصر ، يعلم حق العلم هذه الحقيقة ـ تملق مشاعر الجند فضاعف رواتبهم ، كي يتناسوا ما حدث .

ولم يغب عن موسى بن نصير أن حسانا يتمتع على مستوى الدولة ، بسمعة كبيرة ، وله ماض عسكري واداري وسيرة حسنة ، مع جنده ، وعلاقات طيبة مع من كان اتصل بهم في البلاد المفتوحة ، وانه لا يعدله في منزلته ولا يبلغ مده ولا نصيفه ومن ثم أكتفى فقط بمجرد اتهامه بالتطاول ، دون أن يتعرض لشخصيته ، وتظاهر أمام الجند بالتواضع ومناهم خير الوعود كي يسلسوا اليه القياد ويطمئنوا .

ويلاحظ منذ البدء أن موسى اصطحب معه ابناءه : عبد الله ، ومروان ، وعبد العزيز ، وعبد الملك ، وابناء الشهيد عقبة بن نافع : عياضا ، وعثمان ، وأبا عبيدة ، وموسى ، وتخير أركان حربه ، فكانوا زرعة بن أبي مدرك ، وعياشا بن أخيل ، والمغيرة بن أبي بردة وأفتتح عهده في افريقية بعزل نائب حسان ومساعديه وتغريمهم وتصفيدهم في الحديد ، وترحيلهم الى الشرق ليخلو له الجو من العيون ، والرقباء ويبعد عن افريقية كل من لهم صلة بحسان ؛ وهذه احدى نقط الضعف البارزة ، في تصرفات بعض قادة الفتح ، سنها دينار عندما أساء الى عقبة . ومن خلال ما ذكرته بعض المصادر التاريخية ، نلاحظ ان الوضع السياسي في افريقية ، بعد رحيل حسان عنها ، لم يكن هادئا ، ولا واضحا ، لان البربر اختلفوا فيما بينهم على السلطة وتنازعوا على الرئاسة ونشبت بينهم حروب قلبت المنطقة نارا ، وبعد ان خارت قواهم ولم يتمكن اي فريق من احراز الصدارة تفرقوا في انحاء ، وفي جيوب المغرب ، وزواياه ، بعيدين عن النفوذ العربي ، في القيروان ، غير انه لم تحدثنا هذه المصادر ـ عن اي نشاط معاد قام به هؤلاء ضد القيروان ، ولا عن حركة مضادة ، انطلقت من القاعدة الاسلامية لردع هؤلاء المتنازعين .

4 ـــ سياسة موسى واعماله كما رواها ابن قتيبة (1)

وتظهر المبالغة واضحة ، فيما أدعاه ابن قتينة ، عن الوضع في افريقية عند قدوم موسى حيث روي (أن إفريقية وما حولها كانت مناطق خوف وأوكار أعداء ؛ وأن

(1) لم أر بأسا في أثبات بعض ما وراه ابن قتيبة ، مما ذكرته المصادر الاخرى خاصة ابن عذاري ، وان كنت نبهت في المكان المناسب ؛ الى الطابع القصصي وروح الاعجاب اللذين تميزت بهما كتابة ابن قتيبة عن موسى بن نصير ، وقد نقل ابن عذاري نفسه خبر فتح سجوما ، وغيرها اعتمادا على ابن قتيبة (البيان ج 1 ص 34) .

عامة الجبال ، والسهول كانت حصونا ومراكز حربية ، وان المسلمين ، لم يفارقوا المدن الى ظاهرها لصلاة العيدين) (1) .

ومن هذه الرواية وأمثالها مما حفل به كتاب ابن قتيبة نلاحظ أن الرجل سيطر عليه النزعة القصصية وكان من المعجبين بشخصية موسى ونهجه في العمل ، ومن ذلك ما أكده ابن عذاري أيضا من أن موسى عندما سيطر على الجيش وتوجه نحو افريقية وقع على صدره ، أثناء سيره ، عصفور فذبحه ، ولطخ بدمه صدره ونتف ريشه وطرحه على نفسه ، وقال : (هو الفتح ورب الكعبة والظفر) (2) .

ويتضح اعجاب ابن قتيبة خاصة في الاتيان على اعمال موسى وسرد خطبته التي اظهر فيها معالم سياسته التي انبنت على تصفية جيوب المقاومة ، فيما قرب من مناطق الولاية ، ثم تتبع فلول المخالفين ، فيما بعد من المناطق على خلاف اسلافه الذين كانوا يتركون العدو ، خلفهم ويطوفون الى أقصى البلاد . ونحن وان كنا نميل الى قبول هذا الزعم فيما يخص عقبة وابا المهاجر الا اننا نرفض هذا الاتهام بالنسبة لحسان ، وهو الرجل الذي كان له فضل السبق في تخطيط هذه الاستراتيجية : عند ما قضى على عناصر المقاومة البيزنطية في قرطاجنة بدء ، ثم في جبال اوراس بعد ذلك ولم تطل مدة ولايته ، حتى يمد نشاطه ، الى ما بقي من حصون في المغرب الاوسط ، والى المغرب الاقصى الذي يعتبر فتحه من اهم ما انجزه موسى بن نصير .

ويعد من نقط الضعف البارزة في موسى ، غروره واعتداده بنفسه وتعريضه الجائر بأسلافه ، فقد أشار في احدى خطبه الى ان كل من سبقه الى العمل في افريقية أحد فريقين : فريق مسالم يؤثر الحياة ، ويبغض الحرب ، ويرضى بأقل المطالب ، او فريق يتسم بضعف العقيدة ، وبقلة الخبرة الحربية وبالخمول . اما هو فسيعمل بجد ومثابرة ، ولا يَريم هذه الارض ، ولا يرجع عن هذه القلاع ، حتى يخضعها جميعا لسيادة الدولة الاسلامية .

ابتدأ تطبيق سياسته الجديدة ، فوجه كتيبة الى قلعة زغوان الحصينة ، (3) التي تبعد عن القيروان بمسيرة أكثر من يوم لتأديب اهلها الذين دأبوا على الاغارة المفاجئة

(1) الامامة والسياسة ج 2 ص 62 .
(2) البيان المغرب ج 1 ص 33 .
(3) وعن وصف زغوان أنظر : البكري 45 ـ 46 .

على مواشي المسلمين ، فقتل رئيس القلعة بعد السيطرة عليها وتحصل منها المسلمون على غنائم وفيرة قدرتها بعض المصادر بعشرة آلاف رأس (1) ، وكانت أول سبى دخل القيروان في ولاية موسى ابن نصير وتضخمت الغنائم بما حصل عليه ابناه عبد الله ، ومروان من غنائم في نواحي افريقية قدرتها بعض المصادر تقديرا مبالغا فيه كثيرا (2) .

الا اننا نستنتج منه ، على الاقل احدى اغراض المجهود العسكرى ، الذي بدأه موسى في افريقية ، ويروى في هذا الصدد ان والى مصر ، هاله مقدار السبى ومبلغ الخمس فظنه وهما وقع فيه كاتب موسى فطلب التأكيد ، والتحقيق . وفي المغرب الاوسط ، شمل نشاطه قبائل هوارة ، وزناتة وكتامة ، وصنهاجة ، فأرسل الى مضارب هوارة وزناتة عياشا بن أخيل في عدد من الجيش فأكثر السبى والفساد حتى رغبت هذه القبائل في الصلح ، فمنحته على يد موسى بعد ان قدمت رهائن من وجوه قومها . واستجاب ايضا لرغبة كتامة وعين عليها رجلا منها واخذ رهائن من سراتها (3) والهدف من أخذ الرهائن الذي انفرد به موسى بين قادة الفتح ، التوثق من استمرار ولاء القبيلة للفاتحين .

اما صنهاجة فقد سار اليها موسى بنفسه عند ما علم عن طريق عيونه ، وارصاده ، انها آمنة مستقرة في مضاربها وان ابلها تنتج فلا تستطيع ظعنا ، وأخذها على حين غرة ، وقتل رجالها (قتل الفناء) على حد تعبير ابن قتينة ، وتحصل في هذه الغارة على مقدار كثير من السبى حبب الى جنوده روح المغامرة والاتجاه نحو المغرب الاقصى ، ويظهر أن اول نشاط لموسى فيما وراء نهر ملوية ، كان ضد منازل قبيلة أوربة ومنطقة سجوما بصفة خاصة (4) لان ابن قتينة يشير الى حملة عسكرية نالت من بربر اوربة ، قاتلى عقبة بن نافع منالا عظيما ، وتمكن ابناء عقبة باقتراح من موسى بن نصير ، من قتل كثير من رجال القبيلة ثأرا لوالدهم ورجع بعدها موسى الى القيروان ليستريح الجند ، ويعاد تنظيم صفوفهم ، استعدادا للايغال في أرض المغرب الاقصى (5) .

---

(1) ابن عذاري : ج 1 ص 32 .

(2) ابن عذاري ج 1 ص 32 .

(3) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 34 ـ يذكر ابن عذاري أنهذه القبائل كان عليها رجل يسمى (طامون) أوفده موسى الى مصر حيث قتل عند بركة بقرب قرية عقبة أصبحت تسمى بركة الطامون الى عهده .

(4) سجوما : منطقة تقوم فيها مدينة قرب فاس : البكرى ص 117 وهي من منازل أوربة .

(5) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 2 ص 68 .

5 ــ قاعدة القيروان وخطة فتح المغرب الأقصى

استغل موسى بن نصير ، وجوده ، في القيروان ، فبدأ يرسم ، مع اركان حربه ، خطط المستقبل التي يظهر انها استهدفت الالتفات الى النشاط البحرى لتوسيع مجال النفود ، ولحماية الثغور الاسلامية واستكمال فتح قلاع المغرب الاقصى والايغال في أراضيه ، ولم يكن ضمن هذه الخطط فيما يبدو مشروع نقل المعركة الى ما وراء العدوة المغربية وانما ظهر ذلك مؤخرا بتأثير عوامل مختلفة يرجع بعضها الى استكمال عملية فتح المغرب الاقصى ، وتضخم عدد مرابطى طنجة وبقائهم دون نشاط ويتصل بعضها الآخر بما جد من تحول في موقف حاكم سبتة نتيجة للاوضاع المضطربة في اسبانيا ، وسنذكر شيئا عن نشاط موسى في الميدان البحرى في محله كما سنرى شيئا آخر عن نشاطه في عدوة الاندلس . اما الآن فيهمنا ان نلاحظ ان نشاط موسى في المغرب الاقصى اتسم بالسعة والشمول من اقصى جنوب البلاد حيث منطقة السوس الاقصى الى اقصى شمالها ، حيث طنجة وسبتة فأخضع سكان الصحراء ، وسكان الجبال معا ولم تمتنع عنه غير مدينة سبتة الحصينة بسبب مقاومة حاكمها اعتمادا على مساندة القوط في اسبانيا له : فبينما وجه ابنه مروان على راس قوة ، الى منطقة السوس الاقصى فيما يروى ، حيث أحرز هناك على انتصارات باهرة وحصل على وافر الغنائم ، وارسل أحد أركان حربه وهو زرعة بن أبي مدرك الى المصامدة في جبال درن ، فأذعنوا الى دعوته دون حرب ووجه رؤساءهم الى القيروان حيث اخذ موسى رهائن منهم حتى يطمئن الى جانبهم ، نرى موسى يتجه بنفسه ، الى منطقة السوس الادنى خلف ولاية طنجة . وبعد أن أخضع من بقي خارجا عن الطاعة من البتر ، والبرانس ، وأخذ الرهائن عين عليهم واليا مسلما وسار نحو طنجة عاصمة المغرب ، التي لم تكن قد فتحت من قبل ، وكان بهامن البربر ، من بقى بمعزل عن السيادة الاسلامية ويخضع خضوعا مباشرا منذ ايام عقبة ، وقبلها ، لحاكم سبتة المسيحي الذي تسميه مصادر الفتح (يوليان) . وقد تمكن من فتح المدينة واستنزال صاحبها ، الى الطاعة . وترك فيها قبل عودته الى القيروان حامية عسكرية بلغ عدد أفرادها عند ابن عبد الحكم ، ألفا وسبعمائة مقاتل كان اميرها مروان أحد أبنائه يساعده مولاه طارق بن زياد ، ولما أجهد مروان ولم يتحمل مشاق الرباط ومسؤوليه المرابطين ورهائن البربر ، انسحب الى القيروان ،

فعين موسى على الحامية ، وعلى مدينة طنجة ، طارق بن زياد (1) ، وضم اليه رهائن البربر وجعلهم تحت مراقبته الخاصة وكلفه بان يعتني بتعليمهم ، أصول الاسلام ومبادئه ، وتلقينهم القرآن ، وترك معه لهذه الغاية ، في طنجة ، كما أشرنا من قبل ، سبعة عشر من فقهاء العرب وقرائهم (2) فأحيا بذلك سنة عقبة الذي لم تخف عليه ميزة التعليم ، والتبشير بالدين ، فترك بين البربر بعض اصحابه أشهرهم شاكر ، وبرهن موسى بهذا العمل على أنه شديد الاهتمام بالثقافة وبنشر الاسلام بين البربر كما برهن باسناده القيادة الى طارق البربرى على سعة أفق وحكمة سياسية ظهرت بعض نتائجها الطيبة في الجموع الغفيرة من البربر الذين توافدوا على طارق ، وهو في موضع رباطه ، يرغبون الانضمام ، الى المرابطين واحتضان مباديء الاسلام والاغتراف من مناهل الثقافة الاسلامية ، ومن ثم نرى بعض المصادر التاريخية تروى ان قوة طارق في طنجة ، بلغت اثنى عشر الفا من البربر ، وسبعة عشر ألفا من العرب (3) .

ويظهر ان موسى حاول فتح مدينة سبتة كما أشرنا ، فلما استعصت عليه لحصانتها الطبيعية والصناعية ومساعدة ملوك القوط لحاكمها الذي كان رغم ولائه للبيزنطيين شديد الصلة باسبانيا ، تراجع عنها وكلف نائبه في طنجة بممارسة الضغط عليها حتى تخضع ، وعند ما لم تنجح خطط طارق في النيل منها حربيا ، مال الى مسالمة حاكمها ، وملاطفته الى حين .

وباستيلاء المسلمين على طنجة قاعدة بلاد المغرب الاقصى وتحويلها الى رباط عسكري ومدرسة كبري للتعليم الديني يكتمل فتح المغرب الاقصى ويعود موسى بن نصير الى قاعدة القيروان في افريقية . والمصادر التاريخية في حديثها عن موسى بن نصير تسجل ، أنه أرسل عند عودته بشرا من أصحابه الى قلعة مجانة على ثلاثة أيام من القيروان فأخذها بعد أن سبي وجمع كثيرا من أموالها ، وأصبحت تسمى في التاريخ منذ ذلك الوقت (قلعة بشر) (4) ، وانه أول من نزل طنجة من ولاة الفتح ، وأول

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 275 .

(2) ينقل حسن حسني عبد الوهاب ان موسى ترك سبعين رجلا لهذه المهمة دون أن يذكر اسم مصدره (ورقات ج 1 ص 78) .

(3) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 36 ـ 37 .

(4) ابن عبد الحكم ص 276 (ينسب ابن عبد الحكم العمل الى بسر بن أبي أرطاة ، وهو غير مقبول) ابن الاثير ج 4 ص 259 . وعن مجانة أو قلعة بشر أنظر : البكرى : المغرب : 145 الرقيق : المصدر السابق 70 .

قائد تطأ خيله أرض المصامدة بعد عقبة ، وان الفضل يعود اليه في اسلام أهل المغرب الاقصى ، وفي التمهيد لميلاد تجمع اسلامي في المغرب أظهر عناصره البربر المسلمون ، يسوده الوئام ، وتقوده أهداف مشتركة . وان اشتراك مسلمي البربر بأعداد هائلة ، مع العرب في المجهود الحربي في شبه جزيرة (ايبيريا) لدليل على وحدة الهدف والمصير ، وعلى مدى التمازج بين الجيين وعلى استقرار الاسلام نهائيا في بيئة المغرب ، وتمكنه من نفوس السكان لدرجة أن أصبحوا يضعون أنفسهم وقودا لنشر شعلته في الآفاق البعيدة . وأهمية فتح جبهة أخرى في الاندلس واشتراك المسلمين الجدد في نشاطها وأثر ذلك في نجاح الاسلام في المغرب واستقرار السيادة العربية فيه ، تظهر من خلال ما رواه ابن خلدون نقلا عن ابن أبي زيد القيرواني من « أن البربر أرتدوا عن الاسلام ، أثنتي عشرة مرة ، من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر الاسلام بينهم حتى أجاز موسى معه كثيرا من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد ، فأستقروا هناك ، فحينئذ أستقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » (1) .

6 ــ مشروع فتح الأندلس وأبعاده المختلفة

انتشر الاسلام بين البربر ، وتضخم عددرهائن طنجة وأشتدت حركة الانضمام الى مرابطيها فضاق المجال المغربي بجيش طارق وأصبح من الضروري دفع هذه الجموع المتحمسة ، الى ميدان جديد ، للمغامرة ، وللكسب ، ولاشباع الجانب الروحي ، ولمد السيادة العربية خارج اطار افريقية ، وبينما تجمع مصادر الفتح ، على أن موسى أمير الجيش كان يقيم في القيروان ، عندما وفد عليه حاكم سبتة وربما أبناء الملك القوطي (غيطشة) (2) أيضا تتردد بالنسبة للمكان الذي كان يقيم فيه طارق مع جارّيته أم حكيم ، عند ما بدأت الاتصالات الاولى بينه وبين حاكم سبتة والجزيرة الخضراء ، تلك التي مهدت لفتح الاندلس . فأغلب مصادر الفتح يجمع على أن طارقا كان في طنجة وأقلها يذكر أن مستقره ، كان في مدينة تلمسان (3)

(1) كتاب العبر ج 6 ص 110 وليس المقصود من الردة معناها الديني بل الثورة السياسية والاشتراك في الفتن وإثارة الاضطراب ضد القادة والولاة . أنظر : السلاوي : الاستقصاء 1 ، 46 .

(2) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص 30 .

(3) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 277 ، أنظر : سعد زغلول تاريخ المغرب 218 ـ 219 .

التي تقع على هوامش المغرب الاوسط ، وعلى امتداد أراضي ولاية طنجة القديمة لان المؤرخين عندما يذكرون طنجة انما يقصدون الولاية التي تمتد مسيرة شهر وتشمل مدينتي سبتة وطنجة وأحوازها لا مجرد المدينة (1) ، وابن عذاري في روايته عن ابن القطان يجعل طارق في منطقة الصحراء على مقربة من موضع « سجلماسة » لانه يضيف « ان سلا وفاس وطنجة وسبتة كانت للنصاري » (2) والرأي الذي نميل اليه لموافقته لمنطق الحوادث هو الذي يجعل طارق قريبا من الميدان الاندلسي ومن صاحب سبتة سواء أكان بطنجة أو بمدينة أخرى قريبة منها على ساحلها أو على امتداد أراضي الولاية في الداخل ، وقد لاحظنا من قبل نشاطا عسكريا لطارق ضد سبتة والتجاءه الى أسلوب السياسة والمهاداة مع حاكمها ، عندما لم يستطع النيل منها .
وقد بادله يوليان ودا بود ، ولاطفه بدء كي يحتفظ بولايته مستقلة عن النفوذ العربي ، وما لبث هذا الحاكم ، تحت ضغط الاحداث الداخليةفي اسبانيا ورغبته في مساعدة أسرة (غيطشة) لاسترداد حقهم في العرش من مغتصبه (لذريق) ، الدخيل ، الذي قد يكون قد أساء الى حاكم سبتة بالاعتداء على شرف ابنته (فلورندا) ما لبث الامر بين يوليان ، وطارق أن تطور فأصبح قبولا للطاعة وتحالفا وثيقا ، وعرض حدمات حربية ضد نظام (لذريق) في اسبانيا (3) وما سبق ذكره هو الذي حمل يوليان الامير القوطي المسيحي على أن يكون عينا للعرب على بني نحلته وجنسه فأرسل الى طارق يزجي اليه بشرى « أني مدخلك الاندلس » وربما وفد على موسى بن نصير في القيروان وشرح له ما ينوي تقديمة من مساعدة غير مشروطة للعرب (4) .

ولماكان مشروع نقل النشاط العسكري الى أوربا مشروعا خطيرا يتطلب مشورة ودراسة ، فقد اتصل طارق بمولاه في القيروان للمشورة واتصل هذا الاخير بدوره بالخليفة للاستئناس برأيه فيما عرض حاكم سبتة على المسلمين ، ولم يهمل في

(1) البكري : المغرب في بلاد افريقية والمغرب ص 108 (ويذكر انها تسمى بالبربريه وليلى ، ويسميها طنجة البيضاء ، وكانت قاعدة ملوك المغرب وآخربلاد افريقية غربا تبعد عن قاعدة القيروان بألف ميل) .

(2) لبيان المغرب ج 1 ص 40 .

(3) هو رودريجو الذي تولى عرش اسبانيا سنة 709 م وترسمه اغلب مراجع الفترة لذريق عدا الطبري الذي يسميه (اذرينوق) وينسبه الى اصفهان ، وابن الاثير الذي يسميه (اذريق) ج 4 ص 267 - 269 .

(4) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 277 .

تقريره للخليفة مسألة تهوين المشروع واظهار سهولته ليوافق الخليفة وحتى عندما خشي الوليد على المسلمين من ركوب البحر وحث على خوض ميدان الاندلس بالسرايا ، والبعوث الاستطلاعية أزال موسى أسباب تخوفه بقوله « انه ليس ببحر متسع وانما هو خليج يبين ما وراءه » .

ولأصرار الخليفة على مبدأ التدرج في العمل محافظة على المسلمين انتدب موسى للعمل الكشفي التهميدي أبا زرعة طريفا بن مالك المعافري (1) وجعله على راس طالعة حملت رجالها من طنجة سنة 91 ه . أربع سفن كانت على ملك حاكم سبتة ، الى ساحل اسبانيا ، وبمساعدة أعوان حاكم سبتة ، واقرباء (غيطشة) نزل رئيس الطالعة ورجاله ، في مكان بلدة ، وجزيرة طريف فيما بعد . ومن هذا المكان قام رجال الطالعة بسلسلة من الإغارات الموفقة التي أمتدت حتى الجزيرة الخضراء . وقد دفع التوفيق الذي صادفته الطالعة وكثرة المغانم التي وصل جانب مهم منها الى القيروان ، الناس الى التطوع للجهاد ، في هذا الميدان البكر حبا في الغنيمة والكسب ، وأنبعث الارتياح عند موسى ، فأخذ يجهز حملة كبرى ، لتبدأ عملية الفتح الحقيقي ، ووقع اختياره هذه المرة على مولاه طارق الذي تتحدث المصادر عن رباطه وبأسه في فتح ماأستعصى من قلاع الاندلس ، ولكنها تختلف اختلافا شديدا حول نسبه .

7 — نسب طارق

تذكر بعض النصوص التاريخية أن طارق كان فارسيا همذانيا وبعضها ينسبه الى الصدف (2) ويؤكد ابن عذارى نسبته الى قبيلة نفزة البترية وولاءه لموسى بن نصير ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم ... بن ولهاص بن يطومت بن نفزاو (3) ويقتصر ابن خلدون على القول بانه طارق بن زياد الليثى (4) ، وعليه اعتمد

---

(1) نسبة الى معافر وهو أبو حي من أحياء اليمن .

(2) المقرى : نفح الطيب ج 1 ص 238 (مصر 1949) م والصدف ينتسبون الى مالك بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم . واكثرهم بالمغرب ومصر . وطارق ينتسب اليهم أصلا ، أو عن طريق الولاء (هامش نفح الطيب ص 224).

(3) البيان المغرب ج 1 ص 37 .

(4) أى بالولاء ، فهو اذا مولى لقبيلة ليث ، مثل يحيي بن وسلاس

صاحب الإستقصاء ، ويبدوا أن الارجح بين هذه الآراء بأن طارق من طبقة الموالي الجدد فهو ليس بعربي ، ولا بفارسي ، وانما هو مزيج اختلطت فيه العادات والمثل العربية مع الدم البربرى . ويظهر ان اباه قد اسلم منذ زمن طويل واندمج مع العرب ولما مات انضم ابنه منذ البداية الى صف المسلمهن على صغر سنه واذا صحت اشارة ابن عبد الحكم فان طارق استهل حياته السياسية واليا على منطقة انطابلس (برقة) بعد ان استشهد زهير بن قيس على ساحل درنة (1) غير انه لم يلبث طويلا في هذا المنصب وانضم الى جيش موسى بن نصير ولما ظهرت براعته في الحرب وشجاعته عند اللقاء ، جعله موسى على مقدمات جيشه وقربه اليه وجعله بعد فتح طنجة واليا عليها ، ومن طنجة أقحمه ميدانا جديدا هوسبب ما تمتع به من شهرة حربية على مدى التاريخ .

8 — فتح الأندلس نتيجة طبيعية لاتمام فتح المغرب

ومع آن بعض المؤرخين يجعل من مشروع فتح الاندلس مجالا لمادة قصصية خصبة ومثيرة في نفس الوقت ترتكز على ثورة لذريق واغتصابه عرش اسبانيا من غيطشة ونشوء معارضة قوية لحكم لوذريق من ابناء الملك السابق وأعوانه ، ومنهم الكونت (جوليان) صاحب سبتة والجزيرة الذي أثاره حادث ابنته - فلورندة - مع لوذريق وحمله نهائيا على الاستنصار بالعرب واظهار استعداده لمساعدتهم ، ماديا ومعنويا عل العمل المادي ضد النظام السياسي في اسبانيا ، فان المؤكد ان فتح الاندلس جاء نتيجة طبيعية لأتمام فتح المغرب وكثرة عدد مرابطي طنجة من مسلمي البربر وبقائهم بدون نشاط ورغبتهم في تجربة حظهم الى جانب اخوانهم العرب في ميدان الفتوح العسكرية والثقافية ووجدوا في شخصية طارق - وهو منهم - الرجل الذي يستطيع ان يفجر طاقاتهم الحربية ويقودهم الى ميادين النصر ، وان الاسلوب الحربي الذي انتهجه العرب في الاندلس لا يكاد يختلف عن اسلوبهم الذي مارسوه في المغرب وفي غيره من البلدان المفتوحة ، فالفتح الدائم بجيوش ضاربة يجيء تاليا لعمليات استطلاعية تقل او تكثر حسب ظروف الاقليم ومقاومة السكان .

---

(1) فتوح مصر والمغرب ص 273 .

ويستنتج بعض المؤرخين — لاسيما الاسبان — من طبيعة العلاقة بين طارق ويوليان ، ان المسلمين لم تكن لديهم خطة ثابتة للفتح بقصد الاستقرار ، ولم يكن من بين أغراضهم أن ينشروا الاسلام بين سكانه ، وانما كانوا في نظرهم مجرد طلاب غنيمة وهواة استطلاع وسبي وقد رضوا أن يكونوا أجورين وأداة طيعة في ايدي لوذريق . وربما يؤيد هذه الشبهة لاول وهلة ، ضآلة عدد الجيش الذي صحب طارق في حملته الكبرى (1) ثم ما فاه به أبناء غيطشة - أمام رجالهم وانصارهم « ان المسلمين اذا امتلات أيديهم من الغنيمة عادوا الى بلادهم وبقي الملك لنا » (2) غير ان هؤلاء المؤرخين يؤكدون أن الاستراتيجية الاسلامية تغيرت فجاة ، بعد معركة وادي لكة (شريش) الحاسمة في رمضان 92 هـ - جويلية 711 م التي انتصر فيها المسلمون على القوط واصبحت مؤسسة على الانسياح في أرض أسبانيا واخضاعها وضمها الى ولاية افريقية والحاقها بسلطان الخلافة الاسلامية والعمل على نشر اللغة والاسلام بين سكانها .

ويستند أصحاب هذه الشبهة الى ما شاع يومئذ من معاملة قاسية تعرض لها طارق بن زياد من طرف موسى بن نصير حسدا أو بسبب خروجه عما رسمه له وايغاله في الفتوح ، بيد أن أصحاب هذه الشبهة يتمسكون بظواهر الامور ، ويتجاهلون مسؤولية موسى على أرواح جنوده فيما لو قطعت خطوط الرجعة عنهم من طرف اعدائهم المتربصين ، ويتناسون ما جرى عليه العرب في فتوحهم من التزام جانبي التدرج والحذر ، ومحاولاتهم الكثيرة لاقتحام سبتة المعبر الحقيقي لارض اسبانيا . ولا يلاحظون ما التزمه طارق مع صاحب سبتة من سياسة المصانعة وارخاء الحبل وحسن الجوار ، تلك التي ارتاح لها يوليان ما دامت تضمن له الاستقلال في امارته ، ورغم ان المصادر المعاصرة لا تفيدنا بشيء الا اننا نستبعد أن يكون حاكم سبتة قد شرط على العرب ان يبقوه في أمارته مستقلا نظير ما يقدمه لهم من مساعدات قيمة في مشروع فتح

(1) بلغ عدد جيش طارق : عشرة آلاف من البربر وثلاثمائة من العرب (السلاوى ج 1 ص 45) . وعند ابن الاثير سبعة آلاف ج 4 ص 269 . وعند ابن عبد الحكم : ألفا وسبعمائة ص 275 . ومثل هذا العدد في ابن قتيبة ج 2 ص 73 .

(2) ابن الاثير : الكامل ج 4 ص 270 .

ولا يلتفت أصحاب هذه الشبهة لا الى توثق طارق بن زياد وموسى بن نصير من يوليان - بأخذ بعض أبنائه رهائن عندهما ، ولا الى الاتصالات الكثيرة التي وقعت بين الخليفة وواليه على افريقية ، وبين هذا الاخير وعامله على طنجة ، وبين عامل طنجة والكونت جوليان الذي ربما سافر الى القيروان وهي اتصالات هامة حدد اثناءها أسلوب الفتح ونوع مساهمة جوليان ورجال المعارضة ، مع العرب الفاتحين .

ولو أن المسلمين كان هدفهم الوحيد الغنيمة والاسلاب لما ساروا سواء بقيادة طارق ، أو بقيادة موسى بعد ذلك سيرا حذرا ومنظما ينقلهم من مدينة الى أخرى ولكان في أمكانهم ان يشبعوا نهمهم الى الاموال والسبايا من مدينة واحدة أواثنتين ثم يعودوا الى ثغر افريقية ، وفي مجال التنظيم وملازمة الحذر نلاحظ أن الخليفة الوليد عندما سمع ان موسى يريد أن يتوغل في أوربا مقاتلا وداعيا للاسلام حتى يطبق على القسطنطينية التي كانت قد استعصت على الفاتحين العرب منذ عصر معاوية (1) . ومنها ينفذ الى دار الخلافة في الشام — اشتد قلقه على المسلمين بدار الحرب ووقر في نفسه ان ما اعتزم موسى أن يقوم به بعيدا عن قواعد تموينه وامداده مجرد مغامرة جنونية نتيجتها الفشل وارسل اليه يلومه ويستقدمه وكلف الرسول بمباشرة الجلاء بالمسلمين اذا تمنع موسى بن نصير عن القبول (2) . ولما كانت أوامر الخليفة صريحة في وضع حد لنشاط موسى في الاندلس ولولايته على افريقية ، فقد ماطل قليلا في تنفيذها لكنه لم يستطيع مقاومتها — وعند ما عزم على الرحيل عن الاندلس عين بوصفه واليا على افريقية عبد العزيز — ابنه — واليا عليها يحكم أطرافها من قرطبة وأصبحت الاندلس منذ ذلك الحين — جزءا تابعا تبعية مباشرة لولاية افريقية فيقوم والى القيروان — بتعيين والي الاندلس ممن ظهرت كفاءتهم الحربية أوكانوا ذوي عصبية قوية . واستمر الوضع على هذا النحو حتى نجح عبد الرحمن بن معاوية في غمرة الحروب القبلية وبمساعدة البربر في استخلاص الاندلس وفصله عن ولاية افريقية ، وعن سيادة الخلافة الاسلامية في بغداد سنة 138 هـ ، والذي يلفت النظر ويبعث على الاعجاب في قصة الفتح :

---

(1) السلاوى : المرجع السابق 1 ، 45 .

(2) السلاوى : المرجع السابق 1 ، 45 .

أ) السرعة الخاطفة التي تم بها ، والمعارك الحاسمة التي كسبها المسلمون عند وادي لكة ، وقرطبة ، وطليطلة .

ب) امتدت الحركة الاسلامية ، ومظاهر الثقافة ، لاول مرة الى الارض الكبيرة (اوربا) ونشأت بفضل ذلك حضارة راقية تعتبر فخرا للامة العربية .

ج) امتزج العرب والبربر والايبريون في أمة واحدة بفضل الاسلام ، والجهاد ، والمصاهرة ، والولاء ، وقادتهم اهداف واحدة تتمثل في اعلاء كلمة الاسلام .

د) وقع المجهود الحربي في الميدان الاندلسي ، على عاتق البربر المسلمين الذين جعلهم الاسلام ، وتسامح القادة العرب وسعة افقهم السياسي ، في منزلة واحدة مع العرب المسلمين ، فاكتشفوا ذاتيتهم الجديدة وتبينوا أهمية دورهم ، ومن ثم بدأ نفوذهم يقوى وطموحهم يتسع .

هـ) سياسة اصطناع الرجال واكتساب الاهلين سواء في افريقية او في الاندلس واشعارهم بأهميتهم في وطنهم ومساعدتهم على تسيير شؤون الحكم والقيادة التي جعلت التجاوب بين العرب والسكان قويا ، والاندماج سهلا ، والنشاط الثقافي خصبا وبناء

وقد وضع اللبنة الاولى لهذه السياسة رجل من الموالى هو دينار واكمل بناءها ورعاها عربي من غسان ، هو حسان ، وطبقها بصدق واخلاص ، وعلى اوسع نطاق ، عربي آخر ، من لخم ، هو موسى بن نصير .

9 — رجوع موسى بن نصير إلى المشرق ونكبته

خرج موسى من الأندلس لما أساء الخليفة الظن به وألح في قدومه وترك بعد خروجه — عبد العزيز — ابنه في قرطبة والياعلى البلاد تساعده حامية عربية وزعت على ثغور الاندلس ، وبعض اقرباء عقبة بن نافع وأصطحب معه مولاه طارق في خروجه الى افريقية أما الغنائم فشحنت في مراكب الى طنجة ومنها حملت على عربات كثيرة ، الى القيروان . أما السبايا فقد بلغت حدا من الكثرة ، جعلت الليث بن سعيد يقول : « لم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام » (1) .

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ج1 ص 38 . ويذكر السلاوي ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي : الإستقصاء ج 1 ص 45 .

وفي طنجة ترك آحد أبنائه ــ ربما عبد الملك ــ عاملا على آقليمها وتوجه نحو افريقية فلم يدخل مدينة القيروان وعسكر بجوارها ــ في مكان يسميه ابن عبد الحكم وابن عذاري (قصر الماء) وقد صادف حلوله بالمكان موسم عيد الأضحى ، فقام بما هو مسنون في هذه المناسبة الاسلامية وفي معسكره تقاطرت عليه وفود العرب للتهنئة والتوديع فنالهم من كرمه ما ادهشهم ، وبينما سافر بعض الجند معه الى الشرق استبقى بعضا منهم الى جانب اكبر أولاده ــ عبدالله ــ الذي عينه واليا على افريقية . واما مولاه طارق وابناه عبد الاعلى ومروان فقد صحبهم الى الشرق ، وتضمن موكبه بعض أشراف العرب ووجوه البربر والامراء والاشراف وحكام جزر البليار . وفي الفسطاط وكان عاملها يومئذ قرة بن شريك ، غمر موسى بكرمه العلماء والاشراف وابناء ولي نعمته عبد العزيز بن مروان ، وفي فلسطين آجزل العطاء لآل روح بن زنباع وترك عندهم بعض آهله ، وكان محل حفاوة كاملة من طرفهم ، وفي طريقه الى دمشق اتاه كتابان متناقضان احدهما من الوليد يحثه على الاسراع في القدوم ، والآخر من آخيه وولي عهده سليمان يأمره بالتباطؤ في السير وهدف الرجلين معا الغنائم والسبايا والتحف ، فلم يلتفت الى سليمان ، وأغذ في السير حتى ادرك الوليد قبل وفاته بثلاثة أيام (1) ، وربما لهذا السبب استهل سليمان عهده بنكبة موسى بن نصير فعذبه وقاضاه واستصفى امواله وسلبه مواليه ثم آمر واليه على افريقية بتتبع ابنائه وآله ولم تهنأ نفسه الا بعد ان قلم أظافرهم فقتل عبد الله والحق به أخوه عبد العزيز واستأصل جانبا كبيرا من مواليه وكل من ثبتت عليه صلة بآل موسى وقد آشار ابن عذاري الى آن صنيع سليمان بموسى وبنيه وقد كانت له سابقة في الفتح وفي نصر لاسلام من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه (2) .

وقصة النكبة بكل تفاصيلها ومراحلها بسطها بإفاضة ابن قتيبة الدينوري في كتابه «الامامة والسياسة» ، والمصادر التاريخية تختلف حول الاسباب الحقيقية لغضبة سليمان فيذكر بعضها اهمال موسى بن نصير لأمر سليمان بضرورة التأخر في دخول دمشق ، حتى لا تفوت الغنائم عليه ، هذا الى آن موسى وهو التابعي والمظفر في الحروب ، لم يخل من

---

(1) الرقيق القيروان : تاريخ افريقية والمغرب ص 88 ــ 89 السلاوي . الاستقصاء 1 ، 46 .

(2) البيان المغرب ج 1 ص 45 ــ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص 9 ، السلاوي . المرجع السابق 1 ، 46 .

نقيصتي الحسد والغيرة فأهان مولاه طارق مع تواضعه وبلائه في الحروب وتفانيه في خدمته . ومنها أن سليمان سمع عن طريق صاحب المقاسم في جيش ابن نصير أنه تصرف في الاموال بحرية ولم يخرج الخمس ، ولا قسم المغانم على الجند ، ولذلك غضب سليمان وصادر جميع الغنائم وأدخلها بيت المال . ويظهر ان السبب الوجيه لذلك رغبة سليمان في الضرب على أيدي القادة الطموحين من انصار اخيه مثل قتيبة بن مسلم وموسى لانه تبين له انهم يعتزون بماضيهم العسكري وبشخصياتهم وعدد مواليهم ، حتى يأمن على نفسه من انتقاضهم عليه في النواحي القاصية ، ومن يتأمل جيدا المحاورة التي جرت بين موسى وهو في محنته ، وبين يزيد بن الملهب يدرك سر تصرف سليمان ، فقد قال يزيد لموسى : يا أبا عبد الرحمن في كم كنت تعتد انت واهل بيتك من الموالي والخدم .. أتكونون في ألف قال نعم ، وألف ألف .. قال : فلم ألقيت بيدك الى التهلكة ، أفــلا أقمت في قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو اردت ذلك ، ما نالوا من أطرافي شيئا ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج عن الطاعة (1) .

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 42 .

الباب الرابع

الوضعية الادارية للمغرب الاسلامي بعد انتهاء الفتوح

1 — مراحل نشأة الولاية الجديدة ، ونشاط ولاتها

يبدو طبيعيا بعد اتمام عملية فتح المغرب ، والقضاء على آثار المقاومة البيزنطية البربرية فيه ، وعلى ما كان يسمى في نظم البيزنطيين (آرخونية افريقية) ان تقع محاولة تنظيم هذه الاراضي تنظيما جديدا ، وان يتمخض عن هذا المجهود الحربي الطويل نتاج جديد ، هو الذي أصبح يعرف في نظم المسلمين (**ولاية افريقية**).

فكيف ظهرت هذه الولاية ، وما مراحل تكوينها ؟

يظهر لي أن ذلك مر بمراحل ، وعرف تطورات ، وقد انتهت أولى هذه المراحل عقب انسحاب ابن أبي سرح ، اثر معركة **سبيطلة** ، لقاء مبلغ ضخم من الأموال دون ان يطالب بحقوق ثابتة للعرب في افريقية ، مثل الولاء ، أو دفع الجزية سنويا ، ودون أن يؤسس ما من شأنه ان يذكر بنشاطه ، أو يسهل المجهود الحربي على من يخلفه . ولو كان لابن أبي سرح نية في استقرار العرب ، ومد سيادة الاسلام على هذه البيئة لكان في امكانه ان يفعل الكثير ، ولوكان له بعد نظر القائد الذي يدفعه الى المعركة هدف ثابت ، لانقض بعد المعركة مباشرة على رأس الافعى ، قرطاجنة ، التي كانت دون قائد يحميها ، ولو فعل ذلك ، لظهرت (ولاية افريقية الاسلامية) منذ زمن مبكر ، ودون خسائر تذكر ، اما وقد انعدمت الخطة المحكمة ، في مشروع حملة ابن أبي سرح وبهره بريق الذهب فلوى عنان فرسه تجاه الفسطاط ، فان هذه الولاية ستتأخر في الظهور.

وكانت المرحلة الثانية هي التي انتهت بعبور جيش من البربر الى عدوة الأندلس .

وفي هذه المرحلة ، تغيرت نظرة العرب ، نحو أهداف الفتح في المنطقة وبانت ملامح سياسة الاستقرار والاستيطان ، في سلوك معاوية بن حديج ، الذي بني لأول مرة معسكرا ثابتا ، بجوار (القرن) في اقليم (قمونية) ، وحفر آبارا ، فمهد بذلك لعقبة كي يبني قاعدة القيروان ، قرب المعسكر السابق ، وفي نفس الاقليم ، وكان عقبة اقدم المسلمين عهدا بهذه البلاد ، واعرفهم بأحوالها ، وطبائع أهلها ، واشدهم تعلقا بنشر الاسلام ، والتبشير به ، واكثرهم زهدا في المكاسب المادية ، والانتصارات الجوفاء ، ولهذا لم تكد شؤون الفتح تسند اليه ، حتى وضع خطة ، محكمة تنبني على ضرورة

انشاء مدينة للمسلمين ، تكون معسكرا ، «وعزا للاسلام ، الى آخر الدهر» ، منها يخرج المسلمون للغزو ، واليها ، لا الى برقة ، أو الفسطاط ، يلجأون ، اذا ما حز بهم امر ما .. وعند قيام المدينة بمسجدها الجامع ودار امارتها ، واسواقها ، **وخططها** ، بدأت ملامح **الولاية الجديدة تظهر الى الوجود ، واصبحت نقطة جذب ، للبربر ، المجاورين ومركزا للتيارات** الاسلامية المشعة ، ولن ينال من خطة عقبة هجر خلفه (دينار) لمدينته أو هدمها لدوافع شخصية ، مادام قد ادرك هذا الخلف نفسه اهمية «قاعدة الارتكاز» فبني بجوارها قرية (تاكيروان) التي يظن انها من تحريف البربر في نطقهم لكلمة (القيروان) كقاعدة اسلامية جديدة ، تقوم مقام القيروان ، وتمتاز عنها بكونها قامت على أساس انسجام في الرأي بين الوالي الجديد ، وسكان المنطقة ، من البربر المسلمين .

ودينار هو أول من وضع قاعدة التحالف العربي — البربري ضد العنصر الدخيل ، الروم واتباعهم الافارقة ، وعلى أساس هذا التحالف دخل المغرب الأوسط واوغل فيه حتى تلمسان ، وهاجم قرطاجنة هجوما قويا ، ورفض العروض المادية ، ولم يعدل عن فتحها مؤقتا ، الا مقابل تنازل الروم له عن شبه جزيرة (شريك) التي يوجد في منطقتها (حمام الانف) ، فاحتلها بقوة من رجاله ، وابقى فيها عاملا مسلما . وغدت فيما بعد بالنسبة **لقرطاجنة عاصمة الولاية ـ كالقذى في العين ، والشجَى في الحلق ، وموقف دينار يوضح** الى أي حد تغيرت ، استراتيجية العرب ، في هذه الفترة ، فاصبحوا لا يطلبون من افريقية المال ، ثم الانسحاب ، انما اضحوا يحرصون على الحصول على نقط ارتكاز ، **وحقوق** سياسة ثابتة .

ولو ان عقبة اثناء حملته **الكبرى**، ترفق بنفسه ، وبالمسلمين وكان في حذر القائد الذي لا تغره الانتصارات ، لا في حماس المبشر ، الذي يتفانى ، ويقدم دون اعتبار للاخطار ، لما وقعت كارثة تهودة (64 هـ) التي قضت على مكاسب المسلمين وتطلبت **منهم جهدا مضاعفا ، لارجاعها ، وشلت حركة الولاية الناشئة ، وجعلتها تعيش في غمرة من الاضطراب والفوضى ، مدة خمس سنين .**

واثر معركة (ممس) التي كانت ثأرا لكارثة (تهودة) قويت الروح المعنوية لدى المسلمين ، وانتعشت حاضرة الولاية ، وكان يمكن ان يستمر هذا الارتياح النفسي ، وهذا الانتعاش ، لولا انسحاب زهير بطل (ممس) في حركة خاطفة عائدا الى الفسطاط ، حيث لقي حتفه في ساحل برقة على أيدي الروم .

ويبدو أن هؤلاء قد انبعثت آمالهم في العودة من جديد ، الى الميدان الافريقي ، وفي تصفية بقايا المسلمين فيه ، لان المصادر تشير الى مساعدات هامة قدمها الامبراطور (ليونتيوس) لسكان قرطاجنة النصارى .

واصبح لزاما على خلف زهير ، ان يحبط مساعي الروم ، ويصفى قاعدة ارتكازهم ، في المنطقة ، لكي تستعيد الولاية الناشئة حياتها ، ونشاطها ، وتطلعها الى التوسع ، في المنطقة ، ولكي تستجمع (خصائص الولاية) واهمها حاضرة آمنة ، ووال يدبر أمورها ، ورعايا موالون ، وأراضي تابعة .

ولم يتوان حسان في تحقيق هذه الأهداف . فصفى قاعدة الارتكاز البيزنطية ، وطبعها بطابع اسلامي ، وترك بجوارها جنودا مرابطين ، ثم بنى بجوارها مدينة اسلامية ، وحولها الى قاعدة بحرية ، واختص عاصمة الولاية باهتمام كبير ، فجدد مسجدها ، ووسع عمرانها ، وشجع حركة الهجرة ، والتعمير ، حتى بدت في مقام لائق بعواصم الولايات الاسلامية ، واقام فيها ، ومنها جهزت البعوث . واليها كانت ترد الصدقات ، واموال الخراج ، ويأتي عمال النواحي لأخذ التوجيهات من واليها ، ويؤمها الناس للفتوى ، وللتقاضي ، لانها أصبحت مقر القضاة .

وقد لاحظنا ان موسى بن نصير رسم خطته في الفتح ، في القيروان ، ومنها بث سراياه ، في النواحي . ومنها خرج لفتح المغرب الاقصى ثم الاندلس .

ويمكن القول بان عبور طارق الى الاندلس ، ونهاية اعمال ابن نصير ورجوعه الى المشرق ، تحدد نهاية مراحل التكوين للولاية الجديدة ، التي اعقبتها مرحلة تميزت فيها الولاية ، بالاستقرار ، الذي مكنها من ممارسة نشاط تبشيري ، بين بقايا البربر ، الوثنيين ، أو النصارى ، لقد كان هذا من نصيب ، أغلب ولاة افريقية الاسلامية بعد رحيل موسى بن نصير .

فنعم محمد بن يزيد القرشي ، أول ولاة افريقية الاسلامية ، بالمعنى الصحيح ، بالاستقرار والهدوء ، وعمل على بعث الوئام ، والألفة بين المتساكنين بالتزام ، طريق الحق والعدل ، والمساواة بين المسلمين ، كما أوصاه الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ومثله اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي اعتمد على ثقة عمر بن عبد العزيز ، وتأييده ، والتفويض له ، في شؤون افريقية العامة ، في القيام بنشاط ، تبشيري ، واسع النطاق ،

تمثل في دعوة البربر الى الاسلام ، وترغيبهم فيه ، وفي جلب العلماء ، واولي الرأي من المشرق الى المغرب ، ليبثوا العلم الصحيح ، وينشطوا الحياة الثقافية في البيئة الجديدة ، ولقد شارك ، هذا الوالي علماء المشرق ، في بعث نشاط ديني ، وحياة ثقافية ، وحركة عمرانية ، في الكتاتيب والمساجد ، التي تباروا في انشائها ، لتتوفر على خدمة الدين ، والثقافة ، وكانت نتيجة هذه الاعمال باهرة ، فقد أقبل البربر على الاسلام جملة عندما ادركوا انه يرفع عنهم الجزية ، ويمتعهم بأراضيهم ، ويسمح لهم بالاشتراك في الجيش ، وفي ممارسة القيادة وبالظفر بالمواطنة . وقد انقلبت الوضعية العامة ، وحصل رد فعل عنيف اثر عزل اسماعيل بن عبيد الله ، وولاية يزيد أبن أبي مسلم ، مكانه ، وكان هذا الاخير من اتباع الحجاج ، ومن المعجبين بنهجه في الحكم ، والادارة ، خاصة في معاملة الموالي . (1)

وكانت المشكلة المالية التي حاول عمر بن عبد العزيز ، أن يجد لها حلا معقولا ، هي الصخرة التي تحطمت عليها فكرة ، المساواة بين العرب ، والموالي ، في مشرق الدولة الاسلامية ، وفي مغربها ، وحصل هناك من الانتفاضات ، وردود الفعل ، ما حصل هنا في بيئة المغرب .

ذلك ان محاولة يزيد بن أبي مسلم ، تطبيق خطوط سياسة الحجاج ، في الناحية المالية ، في افريقية ، وعزمه على تمييز حرس الولاة ، من البربر ، البتر ، بكتابة اسمائهم واوصافهم كحراس ، على أيديهم ، احدثا اثرا نفسيا ، لدى مسلمى البربر واساءا ، الى مشاعرهم ، فتآمروا عليه ، وقتلوه ليلا ، في مسجد القيروان ، (اني رأيت أن أرسم اسم حرسى ، في أيديهم ، كما تصنع ملوك الروم ، بحرسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يسراه ، حرسى ليعرفوا بذلك ، من بين سائر الناس) (2) . وعرضوا الولاية على المغيرة ، بن أبي بردة فأباها حتى لا يتهم ، بالاشتراك ، في المؤامرة او تعففا عن المسؤولية ، فتحولوا عنه الى قائد الاسطول محمد بن أوس الانصاري الذي كان قد رجع لحينه ،

(1) وعن احتمال انتحاله لنزعة الخوارج ، أنظر المبرد : الكامل «أخبار الخوارج ص 39 ، 49 وفيه ان الحجاج بن يوسف أتي بامرأة من الخوارج وفي مجلسه مولاه يزيد بن أبي مسلم ، فكلم الحجاج المرأة ، فأعرضت عنه فقال لها يزيد : الامير ويلك يكلمك ! فقالت : بل الويل والله لك يافاسق الردي ، والردي عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه . »

(2) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 289 — ابن عذاري ج 1 ص 46 .

من نشاطه الثغري في صقلية ، منتصرا غانما ، فقبل المسؤولية لكنه عرض الامر على الخليفة ، في دمشق ، بواسطة رسوله خالد بن عمران ، فوافق الخليفة ، مؤقتا ، وان انكر ان يتقدم الى هذا المنصب ، رجل غير قرشي ، عريق النسب (1) . وعندما هدأت الاوضاع وظهرت للخليفة ، اسباب تجرؤ الموالي على قتل ممثله في افريقية — عين واليه على مصر — بشرا بن صفوان — واليا على افريقية فقدمها سنة 103 هـ بعد ان استخلف على مصر اخاه حنظلة بن صفوان ، ويظهر ان الخليفة واجه من قبل ، العاصفة ، بهدوء ، اما الآن فقد زود واليه الجديد ، بتعليمات أغلب الظن ، انها دارت حول التحقيق في ظروف ، الحادث واسبابه ، وضرورة ، تتبع المتآمرين ، لأننا رأينا بشرا ، يبادر بمجرد حلوله بالقيروان بالكشف عن المتهمين ، وقد تمكن من قتل احد ابناء موسى بن نصير . يروي ابن عبد الحكم أنه عبد الله (2) ، بعد ان قامت الحجة على تورطه في الجريمة ، بشهادة خالد بن حبيب ، ومحمد بن أبي صفوان ، وشمل بعقابه الشديد كل من لهم صلة ببيت موسى بن نصير ، ولو لم تشر بعض المصادر ، الى نشاط ثغري قام به بشر في صقلية ، قبل وفاته لقلنا ان مهمة بشر كانت فقط تأديب المتآمرين ، حفظا لكرامة الخليفة ، ولسمعة الدولة ، ويعتبر بشر من أول ولاة افريقية ، الذين قربوا اهل العصبية ، واعتمدوا عليهم ، في ادارة الولاية فلما ولي بعده سنة 110 هـ عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، اشتد على موظفي الولاية من ذوي العصبية الكلبية ، **واضطهد** احد زعمائهم ، وهو (حسام بن ضرار الكلبي) ، واعتمد فقط على العصبية القيسية التي ينتمي اليها ، وكانت تتمتع في عاصمة الخلافة ، بمكانة سياسية مرموقة .

وتشير بعض المصادر الى مبلغ استياء الكلبية وغضب زعيمهم الذي صاغ ابياتا شعرية حماسية كانت ذات وقع كبير ، في بلاط الخليفة هشام (3) . وتربط بين اثر هذه الابيات ، وبين موافقة الخليفة بسرعة على رغبة عبيدة ابن عبد الرحمن في التخلي ، عن المسؤولية ، في افريقية ، وتعيين خلف له من نفس العصبية ، وهو عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث مولى بني سلول .

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 290 .

(2) ربما كان المقصود «عبد الملك» الذي ترك في طنجة ، وبقي مجهول المصير. أما عبد الله ، الذي تركه أبوه في القيروان ، فقد لقي حتفه على يد والي افريقية من طرف سليمان بن عبد الملك .

(3) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 50 .

ابتدأ هذا الرجل حياته السياسية في مصر فشغل وظيفة الكتابة ، ثم أصبح عامل خراج مصر ، وهذه وظيفة هامة لا يتولاها في الدولة ، الا من توفرت فيهم الخبرة ، وكانت لهم مكانة خاصة . وكان عامل الخراج يعتبر الرجل الثاني في الولاية ، وبسبب ما احرزه ، هذا الرجل من نجاح في مصر ، عينه الخليفة هشام ، واليا على افريقية ، فقدمها سنة 116 هـ بعد ان استخلف على خراج مصر ابنه ، القاسم ، وفي افريقية اعتمد اعتمادا كليا ، على ابنائه ، ومواليه ، وذوي العصبية القيسية ، خاصة اسرة عقبة بن نافع الفهري .

فعين على الاندلس عقبة بن الحجاج السلولي ، وعلى طنجة ، والمغرب الاقصى ، ابنه اسماعيل وجعل عمر بن عبد الله المرادي مساعدا له ، وارسل حبيبا بن أبي عبيدة الفهري ، على رأس حملة ، عسكرية ، الى السوس الاقصى « فبلغ السودان ، ورجع منه ظافرا » (1) ثم ارسله الى النشاط الثغري في صقلية فانتصر ايضا في اعماله (2) .
ويمكننا ان نحصر الخطوط العريضة لسياسة ولاة افريقية منذ رحيل ابن نصير ، الى نشوب الازمة الخارجية في المغرب الاقصى في جملة نقاط أهمها :

أ) تصفية الاسرات الكبيرة التي اشتهرت بماضيها وقدمها في المنطقة ، خاصة آل موسى بن نصير ، وآل عقبة ، وآل حديج ، وآل دينار.

ب) دأب أغلب الولاة على ارسال البعوث الى أقاصي المنطقة ، لمد سلطة الولاية ونشر الاسلام فيها .

ج) وقد التزم الولاة خاصة محمد بن يزيد ، بقانون الغنيمة أي التخميس ، وبسلوك سياسة العدل في الرعية ، والمساواة بين المسلمين في المغانم .

د) واعتمد هؤلاء الولاة ، منذ ولاية بشر بن صفوان على العصبية القبلية ، اعتمادا كبيرا ، لم يخل من نتائج سيئة .

هـ) زاول أغلب ولاة هذه الفترة ، نشاطا بحريا ، ضد صقلية ، وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط .

---

(1) يذكر ابن عبد الحكم ويؤيده ابن عذاري ان حبيبا أصاب في غزواته ، جاريتين من البربر « اجان » ليس لهما غير ثدي واحد — ابن عبد الحكم ص 293 — ابن عذاري ج 1 ص 51 .

(2) ابن عبد الحكم : نفس الجرء والصفحة — ابن عذاري : نفس الجزء الصفحة .

و) وامتاز من بين هؤلاء الولاة ، اسماعيل بن عبيد الله ، بحماسه الديني ، ونشاطه التبشيري ، والثقافي في بيئة المغرب.

2 — ولاة أفريقية

وقد مضى وقت طويل كان فيه ، ولاة الفتح في افريقية يأتون اما من الحجاز أو من مصر ، حتى عين حسان بن النعمان ، فكان اول الولاة الشاميين الذين خرجوا من دمشق ، اما آخرهم فهو كلثوم بن عياض القشيري . وكل من جاء من ولاة افريقية بين هاتين الفترتين ، غير محمد بن يزيد ، كان اما واليا ، على مصر ، أو قدمه للمسؤولية والي مصر ، أو شغل وظيفة عامل خراجها ، والحقيقة ان الخلفاء حرصوا منذ البدء على أن لا يلي شؤون افريقية ، الا من سبقت لهم ممارسة مسؤولية ادارية أو مالية في مصر ، نظرا لقربها من افريقية ، نسبيا ، ولتشابه الانظمة البيزنطية الموروثة ، في كلا الا قليمين ، ثم لوجود اقليات دينية متشابهة ايضا.

وبينما حرص خلفاء بني أمية ، على الصبغة العربية للدولة وللوظائف السامية في المشرق ، فاشترطوا في الوالي ان يكون عربيا ، وعريق النسب ايضا ، فأنهم تسامحوا نسبيا في هذه الناحية في ولاية المغرب الاسلامي فرأينا رجالا من طبقة الموالي يكلفون بوظائف هامة في افريقية ، فمسلمة بن مخلد ، يعين بدلا من عقبة القرشي — مولاه دينارا ، وعبد العزيز بن مروان ، يعزل حسانا ، العربي صريح النسب ويعوضه بموسى بن نصير الذي يكتنف نسبه العربي شيئ من الغموض ، وينابذ زهيرا ، ويسند امر برقة الى مولاه (تليد) ، وهذا حسان يترك بعد رحيله عن القيروان — مولاه أبا صالح ، نائبا عنه . وموسى بن نصير يولي طارقا ، مدينة طنجة.

ولا غرابة اذا قلنا ان بعض ولاة افريقية كانوا من طبقة الموالي مثل محمد بن يزيد ، القرشي بالولاء ، واسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي بالولاء ، وعبيد الله بن الحبحاب السلولي بالولاء.

ومع أن تكليف الموالي باهم المناصب في الادارة وفي الجيش غدا تقليدا متبعا فيما يخص افريقية بلد «الموالي» الا ان ذلك لم يمنع بعض خلفاء بني أمية ، من الاعتراض على تقديم من ليس بعربي ، صريح النسب ، فيزيد بن عبد الملك لاحظناه قد أنكر

اختيار (محمد بن أوس الانصاري) لولاية افريقية بعد قتل يزيد بن أبي مسلم ، والسبب عدم صراحة نسبه العربي ، وقال لخالد بن أبي عمران — رسول مسلمي افريقية اليه — : « اما كان بها قرشي » **فأجابه** الرسول : « بلى ، المغيرة بن أبي بردة » فرد عليه الخليفة : « قد عرفته فما له لم يقم ؟؟ » فأجاب الرسول : « أبي ذلك وأحب العزلة » (1) . وكان والي افريقية نائبا عن الخليفة في تسيير الادارة المدنية والعسكرية والدينية ، فهو رئيس الولاية ، وقائد الجيش ، وامام الصلاة . ولما كانت الادارة الاسلامية في العهود الاولى تعني خاصة بالادارة المالية ، فان **الخلفاء** ، اختصوها بموظف مستقل ، سموه « عامل الخراج » يقيم في افريقية أو يأتي من الشرق في المواسم ، وكان اهم مساعدي الوالي ، نظرا لاهمية الناحية المالية ، ويعمل جنبا الى جنب مع الوالي ، ويمثل دور الرقيب عليه ، مما ادى الى تنازعهما وقصر عهديهما في المسؤولية ، سواء في مشرق الدولة أو في مغربها (2) .

وقد تجمع الاختصاصات السابقة كلها بيد وال واحد يتمتع بثقة الخليفة كما **لاحظنا بالنسبة لأسماعيل بن عبيد الله (3) وهذا قليل في تاريخ الولايات الاسلامية،** في المشرق وفي المغرب .

وكان والي افريقية يقود الجيوش ، ويجهز البعوث للاقاصي ويقسم الغنائم بين المحاربين على قاعدة الاخماس ، ويصرف مرتبات الجند من بيت مال المسلمين (مال الولاية). ويعمل على نشر الاسلام ، والتبشير به ، وقد لاحظنا ان سلطة بعض ولاة افريقية كانت مطلقة حتى على الارواح وطغت احيانا على سلطات والي مصر والخليفة ، ولهذا نلاحظ ان ولاة افريقية منذ بداية الفتوح ، ما كانوا ليبقوا طويلا في مراكزهم **فكان عمال مصر ، وخلفاء دمشق يعزلونهم حتى قبل ان ينهوا مخططاتهم التي سطروها** عند المجيء الى افريقية ، وتفسر تصرفات عمال مصر ، وخلفاء دمشق بالتخوف من نزعات انفصالية ، قد يقوم بها بعض هؤلاء الولاة في هذه المنطقة الثغرية الغنية ، التي

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 290 . ونلاحظ ان اعتراض الخليفة في غير محله لان محمدا بن اوس ، من الانصار ، وهم من عرب الجنوب ، بخلاف سلفه يزيد بن ابي مسلم فكان ثقفيا بالولاء فقط اللهم الا اذا كان فقد المدلول الحقيقي لكلمة قريشي .

(2) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص 136 .

(3) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 286 (وقد ولاه عمر بن عبد العزيز على حربها وخراجها وصدقاتها) .

أصبحت ممتازة بين ولايات الدولة الاسلامية . فكان الذي يسيطر عليها يستطيع السيطرة على الاندلس . وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط بحكم تبعية هذه الجهات الى والي افريقية في القيروان .

وفي مدى سبع وسبعين سنة (45-122) هـ لاحظنا انه توارد على ولاية افريقية ما بين قادة فتح . وولاة حقيقيين نحو تسعة عشر واليا . أي بمعدل اربع سنوات لكل واحد منهم (1) .

وكان لوالي افريقية حرية في اختيار من يخلفه في الولاية عند ذهابه الى المشرق . او عند القيام بغزو بحري . أو في حالة مرض شديد . وهكذا كان نظام الاستخلاف تقليدا اداريا معمولا به في افريقية فاستخلف حسان عند رجوعه الى المشرق مولاه اباصالح فبقي واليا على القيروان حتى عزله موسى بن نصير (2) وولى الأخير ابنه على القيروان عندما ذهب الى الاندلس (3) واستخلف بشر بن صفوان على القيروان عند ما رجع مريضا من نشاطه البحري في صقلية ، نغاشا بن قرط الكلبي ، الذي لا يستبعد ان يكون قد تركه نائبا اثناء غيبته في صقلية (4) وبقي هذا في القيروان حتى قدم عبيدة بن عبد الرحمن السلمي بغتة . فتاثر تأثرا عميقا والقى بنفسه فما حملته رجلاه . وعند ما اعفي عبيدة من ولاية افريقية . استخلف على القيروان عقبة بن قدامة التجيبي الذي انتهت مهمته بقدوم عبيد الله بن الحبحاب .

3 — هيكل الإدارة المدنية ونظام القضاء

وكان لولاة افريقية مجموعة من المساعدين غير المستخلف هم : عامل الخراج . والصدقات . وكاتب الولاية . والقاضي وتوابعه من المحتسبين . والمفتيين . والمترئين . والشهود . واهم هؤلاء بعد عامل الخراج والصدقات . القاضي .

---

(1) ينفرد ابو العرب تميم بذكر وال جديد ، غير معروف في المصادر الاخرى : هو عمران بن مجالد دون ان يحدد تاريخ ولايته (الطبقات ص 79) والمالكي يضيف بدوره : أبا اليمن سفيان بن وهب الخولاني الذي ولي من طرف عبد العزيز بن مروان سنة 60هـ (رياض النفوس ج 1 ص 59) وعن المالكي نقل الدباغ (المعالم ج 1 ص 120) .

(2) ابن عبد الحكم ص 274 .

(3) ابن عذارى ج 1 ص 38 .

(4) بن عبد الحكم ص 291 ـ يروى ابن عذارى ان بشرا استخلف العباس بن باضعة . ج 1 ص 48 .

وقد كان يعين من طرف الخليفة اثباتا لسلطته الدينية العليا ، وابعادا لوظيفة القضاء وشخص القاضي عن اي تاثير يصدر من الولاة ، واول قضاة افريقية ابو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوحي ، الذي استقضى اثناء ولاية موسى بن نصير (1) ، وقد عثرنا اثناء البحث في كتب الطبقات ، على بعض من تولوا قضاء افريقية ، واهمهم أبو المغيرة عبد الله بن المغيرة بن ابي بردة التابعي ، الذي جاءه التقليد بالقضاء من عمر بن عبد العزيز صحبة واليه اسماعيل بن عبيد الله ، لما عرفه عنه من فضل وورع ، وقوة شخصية ، واليه ينسب قصر «مغيرة» وقرية «المغيريين» في افريقية واستمر يلي القضاء الى ان ولى كلثوم بن عياض القشيري على افريقية ، فاستعفى من المنصب ، وخلفه فيه عبد الرحمن بن عقبة الغفاري (2) ، ومن قضاة افريقية ابو سعيد جاعيل بن هاعان بن عمير التابعي ، أحد العشرة الفقهاء ، وقد شغل منصب قاضي الجند في افريقية في عصر هشام بن عبد الملك (3) .

ومنهم ماتع بن عبد الرحمن الرعيني ، وأبو كريب ، ويزيد بن الطفيل وغيرهم ، ثم عبد الله بن أحمد بن طالب ، وسحنون (4) ، وفي عصر سحنون ، نلاحظ تطورا كبيرا في النظم الادارية في افريقية ، ذلك ان ولاة افريقية قبل قضاء سحنون ، كانوا يحصرون القضاء في الفصل في الخصومات وتوابعها ، ويمارسون بانفسهم مهمة النظر في المظالم ، ومهام المحتسبين وهم من ينتصبون للامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في الاسواق والطرقات والمؤسسات العامة ، حفاظا على الذوق العام ، وعلى مصالح المجتمع .

اما في عصر سحنون فقد وقع ضم وظيفة الحسبة الى القضاء ، فمارسهما سحنون معا واجتمعا في شخصه ففصل في الخصومات ، وادب الناس على مخالفة الذوق العام ، في إطار المصلحة والشريعة .

---

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 72 .

(2) نفس المصدر والجزء ص 81 ـ 82 .

(3) نفس المصدر والجزء ص 75 .

(4) ابن عذارى : البيان ج 1 ص 142 ـ انظر ملحق (1أ) ففيه ثبت بأسماء بعض القضاة مرتبين ترتيبا تاريخيا حسب عهود ولاة افريقية . وقد أشرت الى اثنين من قضاة العصر الأغلبي هما عبد الله بن طالب وسحنون لتطورات هامة في عهديهما .

وكان اول قضاة افريقية ، الذين شرفوا الوظيفة ، وجعلوها مضبوطة وجابهوا الولاة المستبدين ، والخصوم غير المهذبين ، فكان يؤدب الخصوم اذا تعدوا حدود اللياقة ، وعلى الأيمان غير الجائزة ، وعلى رثة اللباس وعدم الاهتمام بالهيئة ، بالضرب بالدرة ، أو بالسوط ، أو بلطم القفا ، أو بالتقييد بالحبل ، أو بالاخراج من الدار وبناء ابوابها ، كما فعل مع امرأة اتهمت ، بالجمع بين الرجال والنساء ، أو بالنفي من الاسواق ، وذلك للتجار الذين يثبت عنهم الغش في السلع ، وهو اول من أم الناس في الجامع وجعل ائمة للمساجد ، وكانت الامامة ، من قبل عصره ، للولاة وللامراء ، كما كانت الحسبة والنظر في المظالم ، للخلفاء ، ولمن يستخلفونهم ، واول من حارب التطرف الديني ، واضطهد المذاهب الدينية غير مذهب اهل السنة وضيق على أهل الاهواء ، والبدع ، وحظر عليهم التجمع في المسجد الجامع للجدال أو لبث آرائهم المذهبية ، كما منعهم من امامة الناس او الافتاء لهم ، او تعليم الصبيان ، قام سحنون بكل هذه الاعمال ، في اطار ممارسة وظيفة المحتسب كما يفهمها رجال المذهب المالكي (1) ، ولاهمية هذه الوظيفة فصلها سحنون عن القضاء وافردها بوال مستقل سماه أمين السوق أو «المحتسب» فكان يرسل الأمناء ، الى مختلف نواحي أفريقية ، للتحري والمراقبة ، وللمحافظة على الذوق ، والصالح العام ، ويشير المالكي نقلا عن أبي سليمان الربعي الصواف تلميذ سحنون الى ان المحتسبين لم يكونوا يعرفون بافريقية حتى مر على سحنون ، وهو جالس على باب داره ، حاتم الجزري ، ومعه جماعة من سبي تونس ، فامر سحنون اعوانه ، فأتوا بهم فمزق حاتم ثوبه وهرب شاكيا الى محمد بن الا غلب ، الذي ارسل الى سحنون يأمره برد السبي الى صاحبه فرفض بحجة انهم أحرار ، وفيهم نساء ، ومثل حاتم لا يؤمن على الفروج ، وامر اعوانه فوضعوا عمامة حاتم في عنقه ، وحملوه الى السجن - فلحقه رجل ولامه على موقفه «يا حاتم لا تلق الشر بين الامير والقاضي» ، واعطاه عوضا عن السبي سبعة دنانير ، فلما رضي بالتنازل أطلق سراحه سحنون ، ويفهم من المالكي ، ان هذا الموقف الصلب من سحنون تجاه الامير الأغلبي في قضية حق ، اغضبت الامير ، بدءا ، فلما لاحظ اصرارا تدبر الامر ففهم الحقيقة ، وعقب ذلك قال لاصحابه «اظن هذا

---

(1) لقبال موسى : الحسبة المذهبية 40 وما بعدها .

الرجل لايريد بنا الا خيرا ونحن لانعلم ارسلوا اليه يرسل الينا المحتسبة لنكتب لهم السجلات حتى يذهبوا الى اقصى عملي ، ليأخذوا من يجدونه من الحرائر» (1).

وهكذا قامت خطة الحسبة في افريقية لتكمل عمل القضاء وترعى شؤون المجتمع وتضمن له حياة ثقافية ، وأخلاقية ، واجتماعية ، واقتصادية سليمة.

وفي المناقب لأبي اسحاق الجبنياني ، ما يفيد ان سحنون كان يراقب قضاة النواحي والمحتسبين ، ويؤنبهم على مجاوزتهم حدود الشرع ، وتطرفهم في عقاب المخالفين ، فقد روي أبو اسحاق ان سحنون ولى عليا بن اسلم ، قضاء صفاقس وسائر الساحل ، وكان تحت نظره أمناء ومحتسبون ، يقسون على الناس ، فكتب سحنون «ان قبلك قوما ينكرون المنكر بانكر منه فازجرهم على ذلك» (2).

ويكمل عمل القضاة غير من ذكرنا — مجموعة من الفقهاء الذين يرشدون الناس في أمور دينهم — وكان جلوسهم مثل القاضي — في المساجد واحيانا في دورهم — ومنهم: أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي الذي قال فيه ابو سعيد بن يونس «كان فقيها مفتيا» (3)، وأبو منصور مولى سعد بن أبي وقاص الذي كان مفتيا ومقرئا للقرآن.

ومن أهم مساعدي القاضي «صاحب المظالم» ويكون من ذوي الجاه والورع، وتعرض على صاحبها القضايا التي يعجز القاضي عن تنفيذها لتعلقها برجل ذي جاه أو ذي حسب ، أو التي يرى المتقاضون فيها ان القاضي لم يحكم بينهم بالعدل ، ولهذا كانت ولاية المظالم بمثابة «محكمة الاستئناف» وكان يرأسها الخليفة ، والولاة ثم اصبح يمارسها القضاة — وقد مارسها سحنون ، ثم افردها كالحسبة ، بوال مستقل — ويلاحظ في كتاب طبقات علماء افريقية جملة من قضاة سحنون وولاة المظالم في — عهده واشهرهم — ابو يحي بن خالد السهمي الذي شغل وظيفة قاضي منطقة الزاب (4) ، وحبيب بن نصر التميمي ، الذي

(1) عن سحنون واعماله الادارية : المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 272 ـ 280 الدباغ : المعالم ج 2 ص 55 ـ 57.

(2) ابو اسحاق ابراهيم الجبنياني : المناقب ص 3 ، ورسمه صاحب الورقات على بن سالم البكرى ويذكر انه ابن سحنون من الرضاع ، وهو جد ابى اسحاق دفين جبنيانه ، واليه فضل تمصير صفاقس وبناء رباط المحرس او محرس علي ج 1 ص 287 وهامشها.

(3) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 74.

(4) ابو العرب تميم : الطبقات ص 120.

شغل ولاية المظالم ، لسحنون ، ولأحمد بن داود ، ولعيسى بن مسكين (1) ، وأبو القاسم الطرزي الذي تولى ولاية المظالم لمحمد بن سحنون (2) وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد ، ويحضرها الى جانب رئيس المظالم ، الحماة ، والاعوان ، لردع من يحاول اللجوء الى العنف أو الفرار من القضاء ، ثم الحكام ، والقضاة ، لتنفيذ ما صدر من احكام ، وللاستنارة بما يصدر ، والفقهاء ، وكانوا مرجعا لرئيس المظالم فيما اشكل عليه من الامور الشرعية والكتاب ، ومهمتهم ، تدوين أقوال الخصوم ، والشهود وعليهم اثبات ما يعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على ان ما أصدره والي المظالم عادل (3) .

ويدخل في نطاق عمل ولاة المظالم ، القضايا التي تقام على الولاة اذا انحرفوا عن العدل وعلى عمال الخراج والصدقات اذا اشتطوا في الجمع ، وعلى كتاب الدواوين اذا تلاعبوا بشأن من شؤون المسلمين (4) .

ولم يعرف في ولاية افريقية ولا في غيرها — ان يلي قضاء المظالم شخصان في مصر واحد ، على عكس القضاء الذي مارسه لأول مرة في تاريخ النظم الاسلامية — شخصان في القيروان — فولي القضاء لزيادة الله بن الأغلب أبو محرز محمد بن عبد الله الكناني ، وشاركه في ذلك أسد بن الفرات (5) ، وكان أبو محرز ، يرى رأي المعتزلة — ومات وهو قاض ، فتولى بعده ابنه احمد بن أبي محرز ، الذي لم يحكم بحكم ابدا حتى مات — ويستنتج مما اورده أبو العرب تميم ، عدم ارتياح الرجلين لهذه الوضعية — فدبت بينهما الغيرة ، وتحاسدا ، وأحيانا كانا يتبادلان كلاما جارحا ويغرقان في جدل ونقاش ، لا ينتهي بالتفاهم . وفي احدى هذه المرات عرض اسد بزميله قائلا له : من استقضاك ؟ فرد عليه بقوله « الذي استعجزك » (6) .

---

(1) نفس المصدر ص 141 ـ 143 ـ ابن عذاري : البيان ج1 ص 145 .

(2) نفس المصدر ص 130 . وقد شغل وظيفة الحسبة أيضا .

(3) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 67 .

(4) حسن ابراهيم : حسن النظم الاسلامية ص 268 ـ 269 .

(5) ابو العرب تميم : الطبقات ص 74 .

(6) نفس المصدر والصفحة ـ ابن عذارى ج 1 ص 124 و 128 و 137 .

الكتابة

ومن الوظائف التي وجدت عنها اشارات قليلة في المصادر ، وظيفة الكتابة ، وكان الكاتب من جملة مساعدي الوالي — ويظهر ان هذه الوظيفة ظهرت منذ زمن مبكر في افريقية ، يرجع الى عصر ولاية عقبة بن نافع على هذه المنطقة ، فقد استكتب التابعي المشهور : أبا ليلى دجينا بن عامر الحجري ، فلازمه وشهد معه المعارك التي خاضها ، وبعد ان اقام بافريقية واستوطنها فترة ، رجع الى مصر ، حيث استشهد في مدينة (تانيس) سنة 100 هـ (1) ورغم ان المصادر لا تفيدنا بشيئ عن هذه الوظيفة فيما بعد عصر عقبة (2) فاننا نستنتج استمرارها في ولاية افريقية ، نظرا لأهميتها ، في ضبط عدد الجيوش ، وقبائلهم ، وأرزاقهم ، وفيما يرد على الولاية من اموال الخراج ، والصدقات ، ثم لوجودها في ولايات الشرق الاسلامي ، وفي عاصمة الخلافة ، فالمصادر التي ضنت علينا بأخبار الكتابة في المغرب نلحظها تفيض الحديث عنها في المشرق - وتعتبرها اولى درجات السلم الاداري ، منها يرتقي الموظف الى وظيفة عامل الخراج ، ومن هذه يصبح احيانا واليا على منطقة — وخضع لهذا التدرج في الرقي الاداري ثلاثة من ولاة افريقية المشهورين ، وهم موسى بن نصير ، ويزيد بن أبي مسلم ، وعبيد الله بن الحبحاب ، فابتدؤوا حياتهم كتابا ثم عمال خراج ، ثم ابتسم لهم الحظ ، فأصبحوا ولاة في افريقية .

الحجابة

ويستنتج من نصين أوردهما ابن عبد الحكم أولهما «ثم ان يزيد بن أبي مسلم أخذ موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم وجعلهم أخماسا واحصى أموالهم واولادهم ، ثم جعلهم حرسه وبطانته» . وثانيهما «كان حرس يزيد حين قدم ، البربر ، ليس فيهم الا بترى وكانوا هم حرس الولاة قبله البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد» (3) .

---

(1) الدباغ : المعالم ج 1 ص 62 . المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 95 .

(2) ابن عذارى ج 1 ص 33 (يفيد ان موسى بن نصير كان له كاتب أخطأ في تقدير خمس الغنائم فأمره والى مصر بالضبط ، ومما قاله : «ظننته وهما من الكاتب» .

(3) فتوح مصر والمغرب 288- 289 .

يستنتج قيام نظام الحراسة أو الحجابة ، ووجود فئة مهمتها حراسة الوالي ، وتبليغ اوامره ، وتنفيذها عند اللزوم ، وكانت هيئة الحراس من البربر ، بعد ان استقرت الفتوح ، وكثر عدد المسلمين منهم ، واقتصرت على فريق البتر منهم بنوع خاص ، وربما يرجع سر ذلك الى قدم علاقة العرب بالبتر ، خاصة زناتة . والى دخول قبيلة جراوة في الاسلام بعد هزيمة الكاهنة وقبولها محالفة العرب بهدف تمهيد البلاد ، واخضاع المخالفين . وقد دأب الولاة في اعتمادهم في كثير من الشؤون ، على هيئة الحرس ، فاتخذوا رجالها حاشية وبطانة ، ومال بعضهم الى تطوير نظام الحراسة ، وتمييز رجالة عن بقية الناس ليقع احترامهم وتلبية اوامرهم بكتابة اسمائهم واوصافهم على ايديهم . فأنفوا من ذلك واساؤوا فهم اغراض الوالي ، وظنوه يعاملهم معاملة النصارى ، فتآمروا عليه وقتلوه .

وكان ولاة الفتح في افريقية يأتون ومعهم جنودهم وحراسهم ، فاذا تمت مهمتهم رجع معظمهم الى الفسطاط أوإلى دمشق . أما الان بعد أن استقرت الولاية ، فقد أصبح هذا النظام تقليدا اداريا ثابتا يرتبط بالولاية ، ولا يتأثر بعزل الوالي .

4 — التقسيمات الإدارية

لا نعلم شيئا عن كنه التقسيمات الادارية التي وضعها حسان عند ما اقام بعض الاجهزة الادارية في القيروان ، وان كنا نستنتج ان حسانا نظر الى الأراضي المفتوحة كلها حتى طرابلس على انها وحدة ادارية ، قاعدتها القيروان . ولذلك عند ما انتهت مهمته ، ترك عليها نائبا مقره القيروان . وافرد قابس بعامل ، وعين على برقة عاملا للخراج ، ومكلفا بمهمة ، بسبب بعدها عن القيروان ، وأغلب الظن انه كان يعتمد في حكمه ويستوحي التعليمات من ولاة مصر ، لا من عمال افريقية في القيروان . ولعل الوضع الفريد الذي تميزت به برقة منذ عصر الفتوح الأولى ، هو الذي جعل عبد العزيز بن مروان يستبد بها ، وينابذ حسانا عليها ، ويقدم غلامه (تليدا» (1) . وتتحدث بعض المصادر ايضا عن ولاية طارق بن زياد على برقة في بدء حياته السياسية (2) .

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 274 .

(2) ابن عبد الحكم الفتوح ص 273 .

وتتضح خطوط التقسيم الاداري بعض الشيئ في عصر موسى بن نصير الذي جعل على السوس الاقصى — واليا مسلما — لا تكشف المصادر عن اسمه . وعين على طنجة وما والاها طارق . وعندما انتهت مهمته في افريقية والأندلس ، عين ولاة الا قاليم من جديد . وحصر المسؤولية في ابنائه . وهذه سابقة ادارية خطيرة ، سوف نلحظها عند ابن الحبحاب فأبعد طارق عن الأندلس ، وعين عليها ابنه عبد العزيز الذي رأيناه يشق عصا الطاعة في وجه الخلافة المركزية . ويخرج عن إطار التقاليد الاسلامية ، ونصب على إفريقية ابنه عبد الله ، وهو الذي سيلقى مصيره فيما بعد على يد أحد ولاة افريقية . وترك على طنجة وما والاها ابنه عبد الملك ، فكأن موسى نظر الى الأراضي المفتوحة في الأندلس ، ولاية مستقلة يدبر شؤونها وال مستقل يقيم اما في اشبيلية ، أو في قرطبة . ومهمته مواصلة الغزو الثغري وتهدئة ما تم استخلاصه فعلا ، وأفرد المغرب الاقصى بوال مستقل ، يقيم في طنجة قاعدة الا قليم ، وما عدا هذين القسمين هي ولاية افريقية وقاعدتها القيروان ، وتمتد حتى طرابلس ، ولعل هذه التصرفات الجريئة هي التي أغضبت سليمان ، فنكبه وتتبع اسرته ، ومواليه في افريقية ، وعزله عن المسؤولية ، وانتدب لها محمدا بن يزيد القرشي ، ونظره يمتد من برقة الى الأندلس ، وزوده بتعليمات محددة ظهرت آثارها في قتل ولدى موسى عبد الله وعبد العزيز ، وتعيين وال جديد على الأندلس : هو الحر بن عبد الرحمن القيسي (1) .

اما عبد الملك بن موسى الذي ترك في طنجة ، فان مصيره بقي مجهولا : ويظهر انه قتل أو فر من مقر ولايته ، عندما سمع بمصير ابيه واخويه . وظلت القاعدة الادارية : يعين والي افريقية من طرف الخليفة بعد تزكيته من طرف والي مصر ، فيستقر في القيروان ، ويعين من قبله واليا على الأندلس ، ويظهر ان ذلك ما قصده ابن عذاري بقوله «كانت الأندلس اذ ذاك الى والي افريقية ، كما كان ايضا والي افريقية من قبل والي مصر» (2) ، فلما قدم ابن الحبحاب احدث تغييرا بسيطا في التقسيم الاداري ، وسلك سياسة مشابهة لتلك التي سلكها موسى بن نصير . فقد استخلف على مصر ابنه القاسم ، وعين بعد استقراره في افريقية ابنه اسماعيل على السوس الادنى ، وضم اليه عمر بن عبد الله المرادي ،

(1) ابن عذارى ج 1 ص 44 .

(2) البيان المغرب ج 1 ص 45 .

وكانت قاعدة الا قليم طنجة ،وعلى السوس الاقصى ومغازي السودان حبيبا بن أبي عبيدة الفهري ، وعلى الأندلس ولي نعمته عقبة بن الحجاج السلولي ، بعد ان عزل عنها عنبسة بن سحيم الكلبي ، فلما توفي مولاه انتدب لها عبد الملك بن قطن الفهري ، وعين على مدينة تونس المستنير بن الحبحاب الحرشي بعد ان حرره من السجن الذي وضعه فيه سلفه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي .

وهكذا نلاحظ ان ابن الحبحاب فرق بين ولاية افريقية ، وولاية الأندلس ، وولايتي السوس الادنى ، والسوس الا قصى . واختص بعض المدن الكبرى مثل تونس بعمال مستقلين . والشيئ الجديد الذي يقود اليه البحث هو بروز ولاية افريقية وطغيانها على ولاية مصر . ذلك انه منذ ولاية ابن الحبحاب حتى نهاية نظام بني أمية ، وقيام الأسر المتغلبة في إفريقية تصبح ولاية مصر هي التابعة لافريقية ، وليس العكس . فوالي مصر أصبح ينتقل بنفسه الى القيروان الافريقي ، بعد ان يستخلف عنه شخصا في الفسطاط . وهكذا فعل ابن الحبحاب ، وبشر بن صفوان ، وحنظلة بن صفوان وغيرهم .

وقد عرفنا بعض اسماء عمال المدن الاسلامية في افريقية عندما نشبت نار الفتنة الخارجية في السوس الادنى ، وانتشر لهيبها فعم افريقية والأندلس .

فكان على طنجة اسماعيل بن عبيد الله ، وعمر بن عبد الله المرادي . وعلى تونس المستنير بن الحبحاب . وعلى مدينة القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ثم مسلمة بن سوادة القرشي ، ثم سعيد بن بجرة الغساني .

وكان على مدينة قابس عكاشة بن ايوب الفزاري الذي تزعم ثورة الخوارج الصفرية ، وانقلب على ابن الحبحاب . وعلى مدينة طرابلس صفوان بن أبي مالك . وعلى سبرت حبيب بن ميمون ، وعلى مدينة تلمسان موسى بن أبي خالد ، أحد موالي معاوية بن حديج الذي اتهم بالنزعة الخارجية ، فقطعت يده ورجله عقابا له (1) . واغلب هؤلاء واجهوا ثورة الخوارج الصفرية في منطقة قابس وطرابلس ، وتصدوا لقتالهم واحباط مساعيهم في القيروان . .

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 294 ـ 295 .

5 — ولاية افريقية في الأحكام السلطانية

وغدت ولاية إفريقية من نوع الولايات العامة في الأحكام السلطانية ، أي من نوع ولاية الأستكفاء حتى تظهر في الأفق المغربي ، الأسر المتغلبة . فكان والي افريقية يتمتع بسلطات واسعة ، ينظر في تدبير الجيوش ، وفي الاحكام ، ويقلد القضاة والعمال ، ويرعى شؤون الخراج والصدقات ، ويقلد عمالها ، ويقيم الحدود ، ويحمي الدين ، ويرعى شؤون المجتمع ، ويؤم الناس في الصلاة ، ويباشر النشاط الثغري ضد دار الحرب ، ويقسم الغنائم بين المقاتلة ، وينفق الخمس في مصارفه (1) . وقد اخرج بعض الخلفاء الناحية القضائية فجعلوها بيد قاض خاص يعينه الخليفة مباشرة ، وافردوا الخراج بعامل مستقل أيضا .

ويظهر ان هذه السلطات الواسعة يضاف اليها غنى إفريقية ، وبعدها عن مركز الدولة هي التي دفعت بعض الولاة الى الاستئثار بها ، واقطاعها لا قاربه ومواليه ، كانت هذه السابقة غير محمودة ، ذلك ان بعض الطموحين استغلوا اوضاع الدولة الاموية وانشغالها بالمشاكل التي خلقها في الشرق الموالي وآل البيت ، واوضاع إفريقية المضطربة من جراء الحركة الخارجية ، وارتكزوا على ما ضيهم السياسي ، وقدمهم في المنطقة ، ووجود عصبيات تؤيدهم ، ومهدوا لتطور جديد في وضع ولاية إفريقية وعلاقتها مع الخلافة الاسلامية في دمشق ، أو في بغداد ، وساروا بها تدريجيا نحو الانفصال . وكانت أسرة الفهريين أول أسرة يستقل رجالها بالحكم في إفريقية .

فقد خرج عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس ، ونزل تونس اثناء ولاية حنظلة بن صفوان ، فدعا الناس الى نفسه فأجابوه للطاعة ، وزحف على القيروان ، وطرد منها عامل الخليفة على وضع مهين ، واستبد بامورها . وعين على نواحي الولاية اخوته واصفياءه . فنشروا الفوضى اينما حلوا ، وتسببوا في ثورة الخوارج الاباضية وكانوا حتى هذا الوقت مسالمين . واضطر مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية بسبب مشاكله ، الى الاعتراف بعبد الرحمن بن حبيب وتثبيته على الولاية (2).

---

(1) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 34 ـ 35 .

(2) ابن عذارى : البيان ج 1 ص 66 .

وهذا الوضع الذي انتهت اليه ولاية إفريقية هو بالضبط وضع ولايات الاستيلاء في الاحكام السلطانية ، يأخذ الوالي الامارة فيقره الخليفة عن اضطرار ، ويكل اليه شؤون السياسة والمال ، ويحتفظ لنفسه بشؤون الدين ، وفي ذلك يقول الماوردي «وأما امارة الاستيلاء التي تعقد عن اضطرار ، فهي : ان يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها ، ويفوض اليه تدبيرها وسياستها ، فيكون الامير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير ، والخليفة باذنه منفذا لاحكام الدين للخروج من الفساد الى الصحة ، ومن الحظر الى الاباحة» (1).

6 — أثر العصبية في الولاية الجديدة وتوابعها

لعبت العصبية القبلية بين الكلبية ، والقيسية ، دورا كبيرا في المشرق ، وانتقل الصراع بين هاتين النزعتين الى إفريقية والأندلس.

فكان يتم على أساس هذه النزعة أو تلك ، تعيين أو عزل قادة الفتح ، وولاة الامصار وعمال الولايات . وسار على هذه السياسة جل الخلفاء من بني أمية من الفرع المرواني فقربوا اليهم خاصة العصبية الكلبية ، وهم من عرب الجنوب ، واضفوا عليهم الالقاب والرتب ، بينما اضطهدوا أو ابعدوا رجال العصبية القيسية ، وحاولوا التقليل من نفوذهم . وكان لهذه السياسة المنحرفة التي اشترك الشعراء في تغذيتها آثار سيئة جلبت الخراب للدولة القائمة . وملأت ولاياتها بالشقاق والحروب القبلية . فغرقت بلاد الأندلس — بسبب هذه النزعات — في بحر من الفوضى والحروب سهلت على عبد الرحمن بن معاوية — فيما بعد — مهمته في فصل البلاد نهائيا عن مركز الخلافة الاسلامية في بغداد ، وعن ولاية إفريقية أيضا.

ودفعت عبد الرحمن بن حبيب الى طرد عامل الخليفة ، والاستقلال بولاية إفريقية (2) ، وفي المشرق اعانت هذه النزعات القبلية دعاة آل البيت ، والموالي على قلب نظام بني أمية نهائيا سنة 132 هـ (749 م).

---

(1) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 27 ـ 28 .

(2) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 300 ـ 301 .

وعندما نستعرض اسماء ولاة إفريقية والأندلس في الفترة التي نهتم بها نجد ان بعضهم من النزعة الكلبية ، وبعضهم من النزعة القيسية . وكان الوالي من هذه العصبية بقدر ما يعتمد على عصبيته في الحكم ، يحاول اضطهاد أو التقليل من أهمية رجال العصبية الاخرى ، والمثال الواضح في ذلك ما فعله عبيدة بن عبد الرحمن بأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي الشاعر المشهور وصاحب الحظوة الكبرى في عصر بشر بن صفوان رجل عصبيته . ويقال ان الابيات التي ضمنها دور عصبيته في معركة مرج راهط هي التي تسببت في عزل عبيدة بن عبد الرحمن . ونلاحظ ان ابن الحبحاب وهو قيسي بالولاء يقرب اليه الفهريين ، ويعين أهل عصبيته ، على مختلف النواحي . كذلك فعل بشر بن صفوان ، واخوه حنظلة ، فاعتمدا على رجال العصبية الكلبية وقدماهم لمختلف الوظائف الهامة في الادارة وفي الجيش .

ويعتبر سلوك كلثوم بن عياض القشيري القيسي تجاه حبيب بن أبي عبيدة وابنه عبد الرحمن وهما من الفهريين شذوذا لا يلتفت اليه في هذا العصر الذي غدت فيه العصبية عاملا رئيسيا ، للوصول الى الوظائف العليا (1) .

7 — علاقة الخلفاء بالولاية الجديدة

وكان الخلفاء في دمشق ينظرون الى ولاية إفريقية ، نظرتهم الى أي ولاية مستقلة من ولايات الدولة ، ويهتمون اهتماما خاصا بتهدئتها ، ونشر الاسلام بين سكانها واكتسابهم الى الصف بجميع انواع الترغيب . وكان يعنيهم بدرجة خاصة ان لا يبقى للمسيحية تأثير كبير ، ولا للكنيسة البيزنطية أو الافريقية دور ؛ لان خلاف ذلك يعني بقاء النفوذ البيزنطي في المنطقة بطريقة أو بأخرى .

ولم يفكر أي خليفة في الانصراف عن الفتح ، أو اخلاء المنطقة وتركها للروم . وكانوا يوصون عمالهم قبل الذهاب الى القيروان بالتزام طريق العدل والانصاف والمساواة بين المسلمين جميعا ، والوقوف عند حد النصوص الشرعية في معاملة السكان الأقدمين ، وعدم الاسراف في السبي والتقتيل ، وجمع الغنائم ، لان ذلك يضع هوة عميقة بين العرب وبين السكان ، ويجعل التعاون بين الحيين متعذرا ، ولعل عدم التزام بعض الولاة بهذه الوصايا ، هو سر ابعادهم عنها . فمعاوية فصل شؤون إفريقية عن ولاية مصر

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 295 .

بعد موت عمرو بن العاص ، لان هذا الأخير لم يشترطها لعقبه (1) . وأبعد عن ميدانها ابن عمرو ، وانتدب لها من رجاله معاوية بن حديج . وعندما وقعت مشاكل وخلافات في جيش هذا الأخير ، كان معاوية بن أبي سفيان هو المرجع والحكم فيها . وقد تكون هذه المشاكل هي سبب اعفاء ابن حديج من عمله في إفريقية أيضا .

ويفسر عزل عقبة بسياسة الشدة التي سلكها مع الاهلين ، وكانت محل انكار من الخليفة ، وقد استغل والي مصر غضب الخليفة ، ورشح للعمل في إفريقية مولى من مواليه . والدليل ان هذا المولى سلك سياسة مغايرة لسلفه تجاه العناصر المحلية . ومن الصعب قبول رأي يجعل الخليفة بعيدا عن الترشيح ، وفي موقف حرج لمكانة والي مصر مسلمة بن مخلد في الحزب الاموي ، ويستنتج صاحبه ان الخلفاء كانوا يقرون لولاة مصر بنفوذ خاص في إفريقية اذا كانوا من مشايعيهم (2) .

وينقضه في نظري امران : احدهما ، ان يزيد بن معاوية ارجع عقبة بمجرد تظلمه عنده أثناء حياة مسلمة بن مخلد ، لان رواية الدباغ صريحة في هذا المعنى (فتحت إفريقية وبنيت مسجدها الجامع ، فبعثم عبد الانصار فأهانني وأساء عزلي . فغضب يزيد ، وقال : ادركوها قبل ان يخربها ، ورد عقبة اليها ، وأزال ولاية مسلمة عنها وأقره بمصر) (3) .

وثانيهما : انعبد الملك بن مروان صمم على خلع اخيه منولاية مصر ، ولم يمنعه من ذلك الا موت أخيه . ورواية ابن عذاري صريحة هي الأخرى في هذا المعنى ونصها : «وكان عبد الملك اراد ان يخلع أخاه عن مصر ، على ما فعل من عزل حسان ، فنهاه قبيصة بن ذؤيب ، وقال : لعل الموت ياتيه فتستريح منه ، فكف ، وبقيت نفسه تنازعه ان يخلعه ، اذ دخل عليه قبيصة ، وقال : آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك : فقال وهل توفي ؟ قال نعم ، قال عبد الملك : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا اجتمعنا عليه» (4)

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 221 .

(2) انظر فتح العرب للمغرب ـ لمؤنس حسين ص 271

(3) معالم الايمان ج1 ص 43

(4) البيان المغرب في اخبار المغرب ج1 ص 35

ولم يمنعه من رد حسان الى عمله الا يمينه التي مات على اثرها بقليل . ولم يهنأ موسى بن نصير في الولاية الا بعد ان توفي عبد الملك بن مروان .

ودأب الخلفاء على العناية بشؤون إفريقية ، ولم يولوا عليها الا من توفرت فيهم صفات الحماسة الدينية والقيادة الحازمة ، وسعة الافق السياسي ، ولم يصرفهم عنها مؤقتا الا كثرة مشاكلهم الداخلية في المشرق ، فعبد الملك الذي عاش في ازمات سياسية كثيرة لم ينس قطعة اسلامية في المغرب ، فحث زهيرا على تتبع البرانس وحلفائهم . وزود حسانا بسلطات واسعة واطلق يديه في أموال مصر . وارسل معه جيشا ضاربا لم تعرف إفريقية نظيرا له في عدده وعدته . وهو الذي أمره بالبقاء في برقة بعد هزيمته ، ثم أمده بالقوة اللازمة ، وهو الذي أعطاه اشارة البدء من جديد . وطبقا لاوامره ، هاجرت الف أسرة قبطية الى إفريقية ، مهمتها بناء قاعدة بحرية تخلف قرطاجنة وتمد سلطة الاسلام الى ما وراء إفريقية .

اما الوليد فكان يتتبع بنفسه أخبار حملة موسى بن نصير في إفريقية ، ونشاط طارق ودوره في الأندلس . وكان غلامه وصفيه (مغيث الرومي) من المرافقين لهذه الحملة ، فروي له أخبارها بالتفصيل . واليه يعود الفضل في الابقاء على حياة طارق بن زياد عندما هم موسى بقتله . ورواية ابن عبد الحكم ، تشعر بأن مغيثا الرومي قبل انصرافه الى المشرق ، نصح موسى بالتريث في قضية طارق قائلا : لأن أمير المؤمنين بلغه الأمر ، وعندما وصل ، أنصف طارق ، وأبرز أهميته في الفتح ، وما اصابه على يد موسى ، غيرة وحقدا ، فاستاء الخليفة من موقف موسى وكتب اليه مع مغيث نفسه (يقسم له بالله لئن ضربته لأضربنك ، ولئن قتلته لأقتلن ولدك به) (1).

ويفسر سلوك الخليفة سليمان تجاه موسى بن نصير ، فيما بعد ، ليس فقط ، بسبب موقفه من طارق ، وانما لعدم رضا سليمان عن سياسته العنيفة ، وفي الاكثار من السبي والتقتيل وترويع الآمنين .

وان المجالس التي عقدها الخليفة مع موسى ، والاسئلة التي وجهها اليه عن بلاد المغرب والأندلس لكافية في التدليل على مدى اهتمام الخلفاء بشؤون إفريقية . يضاف

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 283 .

الى ذلك الوصايا التي زود بها سليمان واليه الجديد محمد ابن يزيد فهي تقوم برهانا على ارادة الخير للمنطقة ، ولسكانها ، التي امتلأت بها نفوس الخلفاء (1).

اما عمر بن عبد العزيز الذي كان يهمه أكثر من غيره انتشار الاسلام في هذه المنطقة وفي غيرها . فقد عين واليا عرف بالاستقامة ، وبالحماس الديني ، وارسل معه دعاة يعينونه على تأدية مهمته ، في بيئة المغرب . فكان هذا الخليفة احسن ممن سبقه أو لحقه . كما كان واليه باجماع مصادر هذه الفترة (خير وال ، وخير أمير) . ويعتبر تسرب يزيد بن أبي مسلم الى ولاية إفريقية ، شذوذا في تاريخ الولاة ، وهفوة من هفوات يزيد بن عبد الملك الذي تفطن لحقيقة خطئه ، لكن بعد فوات الأوان ، فلم يغضب ظاهريا لقتل عامله ، وأصدر عفوا مؤقتا عن الجناة.

واستمر الخلفاء يعينون ولاة إفريقية ، حتى شبت نار الفتنة الخارجية وانتشرت الفوضى على إثرها ، في المغرب كله . وحينئذ تراخت قبضتهم عليها ، وتغلب على ارجائها المتغلبون من ذوي الأسر الافريقية القديمة.

8 — نظرة ولاة مصر لولاية افريقية

وعلى عكس الخلفاء كان عمال مصر ، يرون هذه المنطقة ميدانا خصبا لمغامراتهم ، وهريا يمدهم بالاموال ، والسبايا والغنائم الوفيرة ، وطريقا ، الى المجد ، واكتساب الحظوة عند الخلفاء ، ورجال الدولة في دمشق ، ووسيلة للبقاء طويلا على رأس ولاية مصر . ولعل هذا هو سر اشتراط عمرو بن العاص ولاية مصر ، واصراره على ضم منطقة إفريقية اليه نظير انضمامه الى فريق معاوية ضد علي .

ودفعت الغنائم ، والمكاسب المادية عموما ، مسلمة بن مخلد وعبد العزيز بن مروان ، الى الاساءة لبعض ولاة إفريقية المخلصين ، لا لشئ سوى ان هؤلاء كانوا يكرهون تدخل عمال مصر في المنطقة ولا يلتجئون اليهم ، في أمر من الأمور.

وتصرفات حسان تدل على مقته لتدخل عمال مصر ، لأغراض مادية صرفة ، فلم يتصل بهم ، واتصل مباشرة بالخليفة ، واقام اجهزة الولاية الجديدة على نمط ما

(1) انظر ابن عذاري : البيان ج1 ص 44 حيث ينقل عن الواقدى محاورة الخليفة مع رجاء بن حيوه ، ثم مع محمد بن يزيد ، وما اوصاه به ، واثر الوصايا في نفس الوالي الجديد.

كان موجودا في غيرها من ولايات الشرق الاسلامي المستقلة ، ولم يسرف في سياسة السبي والتهافت على الغنائم ، وحرص على اقامة قواعد ثابتة ، لمعاملة السكان الأقدمين .

اما موسى بن نصير ، فقد دلت اعماله وتصرفاته على انه لا يريد غير ارضاء ولي نعمته في مصر ، والتدليل على افضليته عمن سبقه من ولاة الفتح .

وليس الى الشك سبيل في أن الفجوة التي وجدت واستمرت بين العرب ، والسكان انما كان سببها الاسراف في الغزو ، والنهب ، والسلب ، وترويع القبائل الآمنة التي تميزت بها بعوث وسرايا موسى بن نصير الى مضارب البربر ، في إفريقية ، والمغرب .

ولو ان ولاة مصر كانوا يريدون خيرا للمنطقة الجديدة ولسكانها ، لحدثتنا المصادر بشيئ عن اهتمامهم بنشر الاسلام ، واقامة العدل ، والمساواة وارسال الدعاة الى المسلمين الجدد ، أو بشيئ عن مجهوداتهم لأقرار النظام والأمن اثناء جلاء المسلمين عن القيروان ، اما وقد ضنت المصادر علينا بشيئ مما سبق ، وافاضت في الحديث ، عن جشع ولاة مصر ، ومخاصمتهم لولاة إفريقية النزهاء عندما يستقلون بأمورهم ، فأننا لا نشك لحظة في أن تدخل ولاة مصر في شؤون المنطقة ، قد ألحق بها اضرارا جسيمة فأخر نموها وظهورها على هيئة الولايات المستقلة ، وأساء الى العلاقة بين الحيين العربي ، والبربري ، وعطل سرعة انتشار الحركة الاسلامية .

ولو أن هؤلاء فهموا أغراض الخلفاء ، وطبقوها بأمانة لعاد ذلك عليهم ، وعلى المسلمين الجدد في البيئة الجديدة بالخير ، والراحة ولوفرت الخلافة أموالا طائلة ،وجهودا مضنية ، ونفوسا عزيزة .

ويبدو ان النصوص التي تشير الى اعتبار الخلفاء لولاية إفريقية جزءا من ولاية مصر ، يتصرف فيها ولاتها بحرية تامة ، ينبغي توجيهها على أساس ، ان الخلفاء لما كانوا يعتقدون انهم بعيدون عن الميدان ، وان ولاة مصر ، قريبون منه ، وأخبر به ، وبشؤون أهليه ، كانوا يقبلون شهادتهم ، في الولاة ، ويعتبرون تزكيتهم ، وترشيحهم لهم . غير ان بعض هؤلاء الولاة ، تجاوزوا احيانا الحدود المرسومة لهم حتى خالها بعض المؤرخين تفويضا لعمال مصر ، في إفريقية .

9 ـــ علاقة الأندلس بالولاية الجديدة

ويشبه دور عمال مصر ، في إفريقية ، دور عمال إفريقية في الأندلس ، بعد ان صارت ارضا خالصة للمسلمين. فقد فتحت هذه البلاد نتيجة لجهود والي إفريقية موسى بن نصير الذي لم يبرحها ، حتى عين عليها ، واليا من قبله ، هو ابنه عبد العزيز وترك لمساعدته ، حبيبا بن أبي عبيدة الفهري ، ولما افتعل القوم اسبابا لابنه وقتلوه ، قدم الجند أحد اقرباء موسى بن نصير ، وهو ايوب بن حبيب اللخمي الذي لم يتتبع الجناة (1) ، ولم يصنع شيئا غير نقله العاصمة من اشبيلية الى قرطبة (2) .

وينفرد ابن قتيبة برواية التجاء أهل الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى ، الى عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي ليكون واليا عليهم (3) بينما يذكر غيره ، ان الأندلسيين مكثوا بعد ذلك ، اوزاعا لا تجمعهم سلطة ولا يخضعون لوال عدة سنين حتى عين محمد بن يزيد القرشي والي إفريقية من طرف الخليفة سليمان بن عبد الملك ، الحر بن عبد الرحمن القيسي الذي عزل في عصر عمر بن عبد العزيز ، ذلك ان هذا الأخير سلب حق تعيين ولاة الأندلس ، من عمال إفريقية ، ومن أهل الأندلس أيضا ، وجعله من اختصاص الخليفة ، وتحقيقا لذلك عين بنفسه ، على الأندلس ، السمح بن مالك الخولاني ، وعبارة ابن عذاري «وفيها (أي سنة 100 هـ» استخلف اسماعيل بن أبي المهاجر ، على الأندلس ، السمح بن مالك الخولاني» توجه على أن عمر ، عين السمح ، واوصى واليه على إفريقية بتنفيذ ذلك .

غير ان هذا التقليد لم يستمر بعد وفاة عمر ، فعاد امر تعيين ولاة الاندلس شيوعا بين عمال إفريقية ، وأهل الأندلس وقد لعبت العصبية القبلية ، والتحزب لفريق دون آخر ، دورا كبيرا في تعيين ولاة الأندلس ، فبشر بن صفوان الكلبي عين من قبله من أهل العصبية ، عنبسة بن سحيم الكلبي أو أقره ، ثم يحي بن سلمة ، وحنظلة بن صفوان ، انتدب لولاية الأندلس ، أبا الخطار حساما بن ضرار الكلبي ، وعبيدة بن عبد الرحمن

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 285 ـــ 286 .

(2) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص 133 . وفي الاستقصاء ـــ ما يفيد ان موسى انزل ابنه عبد العزيز بقرطبة فاتخذها دار امارة ـــ ج 1 ص 45 .

(3) الامامة والسياسة ج 2 ص 96 ـــ 97 .

السلمي القيسي، عين من قبله عثمان بن أبي نسعه، ثم حذيفة بن الاحوص، ثم الهثيم بن عبيد (1)، وعبيد الله بن الحبحاب، رشح لولايتها، من عصبيته عقبة بن الحجاج السلولي، وفي عصر كلثوم، بن عياض القشيري اغتصب قريبه بلج بن بشر الولاية من عبد الملك بن قطن، لأنه تباطأ في نجدته، ضد الخوارج الصفرية. وخلف بلجا بعد قتله ثعلبة بن سلامة العاملي. وبتغلب عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية، سرى تأثير الاستيلاء والغلبة الى الاندلس فقاتل ثوابه بن سلامة واليها ابا الخطار وهزمه، ودعا الناس الى بيعته مثلما فعل عبد الرحمن بافريقية فبايعوه، ونصب نفسه واليا متغلبا يستمد نفوذه من قوته المادية، وعصبيته لا بعهد من آخر خلفاء بني أميه، ولا بعهد من أوائل بني العباس. فكان ثوابه أول الولاة المتغلبين، أو ولاة الاستيلاء بالاندلس، وقد أشرك معه — ظاهريا — الصميل بن حاتم، وبقيا يحكمان البلاد، حكما ثنائيا الى ان اجمع رأي الصميل، وآراء أهل الأندلس بعد موت ثوابة — على تقديم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، فاستقل بأمر الولاية، وتدعم مركزه عندما ثبته، في المنصب، عبد الرحمن بن حبيب، استجابة لرغبة أهل البلاد (2).

10 — النشاط الثغري لولاية افريقية

وأبرز نشاطات ولاية إفريقية، وقاعدتها البحرية — في نظري — تمثلت في حماية السواحل والثغور الاسلامية، في البدء، ثم في الانطلاق منها للتوسع البحري في جزر البحر الأبيض المتوسط، مثل صقلية وسردينية، والجزر الشرقية (البليار)، بعد ذلك، كما تمثلت أيضا في جهود رجال الولاية في خدمة الرابطة الاسلامية، والمجتمع الجديد في منطقة كانت حتى هذا الوقت خليطا دينيا عجيبا.

فأما اعمال ولاة الفتح في الميدان البحري، فترجع الى وقت مبكر ربما الى حملة معاوية بن حديج. فقد تضافر البلاذري وابن عذاري، على القول بحملة بحرية اسلامية،

(1) يذكر ابن عبد الحكم واليا آخر لعبيدة — هو عبد الرحمن بن عبد الله العكي الذي خلفه في المنصب بعد وفاته عبد الملك بن قطن الفهري. الفتوح ص 292.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب ج 1 ص 68 — 69. واستمر وضع بلاد الأندلس على هذا النحو حتى استبد بأمرها عبد الرحمن بن معاوية واحيا فيها دولة بني أمية التي سقطت في المشرق 132 هـ (749 م) تحت ضربات دعاة آل البيت، ومواليهم.

قادها عبد الله بن قيس نحو صقلية ، فنالت كثيرا من السبي والغنائم ومن ضمنها تحف من ذهب ، وفضة ، بيعت في أسواق البصرة والهند (1).

وهذه الرواية ، وان افتقرت الى ما يؤيدها ، من وضعية المسلمين المستقرة ، في إفريقية ، في هذه المرحلة ، فأنها على الا قل ، توضح مدى اهتمام المسلمين بتتبع الروم في مراكزهم وتصفية بقايا قلاعهم تمهيدا للظفر بالاستقرار في إفريقية . وأستطيع التأكيد بأن تركيز المسلمين جهودهم على صقلية له ما يبرره من موقع صقلية الجغرافي ، ونظرة الروم البيزنطيين اليها ، حتى احتلت في احدى الفترات التاريخية مركز الصدارة في الاستراتيجية ضد المسلمين في إفريقية ، ونلاحظ ان صقلية كانت ملجأ للروم ، والافارقة الفارين من سيوف الفاتحين ، وقد ظهر ذلك خاصة أثناء حصار قرطاجنة واحتلالها على يد حسان .

ولما تحولت صقلية ، الى وكر لبقايا السيوف ، وللمتآمرين ضد أمن المنطقة الاسلامية ، وغدت نقطة يشقى بها من يأمن جانبها من المسلمين ، فان القادة المسلمين وجهوا نظرهم اليها منذ وقت مبكر واستمرت محاولاتهم لاخضاعها ، حتى نجحت هنا نهائيا في القرن الثالث للهجرة وعلى يد الأسرة الاغلبية ، وبعد نجاح عملية الفتح العسكري انفتحت آفاقها للفتح الثقافي ، وانضمت الى اطار الحضارة الاسلامية ، وأسهمت فيها اسهاما معتبرا . وتنصرف المصادر التاريخية عن الاشارة الى أي نشاط بحري حتى ولاية موسى بن نصير ، الذي استهل عصره بالنشاط البحري الواسع ضد صقلية وسردينية وجزر البليار.

فيتفق ابن قتيبة ، وابن عذاري على القول ، بحملة بحرية ارسلها موسى بن نصير نحو جزيرتي صقلية (2) ، وسردينية وكان على حملة صقلية ، أحد اركان حربه ، ويسمى عياشا بن أخيل الذي أصاب مدينة سرقوسة كبرى مدن الجزيرة ورجع غانما ، وقاد حملة سردينية الاولى ، عطاء بن رافع الهذلي ، وقاد الثانية عبد الله بن مرة .

وبينما نجحت طالعة عبد الله بن مرة في مجهودها ضد الجزيرة ، وسكانها فشلت طالعة عطاء لسببين : قلة مهارته ، وعدم أخذه بنصيحة موسى بن نصير ، ثم عدم سيطرته على جنوده حتى ارتكبوا مخالفات ، وغلوا في الغنائم .

---

(1) فتوح البلدان ص 237 - البيان المغرب ج 1 ص 12 .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 36 .

وكأن موسى أراد ان يمحو آثار هذه الهزيمة ، فارسل للغزو البحري في صقلية ابنه عبد الله ، وفي جزر البليار — ابنه مروان — فوفق عبد الله في صقلية توفيقا كبيرا — وكان أخوه مروان اول مسلم تطأ قدمه أرض الجزر الشرقية ، ويفتتح جزيرة ميورقة ، ويرجع سالما ، الى قاعدة تونس البحرية (1) .

ويظهر ان هذا النشاط الثغري لقاعدة تونس أصبح تقليدا متبعا بعد موسى بن نصير ، فمحمد بن يزيد خلفه ، كان يرسل السرايا الى الثغور ، ويزيد بن أبي مسلم ارسل محمدا بن أوس ، على رأس حملة بحرية الى صقلية ، وبشر بن صفوان يستخلف على القيروان ، ويذهب بنفسه على رأس حملة بحرية ضد صقلية ، وعبيدة بن عبد الرحمن يوجه المستنير بن الحبحاب الحرشي ، للنشاط البحري في صقلية . وكان فشله في مهمته ، بسبب التقلبات الجوية ، وعدم خبرته ، بركوب البحر ، موجبا لعزله ، وايداعه في السجن (2) .

وعبيد الله بن الحبحاب يرسل حبيبا بن أبي عبيدة الى صقلية غازيا ، وعبد الرحمن بن حبيب بعد تغلبه على إفريقية ، نراه يمارس نشاطا بحريا واسعا في صقلية وسردينية ، ولاول مرة نجد اشارة الى صلح عقد بين فاتح مسلم ، وبين سكان جزيرة سردينية على اساس قبولهم دفع الجزية للمسلمين في إفريقية (3) .

والذي يستنتج من هذا النشاط البحري للمسلمين ، في جزر البحر الابيض المتوسط القريبة من سواحل إفريقية أن قاعدة تونس البحرية اصبحت في وضع ملائم تماما لكي تقوم بواجب حماية الثغور الاسلامية ، ومد رقعة الولاية الجديدة الى ارض اوربا . وهذا هو الغرض من اقامتها والسر في تعهدها بالتنظيم والتجهيز.

وكانت خطة المسلمين في النشاط البحري ، على نمط خطتهم الاولى في نشاطهم ضد إفريقية والاندلس ، حملات استطلاعية لكشف المنطقة ، تتلوها حملات ملحة للضغط ثم حملات أخرى لضم المنطقة ، والاستقرار فيها نهائيا .

---

(1) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 2 ص 80 — 81 — ابن عبد الحكم الفتوح ص 283 .

(2) ابن عبد الحكم : ص 291 — 292 .

(3) ابن عذاري ج 1 ص 73 .

ومما يؤكد هنا ان سكان صقلية ، كسبوا — من وراء قبولهم للسيادة الاسلامية ، واقبالهم على مظاهر الحضارة الاسلامية — اضعاف ما ربحه العرب المسلمون من ضم بلدهم الى رقعة الولاية الافريقية.

وقد أصبحت صقلية قاعدة ثغرية ثابتة ، ينطلق منها الغزاة لممارسة النشاط البحري ضد كريت ، وغيرها من حصون الروم وجزرهم (1) وضد أوربا ، التي تعرف بالارض الكبيرة (2) ، وضد جنوبي ايطاليا (قلورية) وروما نفسها.

11 — دور الولاية في الحركة الإسلامية

اما جهود عمال الولاية الجديدة التي بقيت آثارها خالدة فهي التي انصرفت نحو خدمة الجانب الروحي والثقافي ، بين سكان اغلبهم وثنيون واقلهم ، موزعون بين التيارات المسيحية ، واليهودية.

وفي هذا الصدد ألاحظ ان حركة الهجرة العربية الى إفريقية ، وهي احدى جوانب الفتح الثقافي ، كان يمكن ان يصفها المغرضون بأنها حركة تخريبية ، قادها مغامرون ، بداة ، فقراء ، ضد مراكز العمران والحضارة ، والاستقرار ، لتحقيق اغراض مادية صرفة ! ! لولا ان خدمات بعض ولاة إفريقية ، للجانب الديني ، كانت بارزة ، وملحوظة منذ بداية حركة الفتح في هذه الديار.

فعقبة بن نافع ، ضرب مثلا في الدعوة الى الاسلام والتبشير به بين البتر في برقة ، وصحراواتها ، وظهر حماسه الديني وهدف اعماله في ذلك الدعاء الذي دعا به عندما باشر بناء قاعدة القيروان : «اللهم املأها علما ، وعمرها بالمطيعين لك والعابدين ، واجعلها عزا لدينك ، وذلا لمن كفر بك ، وأعز بها الاسلام» . اراد عقبة ، منها ان تكون فاضلة ، ومركز انطلاق الدعاة الى مضارب البربر في نواحي إفريقية ، ورباطا للعباد والزهاد ، وقاعدة دينية وثقافية ، تشع انوارها ، فتبدد ظلمات الوثنية والحيرة الدينية في هذه البيئة المضطربة .

وان كرامة هذا الرجل ظهرت ، سواء اثناء تجواله في صحراوات برقة ، وطرابلس ، أو بنائه مدينة القيروان أو أثناء حملته الكبرى ، يضاف اليها حماس منقطع النظير وروح

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 148 و 151 — 152.
(2) المصدر السابق ص 160.

دينية فياضة ، قد جعلت كثيرا من السكان ينجذبون الى الدين الجديد ، فيتصالحون مع دعاته ، ويسكنون حاضرته . وعقبة الذي مثل دور المبشر ، ودور المعلم ، في بدء حياته في إفريقية لم ينس مزايا التبشير ، والتعليم ، في مثل هذه البيئات فاختار للمناطق التي استكانت الى الاسلام ، رجالا في مثل ورعه ، وخلقه وحماسته ، لم تذكر المصادر التاريخية غير رجل منهم اسمه «شاكر» الذي بقي بين المصامدة ، داعيا ، ومعلما . واليه ينسب قصر شاكر الآن .

ونستنتج من ترديد كل المصادر للقول بان عقبة كان مستجابا في دعائه ، وان زهيرا كان رئيس العابدين ، مدى انتشار الحركة الاسلامية في هذه البلاد ، وتعلق الناس بآثار عقبة وتمجيدهم لأعماله ، ومدى تأثيره في عقول السكان خاصة اصحابه ، ومنهم زهير ، الذي ترسم خطاه ، وكان في مثل بساطته ، وحماسه المتقد ، وان قصر عنه في روح المغامرة .

ولا يمكن بسهولة قبول الزعم بان البتر كانوا اكثر اقبالا على الاسلام من البرانس ، أو تصديق الرواية التي تجعل زناتة وفرع مغراوة منها ، ورئيسها صولات بن وزمار ، من موالي عثمان بن عفان وبني أمية — أي ممن سبقوا الى الاسلام (1) .

حقيقة كان أول احتكاك للعرب مع البتر ، ومع زناتة في مضاربها في صحراء المغربين الأدنى والاوسط ، وقد يكون من اثر قدم عهدهم بالعرب انجذاب بعضهم الى الاسلام ، وانضمامهم الى العرب ، وقد يؤكد ذلك ما اشتهر قديما من العداء المتبادل ، بين البتر من جهة ، والبرانس والروم من جهة أخرى ، ويظهر لي ، ان قصة ولاء زناتة للأمويين — من صنع دعاة واخباريي بني أمية ، بالاندلس للتأثير على زناتة ، وكسبها ، الى الصف ، ضد كتامة ، وصنهاجة ، المتشيعتين ، وكان المغرب ، مسرحا لنضال هذه القبائل ، على أساس موالاة الامويين أو اعدائهم الفاطميين ، وفي غمرة النضال ، تآلف اغلب البتر ، واضحى هواهم مع الامويين ، بينما بقي ، أغلب البرانس ، على ولائهم للشيعة الفاطميين .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 7 ص 50 — 51 — السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 36 .

وكذلك نجح أبو المهاجر ، في جذب كسيلة وقبيلة أوربة الى الاسلام ، وهي من فرع البرانس المستقرين ، ولا يستبعد ، ان يتبع اسلامها ، اسلام احلافها ومشايعيها وتمكن عقبة ايضا من اكتساب قبائل المصامدة في المغرب الاقصى الى الاسلام دون قتال ، وهم قبائل مستقرة ، ومتحضرة ، ومن فرع البرانس.

وبقدر ما أضر موت عقبة بتقدم حركة الفتح العسكري بقدر ما افاد حركة الانتشار الديني ، وسهل مهمة الفتح الثقافي ، فالذي تآمر على عقبة وقتله ، هو رجل مسلم مثله ، إنما اقدم على عمله ، لمواقف ساءته ، ولم يفكر قط ان يجعل حدا لنشر الاسلام أو يسيئ الى مراكزه ، أو معتنقيه ، وكان لحادث الاستشهاد صدى قوى عام ، فمن الناس مغتبط ومنهم متحسر ، غير ان الأهم من ذلك التفات بعض من كان منصرفا عن هؤلاء الدعاة الجدد وتساؤله عن سر هذا الجهد ، الذي يودي بصاحبه ، ذلك السر الذي ربما يكمن في حقيقة ما يحمله هؤلاء الدعاة من رسالة انسانية مقدسة .

وعلى أي الاحوال ، فلم تضع جهود عقبة ، ولم تكن في غير فائدة ، ذلك ان من جاء بعده ، من رجال الفتح كان غالبهم متشبعا بالروح الدينية ، ميالا الى نشر الاسلام وتطبيق مبادئه الديمقراطية في البيئة الجديدة ، وليس من محض الصدفة ان يبادر حسان فيقضي على مركز الكنيسة الافريقية باحتلال قرطاجنة ، وعلى قلعة الوثنية ، وبعض مخلفات من الطقوس اليهودية ، باقتحام كتلة أوراس ، والقضاء على الكاهنة ، وكيف نفسر سر اشتراطه على المستأمنين مقابل منح الأمان لهم ، أن يسلموا ، وينتموا الى العرب ، أو اشراكه للمسلمين الجدد ، في مسؤولية القيادة ، والجهاد لنشر الدين ، أو عنايته البالغة بمسجد عقبة حيث جدده حتى بدا في صورة بهيجة .

وأكمل مجهود حسان ، موسى بن نصير ، فأسلم بقية المصامدة في عصره ، وبني جامعا في تلمسان (1) ، وجعل طنجة ، مدرسة كبرى للتعليم الديني ، ومركزا لتجمع رهائن البربر وأمر ان يعلم العرب ، البربر القرآن ، واصول الشريعة الاسلامية ، وقام بهذه المهمة الانسانية سبعة عشر معلما كانوا عمدة موسى ، وطارق في مد الحركة الاسلامية ، الى جزيرة الأندلس . وقد اثمرت حركتا التبشير والتعليم بين البربر ، فأسلم اغلب سكان

(1) الكعاك : الحركة الثقافية ص 13 .

المغرب الاقصى ، واقاموا الشعائر الدينية ، وبنوا المساجد ، وأقاموا فيها المنابر ، وحولوا بعض الكنائس الى مساجد . ومن أهم ما بني في هذه الفترة ، مسجد أغمات هيلانه (1) . واشتدت حركة الدعوة الاسلامية ، في عصر عمر بن عبد العزيز ، وواليه على إفريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر فأبطل هذا الاخير عادة دفع الابناء في الجزية — في اقليم برقة — وصحح الوضع القديم تطبيقا لقول عمر « من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها أو فليرجعها » (2) .

ورغَّب البربر في مزايا الاسلام فاعتنقه من بقي منهم مشركا ، أومسيحيا ، أومترددا ، وعكف على تمكين الاسلام من نفوس المسلمين الجدد ، بنشر الثقافة الدينية ، وتعليم الناس الفرائض ، والحلال ، والحرام ، وقد استند مجهوده ، على نخبة من التابعين بلغ عددهم عشرة — اشتهروا بالفضل والعلم ، ورواية الحديث — فأخذ عنهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (3) ، واسترشد بهم أهل إفريقية في أمور دينهم ودنياهم ، ومن ذلك ان مسلمي إفريقية الجدد كانوا يشربون الخمر ، جهلا بحرمتها حتى بين هؤلاء العلماء حرمتها ، التي تأكدت بمجيء أفواج من المهاجرة ، ومن الجند من مشرق الدولة ، ونقلهم الى إفريقية ، قضية حرمتها في المشرق (4) .

وبواسطة هؤلاء الفقهاء انتقلت التيارات الثقافية من المشرق الى المغرب فانتشر علم المدينة ، ومذهب المدنيين ، وطرق الاجتهاد ، وحياة الزهد ، والتقشف . وبفضل عدم انقطاع سيل الهجرة الى المغرب ، هجرة الرجال ، وتنقل ارباب المذاهب ، والافكار ، تعلم السكان مبادئ الدين ، والعربية ، وحفظوا القرآن ، وبنوا المساجد فأكثروا . وكانت في هذه الفترة ، دور عبادة ، ومراكز علمية ، ومنتديات اجتماعية وسياسية .

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 36 — 37 .

(2) البلاذري : فتوح البلدان ص 227 — فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 285 .

(3) أحد قضاة افريقية في نهاية العصر الأموي ، وبداية العصر العباسي توفي سنة 161 هـ أي في عهد يزيد بن حاتم المهلبي الذي حضر جنازته في القيروان .

(4) بوالعرب تميم : الطبقات ص 20 — 21 — المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 64 — 65 ويظهر لي : ان استمرار الناس على شرب الخمر ، كان تطبعا ، وألفا لا عن جهل بحرمتها ، لان هؤلاء مسلمون ، كغيرهم يقرؤون القرآن ، وآية التحريم فيه واضحة وصريحة .

ويذكر المؤرخون أن أغلب هؤلاء التابعين بقوا في القيروان عاكفين على أداء مهمتهم السامية حتى توفاهم الله.

وتمكن بعضهم من بناء مساجد كانت تقام فيها حلقات التدريس والافتاء، ومجالس القضاء — وأهمها مسجد الزيتونة الذي ينسب لأسماعيل ابن أبي المهاجر، ومسجد الحبلي- ومسجد ابن أبي مسيرة، ومسجد محمد بن خيرون بالقيروان، ولم يكن هؤلاء العلماء، بمعزل عن الحياة السياسية. فقد اتضح دورهم السياسي أثناء قيام الفتنة الخارجية في إفريقية، فقد جمعهم حنظلة بن صفوان، واستشارهم في كيفية مواجهة الوضع، ومحاربة البدع — فكتبوا اليه رسالة وجيزة الى أهل طنجة، فيها توضيح لمقاصد الاسلام كما جاءت في القرآن الكريم (1).

ونستنتج من كثرة بناء المساجد الذي أصبح تقليدا لمن جاء بعد هؤلاء التابعين اطرادا، لانتشار الحركة الدينية والثقافية الاسلامية، ذلك اننا عندما نتصفح كتب الطبقات، نلاحظ ان عليا بن رباح اللخمي الذي توطن القيروان بني بها مسجدا قرب باب نافع، احد أبواب القيروان، واتخذه مركزا لتعليم السكان. ومثله حنش الصنعاني، الذي بني مسجده في ناحية باب الريح. وزياد بن أنعم استقر بافريقية، وبني بها مسجدا في ضاحية باب نافع. وعبد الرحمن بن اشيفع بن وغلة الشبياني بنى بافريقية مسجدا، واختار القيروان مستقرا وسكنا. ويستمر اتجاه الاستقرار في افريقية، وبناء المؤسسات الدينية والثقافية فيها، استمرار عاديا، نؤكده بتكرر عبارة «سكن افريقية واستوطنها» في كثير ممن ترجم لهم أبو بكر المالكي في كتابه» رياض النفوس» (2).

ونستطيع بعد ان ناقشنا حركة انتشار الاسلام في إفريقية ان نشير الى ان المراكز الثقافية في هذه الفترة المبكرة، تمثلت في الكتاتيب، وكانت في البدء خياما، ثم اصبحت، بعد حركة الاستقرار دورا .. وأول اشارة الى الكتاتيب في إفريقية، ترجع الى نهاية القرن الأول الهجري ذكرها الدباغ في ترجمة سفيان بن وهب الخولاني، برواية غياب بن أبي شبيب ونصها «كان سفيان بن وهب يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان،

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 66 — 67. أنظر الملحق رقم 2.

(2) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 84 وما بعدها.

فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه» (1) . كما تمثلت في المساجد الجامعة ، واهمها جامع القيروان ، الذي كان الى ذلك ، معسكرا ، ومعبدا ، ثم جامع تلمسان الذي بناه موسى بن نصير ، ليقوم في المغرب الأوسط ، بنفس الدور الذي اضطلع به مسجد القيروان في إفريقية .

واكملت هذه المهمة الدينية والتثقيفية ، جملة من المساجد الخاصة ، التي اسست احتسابا لوجه الله تعالى ، وكانت كثيرة الانتشار . ولا ننس أخيرا دور الرباطات والقصور والمحارس على طول ساحل الولاية من الاسكندرية الى طنجة ، والى عدوة الاندلس ، ودور الارساليات العلمية ، والهجرات العربية ، واستقرار العلماء واصحاب المذاهب في بيئة المغرب خدمة للعلم والدين (2) .

وكانت النتيجة حسنة ومفيدة بالنسبة لرعاة الحركة ، وللمجتمع الاسلامي الجديد ، في إفريقية ، وتلخصت في عبارة جامعة تضمنتها رسالة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، الى أبي جعفر المنصور : «ان إفريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها» (3) .

وكان من آثار الحركة الثقافية ، التي رعاها رجال الدعوة ، والفتح ان غدت القيروان مرجلا يغلي بالدراسات ، والنقاش المذهبي فتنوعت حلقات مساجد القيروان ، ما بين واصلية ، وخارجية ، وسنية ، وشيعية ، وتعايشت فيها مذاهب العراقيين ، والشافعية ، والمالكية ، والاوزاعية ، والظاهرية ، حتى كتب الظفر نهائيا ، على يد أسد بن الفرات ، ثم على يد سحنون للمذهب المالكي ، وللتيارات المدنية ، ومحيت المذاهب الأخرى خاصة منها مذهب أبي حنيفة النعمان (4) .

---

(1) الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 120 ـ وفي ج 2 ص 13 ـ حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ج 1 ص 79

(2) الكعاك : مراكز الثقافة ص 12 ـ 14 . وأشهر الاربطة والمحارس المنستير ، وشقانص ، ، والبحر ، والطوب ، ورباط سلا وسيدي شاكر وماسه ونول المطة واوليل ، وقد لاحظ ابن حوقل بخصوص احدها وهو رباط سلا ان «الناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت» فهو بذلك أكبر وأهم من رباط جزيرة أوليل ، مركز الملح ، ومهد حركة عبد الله بن ياسين أساس دولة المرابطين صورة الارض 74 ـ 75 ، 82 ، البكرى 161 ، 171 ، شعيرة : المرابطون 39 ـ 47 .

(3) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 76 .

(4) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 165 ـ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 92 .

12 ـــ النظام العسكري في ولاية افريقية

وليس بأيدينا الا بعض اشارات قليلة عن النظام العسكري في ولاية إفريقية ، ومع ذلك يمكن استثمارها في استنتاج بعض حقائق هامة : أولاها تتعلق بالاستراتيجية التي سار عليها العرب في فتوحاتهم في ارض إفريقية ، ويظهر انها ارتكزت في البداية على نظام الحملات الكشفية ، أو ما يسمى بـ «الطوالع» التي تتلوها الحملات العسكرية الضاربة (1) .

ويلاحظ أنه لم يدخل ارض إفريقية ، جيش ضارب قبل عصر حسان ، وموسى بن نصير ، وقد اعتمد العرب في تأمين ظهورهم ، وفتوحاتهم ، على مجموعة من الحصون ، والمعسكرات كانوا يقيمونها في الاراضي التي تم التفاهم مع سكانها ، وكانت كل منطقة من إفريقية تؤدي الى غيرها ، وتكاثرت القواعد العسكرية الثابتة بتقدم حركة الفتح ، ففي البدء كانت برقة أول قاعدة ثابتة للعرب مما يلي مصر ، وبتقدم الفتح ، أصبحت طرابلس قاعدة أخرى ، وعندما توغل المسلمون في افريقية ، بنوا معسكرا ثابتا في القرن وفي نفس المكان ، والاقليم بنوا قاعدة القيروان ، فأضحت أم هذه القواعد ، ومنطلق المسلمين لممارسة نشاطهم الثغري ، والديني في إفريقية .

ويظهر ان العرب ، ادركوا منذ زمن مبكر نسبيا ، ان لا استقرار لهم في هذه البلاد ، ما دامت قرطاجنة رافعة الرأس ، بعيدة عن مجال نشاطهم ، لذلك تشير بعض النصوص التاريخية الى حصار قرطاجنة في عصر دينار أبي المهاجر ، انتهى بتنازل الروم عن شبه جزيرة شريك التي أصبحت محرسا اسلاميا تضيق منه قرطاجنة ذرعا .

وعندما اتسعت حركة الفتح ، في عصر موسى بن نصير ، اصبحت طنجة رباطا ، وآخر قواعد الاسلام الثابتة في ولاية إفريقية ، وتحولت مدن اشبيلية ، والجزيرة ، وقرطبة ، وطليطلة ، الى رباطات اسلامية ثابتة في عدوة الأندلس ، وكانت اربونة ، في اقليم سبتمانيا وراء جبال البرانس آخر قواعد الاسلام الثابتة ، في الأرض الكبيرة .

واهتمام المسلمين بالقواعد البحرية في إفريقية ، وان ظهر متأخرا نسبيا ، الا انه لم يقل عن اهتمامهم بالقواعد البرية . ففي عصر حسان قامت كبرى قواعد الولاية البحرية

---

(1) أبو العرب تميم : الطبقات ص 15 .

في تونس فسهرت على النشاط الثغري في جزر البحر الأبيض المتوسط مثلما قامت بـه قاعدة المسلمين البرية ، فيما وراء جبال البرانس ، وفي سبتمانيا وهي اربونة .

وان رعاية ولاة إفريقية ، بعد حسان لقاعدة تونس لتدل دلالة واضحة ، على تقدير أهمية القواعد البحرية ، في النشاط الثغري ، وقد انضمت الى هذه القاعدة ، فيما بعد قواعد أخرى ، في المنستير ، وسوسة ، والمهدية — وأسست في غير هذه المدن ، الرباطات والمحارس ، على طول ساحل الولاية — ويكفينا التنقيب في تراجم علماء وصلحاء ، وعباد الولاية لنلاحظ جانبا كبيرا من هؤلاء المرابطين . فأبو العرب تميم يذكر في ترجمة أبي محمد بن حكمون أن : الغالب عليه العبادة وسكن المنستير للرباط (1) .

وفي ترجمة أبي عثمان الخولاني «أنه سكن المنستير للرباط (2) .

أما عبد الله البرقي فقد مات بسوسة مرابطا (3) .

وقد كان الجيش الذي دخل إفريقية ، عربيا ليس فيه عنصر الموالي ، وكان قبليا ، وقيادته قبلية ، ويكفينا ان نستعرض اسماء بعض القبائل ، وعدد أفرادها الذين اشتركوا في حملة ابن أبي سرح لنؤكد معنى التوزيع القبلي ، ونوع القبائل التي هاجرت الى هذه البلاد واستوطنتها ، ثم لنعرف ولو الى حد ما ، بعض أصول عرب اليوم .

فاشترك بنو أمية وكان على رأسهم مروان بن الحكم ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وكان لواؤهم في يد عبد الله بن الزبير — وبنو زهرة ومثلهم المسور بن مخرمة — وبنو تيم ، وتزعمهم عبد الرحمن بن أبي بكر — وبنو عدى ، وكان من وجوههم ابناء عمر : عبد الله ، وعاصم ، وعبيد الله — وبنو سهم ، وبرز فيهم عبد الله بن عمرو بن العاص — وبنو عامر ، وظهر فيهم بسر بن أبي أرطاة — وبنو هذيل ، واشهر رجالهم أبو ذؤيب الشاعر الذي توفي في إفريقية . وأسهمت قبيلة جهينة ، بستمائة رجل — وقبيلة أسلم بثلاثمائة رجل — ومزينة بثمانمائة رجل — وغطفان ، وفزارة ، ومرة ، بسبعمائة رجل — وكعب بن لؤى بأربعمائة رجل (4) . ولو ان هذه القبائل استقرت في إفريقية ، واستوطنتها ، لقلنا ان الغالبية من عرب إفريقية اليوم يرجعون في نسبهم الى أصول شمالية .

(1) الطبقات ص 165 .
(2) نفس المصدر ص 166 .
(3) نفس المصدر ص 178 .
(4) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 9 — 10 — أبو العرب تميم : الطبقات ص 14 .

لم يبق الجيش في إفريقية عربيا خالصا ، كما كان الحال في الجيوش الأموية في المشرق ، فبدأ هنا يتسرب اليه عنصر الموالي الجدد . وقد لاحظنا أثناء حصار عقبة من طرف قبائل البربر في جبال درن ، اسراع بعض هؤلاء من المسلمين في نجدته ، وفك الحصار عنه ، وفي عصر دينار أبي المهاجر انجذب كسيلة الى دينار ، واصبح لايفارقه ، ولا يستبعد ان يكون قد انضم الى جانب المسلمين ، فريق من قبيلة أوربة ، واحلافها كجند متطوعة — خاض بهم ، دينار تخوم المغرب الأوسط حتى تلمسان .

ويظهر عنصر الموالي ظهورا بينا ، في القيادة ، وفي سياسة نشر الاسلام ، وفي اخضاع الثائرين ، على عهد حسان بن النعمان ، وبنفس المستوى أو اكثر شمولا ، على عهد موسى بن نصير حيث أصبحت القيادة حتى على العرب انفسهم ، يتولاها رجل من الموالي ، وينهض تقديم طارق للقيادة على جيش الفتح في الأندلس ، وكان خليطا من العرب ، والبربر — دليلا على مدى ما بلغه عنصر الموالي في الميدان العسكري في افريقية واذا كنا قد لاحظنا من قبل غلبة النزعة الشمالية ، على جيوش الفتح ، والحملات الاستطلاعية الأولى — فان الوضع انتهى بسبب عدم استقرار أغلب الشماليين ، الى غلبة العنصر الجنوبي على الجيش في إفريقية والأندلس — سيما بعد قدوم الجيوش الضاربة التي صحبت حسانا ، وموسى بن نصير ، وبشرا ، وحنظلة بن صفوان — وبعد نشاط حركة التهجير الشامي الى عدوة الأندلس ، وتوزيع القبائل على أجنادها ، وكورها — مثلما كان عليه الوضع في أجناد الشام .

ولم تشر المصادر التاريخية ، الى الاسلوب الذي كان ينتهجه العرب ، في قتالهم مع الروم ، ولم تفدنا بتفاصيل مرضية عن بعض معاركهم الفاصلة ، ولا عن نظام التعبئة الذي كان يطبق قبيل المعركة — وانما نستنتج فقط من بعض الاشارات الخفيفة ، أن نظام التعبئة ، وهو تقسيم الجيش الى مقدمة ومؤخرة ، وميمنة ، وميسرة وقلب ، بقي معمولا به ، لأنه أسلوب القتال عند الروم ، ولم يمارس العرب قتال الصف أو الزحف ، الا في نطاق محدود ، وفي معركة سبيطلة ، التجأوا لأول مرة — الى نظام الراحة — أي تقسيم الجيش الى قسمين ، قسم يقاتل العدو نصف اليوم الأول ، ثم يستريح ، ويترك مكانه للنصف الآخر . وكان هذا التدبير — مفاجأة مذهلة للروم زعزعت صفوفهم ، وضمنت للمسلمين النصر النهائي (1) .

(1) السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 18 .

وليس الى الشك سبيل في أن قادة الجيوش العربية في إفريقية كانت تنقصهم المهارة في القيادة ، والخبرة في أساليب حصار المدن المسورة . وقد لاحظنا عجزهم ، وحيرتهم أمام مناعة أسوار طرابلس ، وحصون ، جلولاء ، وباغاية وسبتة .

ولم تسعفنا المصادر التاريخية ، بما يفيد توزيع ارزاق الجند ، وسكتت أيضا عن مواعيدها ، ومبالغها ، وكل ما يمكن أن نثبته في هذا الشأن ، نعتمد فيه على اشارة وردت في ابن عبد الحكم ، ونصها : فلما ادبر عبد الله بن موسى ألحقه يزيد رسولا ، بأن أعط من مالك عطاء خمس سنين (1) .

فنستنتج منها ان كل جند نظامي كان له عطاء سنوي ثابت يصرف له من خزينة الولاية ، وكان الوالي هو المسؤول عنه ، وفي تفسير موقف يزيد بن أبي مسلم من عبد الله بن موسى يحتمل ان هذا الأخير قطع عن الجند أرزاقهم في عهده فاستمر هذا القطع ، حتى نهاية ولاية محمد بن يزيد القرشي ، فاعتبر الاثنان مسؤولين عما حدث فأخذ عبد الله بالعزم وعذب محمد بن يزيد ومنع عنه الماء فلما ألح في طلبه ، سقى رمادا (2) .

ويحتمل ان يكون يزيد بن أبي مسلم ، جرى فقط على سنن الولاة قبله فكان المنتصب منهم يفتتح نشاطه ، باعانة سلفه ومحاسبته ، وموقف يزيد من عبد الله موقف مستدرج ، ذلك ان عبد الله كان بالمشرق ، فما الداعي لاستصحابه الى إفريقية ؟ وما سر هذا الاهتمام ؟ أو التظاهر أمام المرحبين ، من أهل القيروان ، بأنه صاحب نصيب في الحكم ؟ ان لم يكن الأمر مدبرا والخطة محكمة النسج .

13 — النظام المالي في الولاية الجديدة

وكانت الادارة ، في الاقاليم الاسلامية تهتم ، بالدرجة الأولى ، بتنظيم الناحية المالية . واصلاح مالية الدولة من أظهر ما عنى به عمر بن الخطاب ، وانصرف اليه بكليته حفيده عمر بن عبد العزير ، ويغلب على الظن ان النظم المالية التي طبقت في ولاية إفريقية كانت مشابهة لما وقع في اقاليم الدولة الاخرى مع بعض الاختلافات البسيطة كاشتراط عمرو بن العاص على أهل برقة ان يبيعوا في جزيتهم من أولادهم من احبوا ،

(1) ابن عبد الحكم ج 1 ص 288 .

(2) نفس المصدر السابق والصفحة .

ومثل بقاء التعامل في إفريقية بالسكة الرومية التي ضربها جرجير بعد اعلان انفصاله عن الدولة ، وهي التي نسبت اليه ، (1) ومثل أخذ العرب للمواشي في الجزية في إفريقية وفي النوبة .

والجوانب المالية في الاقاليم الاسلامية كلها هي : الغنائم ، والفيئ : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والعشور . فالغنائم هي أموال الكفار التي يظفر بها المسلمون ، في دار الحرب على وجه الغلبة والقهر ، وتكون أسرى من المحاربين ، وسبيا من النساء والاطفال ، وأموالا منقولة ، وارضين وحكم الاسلام في الغنائم ، ان تقسم سوية بين المحاربين والفيئ . هو المال الذي يصل الى المسلمين ، دون سعي ، ولا ايجاف خيل ، ولا ركاب والحكم فيه : ان يقسم الى خمسة اقسام ، تودع اربعة أخماس في بيت المال ، وكانت من قبل تقسم بين الجند وتشترى بها الاسلحة والمعدات .

ويقسم الخمس الباقي ، على خمسة أجزاء جزء لرسول الله ينفق منه على نفسه — وقد سقط بموته ـ والاجزاء الاربعة سهم لذوى القربى من آل الرسول . وسهم لليتامى . وسهم للمساكين . وسهم لابن السبيل (2) . والخراج : مقدار معين من النقد أو من الحاصلات يفرض على الاراضي التي فتحت عنوة ، اذا لم تقسم بين الفاتحين وتركت بيد أهلها ، وعلى الاراضي التي استحوذ عليها المسلمون دون قتال ، اذا اتفقوا مع أهلها ، وهذا الوجه المالي ، لا يتأثر بالاسلام ، لأنه ضريبة عقارية ، تتعلق بالارض .

والجزية : هي مال يؤخذ من أهل الذمة في مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين ، وهي ضريبة رؤوس — وتتأثر بالاسلام — وقد وقعت التفرقة بين مصطلح ، الجزية والخراج فيما بعد ، وكانت الجزية اسبق ظهورا — وتؤدي المعنيين معا — ووردت في القرآن الكريم (3) .

---

(1) أنظر رياض النفوس للمالكي ج 1 ص 80 حيث يروي في سياق ترجمته لأبي سعيد كيسان المقبري : أنه استلف دينارا جرجيريا من رجل على أن يعطيه منقوشا بمصر . وقد شك مؤنس حسين فيما رواه ابن عبد الحكم ، عن ضرب عملة ذهبية في عهد جرجير ، على أساس ان مقال توكيسية عن مخلفات جرجير ، لم يشر الى ذلك . ويظهر لي ان كاتب المقال لم يطلع على اشارة المالكي ، التي غفل عنها أيضا ، مؤنس حسين . أنظر فتوح العرب للمغرب : ص 84 .

(2) عملا بقوله تعالى : «ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» .

(3) قال تعالى : «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» .

والزكاة ، أو الصدقة مال معين حدده الاسلام ، ومنحه من يستحقه ، بشروط مخصوصة .

أما العشور فهي : الضرائب التي تؤخذ من تجار المشركين ، على بضائع ادخلوها الى دار الاسلام ، وتقدر بالعشر ، أو بنصفه — على حسب المصلحة العامة ووضعية التجار.

ويرجع أن أول جزية فرضت في إفريقية ، هي تلك التي وظفها عمرو ابن العاص ، على بربر لواتة في برقة بعد ان صالحهم ، وكانت عبارة عن ثلاثة عشر ألف دينار ، سجلها عمرو في الصلح ، كما سجل عليهم شرطا آخر غريبا هو : ان يبيعوا في ذلك من ابنائهم ، ونسائهم من ارادوا.

ويظهر لي أنه لا مجال هنا لقبول رأي طريف ، يفسر الابناء بالعبيد (1) لسببين : وجود كلمة « نسائهم » عطفا على الابناء ، وعدم وجود أية اشارة في المصادر التاريخية المعاصرة ، يفهم منها هذا المعنى ، بينما العكس هو الصحيح. فقد نقل البلاذري عن الليث بن سعد تعقيبا على شرط عمرو قوله : فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم (2) ، وابطال عمر بن عبد العزيز هذا التقليد يؤكد ان المقصود في النص الابناء حقيقة ، ويبدو مقبولا القول بان عادة بيع الابناء ، كانت موجودة بين بربر لواتة ، وان عمرا لم يحاول تغييرها ، وانما كل ما عمله انه سهل على أهل برقة فجعل لهم مجال الاختيار بين الابناء واسعا ، ولعل هذه المعاملة الحسنة ، هي التي جعلتهم دون غيرهم ، اسلس قيادا ، فكانوا يرسلون جزاهم رأس كل سنة الى والي مصر ، دون ان يأتيهم السعاة والجباة ، ومن أجل ذلك ، وصفوا بكونهم أخصب قوم بالمغرب ، وأبعدهم عن الفتنة (3) ، وقد سهر عقبة أثناء عمله في صحراوات برقة وزويلة ، على أخذ الزكوات من المسلمين ، والجزى من أهل الذمة ، ومقدار الصلح ، من أهل العهد.

أما أول غنيمة ظفر بها المسلمون فكانت على حساب قبيلة نفوسة ، في مدينتي طرابلس ، وصبرة ، فقد استعصت عليهم الاولى ، وعندما تبينوا ثغرة في سورها من الجانب البحري نفذوا اليها وأخذوها ، واستولوا على ما وجدوه في السفن الراسية في

---

(1) شعيرة : محاضرات في المغرب العربي — 1960 — 1961 — .
(2) البلاذري : فتوح البلدان ص 227 .
(3) نفس المصدر ص 226 .

مينائها ، ونقلوا الأسرى (1). وقد قسم المغنم في هذه المرة ، كما قسم مغنم سبيطلة ، وجلولاء ، وجزيرة شريك ، وتم في عهد دينار ، الصلح بين المسلمين ، والافارقة ، ونصارى البربر ، على أساس الجزية والخراج (2) .

ولما كانت الجزية عنوانا على التبعية للسيادة الاسلامية فقد كان المسلمون يعرضونها على المشركين ، في المرتبة الثانية بعد الاسلام ، وقد عرضوها فعلا على جرجير فأبى ، وهزىء منهم ، فكلفه موقفه حياته ، وغرما كبيرا تحمله الروم والبربر ثمنا لانسحاب المسلمين الى الفسطاط .

وكان جوليان ، أمير سبتة ، أوفر حكمة عندما قبل مبدأ الجزية زمن موسى بن نصير (3) ، وخضع أهل صقلية لمبدأ الجزية بعد نجاح حملة حبيب بن أبي عبيدة في عصر عبيد الله بن الحبحاب ، كما استكان لها ، أهل سردينية بعد نجاح حملة ابنه ، عبد الرحمن ، وان كنا لانعرف شيئا ، عن نوعية هذه الجزى ، ومقاديرها ، ومن المحتمل أن تكون نقدية في سردينية ، لما اشتهرت به من جدب ، وعينية في صقلية ، لاشتهارها بالخصب .

لم نلاحظ ، ورود مصطلح الخراج ، في ولاية إفريقية ، قبل عصر حسان ويظهر أنه كان يقصد به ما يعم ضريبة الرؤوس ، وضريبة العقار ، وقد ألزم حسان الأفارقة بالخراج ، هم ، ومن انحاز اليهم من نصارى البربر ، من فرع البرانس . وصنيع حسان وقع التعبير عنه بصيغة متشابهة في أغلب مصادر هذه الفترة . ونصها : «صالح حسان على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية» (4) وان كنا لم نلاحظ في هذه المصادر ما يشير الى نوع الخراج ، ولا الى مقاديره .

اما من اسلم من الافارقة والبربر ، فقد أصبحوا «مسلمين» وهؤلاء ترتفع عنهم الجزية ، وتجب عليهم في أموالهم الزكاة فقط ، ويحتفظون بأراضيهم ، ولهم اذا قاتلوا مع المسلمين ، حق في الغنائم والفيء ويستخلص مما أورده كل من المالكي ، وابن عذاري : ان حسان

(1) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 10 .
(2) نفس المصدر ص 20 — 21 .
(3) السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 45 .
(4) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 271 — ابن عذاري : البيان ج 1 ص 30 .

اعتبر أراضي الافارقة ونصارى البر بر ، من نوع الأراضي الخراجية المصالح عليها وأراضي المسلمين ، من هاتين الفئتين ، من نوع الأراضي العشرية .

ولم تفدنا المصادر بشيءٔ ، عن نسبة الأراضي العشرية للأراضي الخراجية في إفريقية في هذه الفترة المبكرة ، مع أهمية ذلك لمن يتتبع تطور الحركة الاسلامية وانتشارها .

وقد عرفنا في وقت متأخر نسبيا ، ان ضرائب برقة وحدها بلغت مليون درهم ، وضرائب إفريقية بلغت ثلاثة عشر مليون درهم ومائة وعشرين بساطا ، ونقصت هذه المقادير قليلا في عهد المعتصم العباسي ثم في أواسط القرن الثالث الهجري (1) .

ولم تشر المصادر الى اهتمام المسلمين بمسح أراضي افريقية أو باحصاء سكانها لمعرفة مقدار الجباية ، وأول عمل من هذا النوع ، يرتبط بيزيد بن أبي مسلم الذي احصى أموال البربر ، موالي موسى بن نصير واولادهم تمهيدا لتخميسهم (2) .

ثم بعمر بن عبد الله المرادي ، الذي اراد تطبيق التخميس على البر بر المسلمين . وتكسير أرض إفريقية ، أي مسحها وقع بصفة شاملة ، في العصر الموحدي ، أي القرن السادس الهجري ، فقد أمر عبد المؤمن سنة 555 هـ بمسح أراضي المغرب كلها ، بقصد توظيف الخراج عليها (3) .

وكانت الغنائم في إفريقية يوجه خمسها الى مصر ، وتقسم الاربعة الأخماس الباقية على الغانمين ، على أساس التفاضل بين الراجل والفارس ، وذلك يكون بعد انجلاء الحرب ، اما قبل ذلك فيحرسها رجل يعرف « بصاحب المقاسم » ، وكان الخروج على نظام التخميس ، مخالفة كبرى ، تستوجب النقمة والنكبة ، كتلك التي حلت بموسى بن نصير . ذلك ان سليمان بن عبد الملك ، بينما كان يتفقد الغنائم التي جلبها موسى بن نصير ، انطلق اليه عيسى بن عبد الله الطويل رئيس المغانم في جيش ابن نصير ، وقال يا أمير المؤمنين « ان الله أغناك بالحلال عن الحرام ، واني صاحب هذه المقاسم وان موسى لم يخرج خمسا من جميع ما اتاك به » (4) . فغضب سليمان ، وأودع جميع

---

(1) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص 215 — 217 . ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلامية 422 وما بعدها .

(2) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 288 .

(3) السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 156 .

(4) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 247 .

الغنائم في بيت المال إحتياطا . وسرقة أموال المغانم ، والاحتفاظ ببعضها على مستوى الاشخاص قبل القسم ، يسمى غلولا ، وهو أيضا مخالفة كبرى ، وقد وقعت مرتين الاولى أثناء فتح الأندلس ، وثانيتهما ، في حملة جزيرة سردينية ، وقد نال الخونة ، جزاء قاسيا (1) .

وكان لقائد الحملة حرية في اجزال العطاء لبعض جنوده الشجعان ، ويسمى ذلك نفلا ، والغرض منه مكافأة بعض الجنود على حسن صنيعهم كما فعل ابن أبي سرح مع ابن الزبير ، فنفله بنت جرجير ، لدوره الكبير في انهاء معركة سبيطلة لفائدة المسلمين ، ومثلما فعل ابن حديج ، فنفل الجند نصف خمس غنائم جلولاء مكافأة لهم ، فكان صنيعه مثارا لاعتراض بعض الورعين في جيشه ، لأنهم رأوا ذلك بدعة ، وخروجا عن قانون الغنائم (2) .

وكانت الاسلاب التي يجلبها جزء من الجيش ، تضم الى مجموع الغنائم ، وتقسم بين جميع أفراد الجيش ، ولا تختص بها السرية أو أفراد البعث فقط ، وقد أمر معاوية بن أبي سفيان ، بذلك في سبي جلولاء ، على خلاف رأي قريبه عبد الملك بن مروان وعلل الخليفة رأيه ، بعلة معقولة لخصها في قوله : « ان العسكر ردء للسرية » (3) .

وجرى ولاة إفريقية ، على الالتزام بقانون الغنائم ، ومن ذلك ان محمدا ابن يزيد القرشي ، كان يرسل السرايا ، الى الثغور فما أصابه قسمه على الغانمين ، على حد تعبير ابن عذاري (4) .

وأقدم نص اسلامي جامع يفيد تطبيق جميع الجوانب المالية في إفريقية ورد في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، على صيغة رسالة بعثها عمرو بن العاص الى الخليفة عمر « يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة ، وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، واقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ، ومن بينه وبينها ، ما رأى انهم يطيقونه وامر عماله جميعا ان يأخذوا

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 281 — 283

(2) نفس المصدر ص 260 — هنا يذكر ان جبلة بن عمرو الانصاري هو الذي أنكر ذلك .

(3) نفس المصدر ص 261 .

(4) البيان ج 1 ص 45.

الصدقة من الاغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة ، فتحمل اليه بمصر ، وان يؤخذ من المسلمين العشر ، ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم» (1) .

ومن هذا النص يفهم ان المسلمين لا تؤخذ عليهم في أموالهم غير الزكاة ، بنسبة العشر أو نصفه ، ولا تفرض عليهم جزية ولا يوظف عليهم خراج ، اذ هما من خصائص أهل الذمة ، ولا يزاد على أهل الصلح ، شيء عما وقع الاتفاق عليه ، ولهذا كان صنيع يزيد بن أبي مسلم تجاه مسلمى البربر مخالفا لروح الاسلام ، وكان قتله على يد أحد حراسه البربر ، ويسمى حريز بداية لرد فعل المسلمين الجدد ، ضد كل ما اعتبروه خروجا عن مبادئ عمر (2) .

ومن العجيب ان نهاية يزيد بن أبي مسلم ، لم يتعظ بها عبيد الله بن الحبحاب وعماله على النواحي الذين اسرفوا في المغازى ، وفي السبي ، وفي التهاتف على طرائف المغرب ، لأتحاف كبار رجال الدولة في دمشق — وقد استاء المسلمون الجدد ، من سياسة عمر بن عبد الله المرادي ، عامل ابن الحبحاب على طنجة ، فانتفضوا عليه ، وقتلوه ، ونشروا لهب الثورة في المغربين وفي إفريقية ، على أسس الحركة الخارجية ، وبهدف ازالة الجور ، وارساء قواعد الاسلام ، كما جاءت في القرآن والحديث ، «فكان فعله الذميم هذا سببا لانتقاض البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد ، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله» (3) .

---

(1) أنظر فتوح البلدان ص 226 .

(2) فلهوزن : الدّولة العربية ص 259 — 286 (الترجمة العربية) .

(3) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 52 .

الباب الخامس

حركة الخوارج الصّفرية والإباضية في إفريقية وبلاد المغرب

منذ سنة 122 الى 178 هـ

— تمهيدات
— الحركة الصفرية وولاة المغرب وافريقية
— الحركة الأباضية ، وولاية افريقية

1 — الحياة الإسلامية الأولى

نعم المسلمون فترة قصيرة ، أثناء قيادة الرسول (ص) ، بحياة مثالية بسيطة في كافة ميادين الحياة ، في العقائد ، وفي السياسة ، وفي الحياة الاجتماعية ، وشملهم اغتباط وعمتهم السكينة ، وامتلأت نفوسهم ، راحة ، وطواعية واستقامة .

فلما رزئوا بفقد الرسول ، القائد والمشرع ، والحكم ، هالهم ان يحتل أحد مكانه ، في المرحلة الأولى ، ثم انصرف كل فريق يلتمس لنفسه الاعذار والحجج ، ليبرهن على مدى أهليته وحده لنيابة الرسول بعد اختفائه ، ومن ثم لاعجب اذا قلنا ان بداية ظهور فكرة الحزبية والفكرة السياسية الاسلامية ترجع الى هذا الوقت المبكر من حياة المسلمين .

2 — الخلافة ونشأة الفرق الإسلامية

وقد كانت خلافة الرسول أو امامة المسلمين من المسائل التي كثر فيها الاخذ والرد واختلف فيها المسلمون ، وتشعبت آراؤهم ، وساعدهم ثراء الدين الاسلامي بالنصوص ، وتنوع مفاهيمها ، على تكوين آراء سياسية ثابتة حول الخلافة في اطار النصوص ، فرأى فريق من المسلمين أي جمهورهم وهم من سيطلق عليهم أهل السنة والجماعة ، ان تقصر امامة المسلمين على قبيلة قريش وفروعها اعتمادا على نص الحديث الشريف : « الخلافة في قريش » واعتبر هذا الرأى عند غيرهم ، ارستقراطية ، أو نوعا من الميراث يأباهما الاسلام ، واعتقد فريق آخر من المسلمين ، ان الخلافة قد ثبتت بالتعيين وبالنص لبيت على بن أبي طالب دون سواه ، وهذا الفريق هم نواة حزب الشيعة ، ومن شايعهم في هذا الرأى من الموالي ، وتطرف بعض المسلمين فأخرجوها عن دائرة قريش ، وبيت على ، بل ودائرة الجنس العربي وجعلوها حقا مشاعا بين المسلمين العدول دون اعتبار جنسهم ، ولون بشرتهم ، وهذا الرأى يفصح عن بذرة الجمهورية في الاسلام . ولا عجب فقد تمسك

بهذا الرأى ، وتعصب له من سيصيرون في تاريخ الحزبيات السياسية ، الخوارج ، وقد شايعهم في رأيهم ، لأسباب مختلفة ، الموالي المسلمون ، وحسم فريق من المسلمين ، المشكلة ، بآراء سلبية تتمثل في عدم ضرورة نصب امام يدبر شؤون المسلمين ، مادام لكل واحد منهم عقل ينير له سبل الحياة (1)

فالخلافة اذا هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن نشأة الفرق والمذاهب السياسية في الاسلام ، وقد شغلت المسلمين لمدى طويل ، وبقدرما شغل الاغريق قديما بالفضيلة ، والمدينة الفاضلة ، والمسيحيون في العصور الوسطى ، بالبابوية والامبراطورية ، وما بينهما من علاقات ، وما نشب بينهما من نزاع حول نظريتي السمو ، والتقليد العلماني .

3 — الفرق الإسلامية والحياة العملية

وقد قاد البحث والتساؤل ، والاحساس بعدم الاستقرار كل طائفة من المسلمين الى الشعور بمسؤوليتها ، في اختيار أفضل النظم السياسية ، وبضرورة ان تكون لها آراء معينة ، وان تضع نظريات ثابتة ، ثم تنظم نفسها ، وتتكتل لتضمن لآرائها النجاح ، والتطبيق في الحياة العملية ، وهذه احدى ميزات الفرق الاسلامية ، التي لم نلاحظها ، لا عند الاغريق ، ولا عند مسيحي العصور الوسطى ، فالفرق الاسلامية لم تكن مجرد مدارس فكرية نظرية فحسب ، أي تكون آراء وتبديها وتدونها ثم ينتهي الأمر ، بل أخذت طابع الاحزاب السياسية في عصرنا ، فلكل منها مبادئ معينة ، تشبه برنامج العمل في الاحزاب الحديثة ، ولها نشاط ، وفيها نظام ، ثم هي أيضا ، تسعى وتكافح ، حتى تحقق لمبادئها النصر ، وتجعلها ، منهاجا للحكم ، وطريقة للحياة . والسر في ذلك ، ان كل طائفة كانت تعتبر مبادئها ، جزءا من عقيدتها ، وقانونا ، يجب تنفيذه ، ومثلا أخلاقيا يجب الاقتداء به ، وليس يضير الاسلام والمسلمين في شئ ، ما وقع بينهم من

---

(1) ورفض فريق آخر من المسلمين التحزب والهوى ، الذي لايخلو أحيانا من نزعات قبلية وعبر عن هذا الرفض أحد الأعراب بقوله :

برئت من الخوارج لست منهم	من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم اذا ذكروا عليا	يردون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي	وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا	به أرجو غدا حسن الثواب

أحداث كبرى تمخضت عن حزبيات سياسية ، فرقت جمعهم ، لان ذلك انما ينهض دليلا ، على مدى خصوبة النصوص الاسلامية ، وتنوع مفاهيمها ، (والشائع في التاريخ المذهبي عند المسلمين ، ان النضال بينهم لم يكن على غير أساس ، بل كان محوره الاساسي النصوص ، ونوع تفسيرها) ، ثم على مقدار مرونة الدين الاسلامي ، وبعده عن التحجر ، ونأى معتنقيه عن الجمود ، والتعبد لظواهر النصوص .

ولقد كان هذا الخلاف المذهبي الذي ينم عن استعداد للتطور والتقدم ، ايجابيا بنتائجه الثقافية (1) .

ومما يلاحظ ان الحزبيات الاسلامية في بدء ظهورها كانت عربية خالصة وبقيت كذلك بقيادتها ، بعدما جذبت اليها كثيرا من المسلمين الجدد الذين ضمتهم طبقة الموالي ، وكان معظمهم في هذه الفترة المبكرة من الفرس ثم الأقباط والبربر والترك .

4 ـــ الموالى والحركة الشيعية

وقد انضم الموالى الى الحركة الشيعية في المشرق لأسباب : منها انها كانت أكثر المذاهب ملاءمة وانسجاما ، مع طبيعة تكوينهم الوجداني ، فالمولى الفارسي ، يفهم حق الفهم ملكية وراثية ، تستمد حقوقها في السيادة من الله ، وكان يعترف بذلك ، للاكاسرة الساسانيين ، الذين طالما اشاعوا بين رعيتهم ، أنهم صور مجسمة للآلهة على الأرض ، وعلى العكس من ذلك ، لايتصور وجود خليفة بالانتخاب ، والشورى ، لان الفكرة غريبة عن بيئته وتاريخه ، وكان هم المولى بعد ان غير بيئته ودينه ، أن يحول ولاءه من أسرة مقدسة ، الى أخرى تشبهها ، وقد حلت أسرة علي ، في قلوب الموالي ، وفي اعتبارهم محل الأسرة الساسانية القديمة .

وشجع الموالي ، على تأييد الحركة أيضا ، سياسة بني أمية المتحيزة للعرب وشعور الموالى بانخفاض مستواهم ، الاجتماعي ، والسياسي ، في هذه الفترة ، مع ما امتازوا به من نشاط تجاري ، وصناعي في الداخل والخارج ، ولهذه الأسباب اذا شايع الموالي حركة آل البيت ، وانضموا اليها كوسيلة للخلاص ، وللظفر بالمساواة مع العرب ، وكانت

(1) الريس : النظريات السياسية الاسلامية ص 36 ـــ 37 .

فرقة «الكيسانية الشيعية» ، أساسها ، وقيادتها وجل رجالها من الموالي كما كانت قوة التوابين «وهم من ارادوا الثأر للحسين شهيد كربلاء» من الموالي أيضا (1) .

ونلاحظ ان انضمام مسلمي البربر — وهم من طبقة الموالي — الى الحركة الشيعية في المغرب منذ القرنين الثاني والثالث للهجرة كان يعزى الى أسباب عاطفية وجدانية تتمثل في حب آل البيت ، والرغبة في الثأر لما أصابهم على أيدي الأمويين والعباسيين ، فساعد بربر مكناسة ادريس العلوي على تأسيس نظام وراثي ، معاد ، للعباسيين في بغداد ، والامويين في الأندلس ، واحتضنت قبيلة كتامة ، ومعها صنهاجة ، الدعوة الاسماعيلية ونشرتها بين البربر ، فكان لذلك أثر في قيام أكبر دولة شيعية في المغرب ، وخدت المنطقة من عدوة طنجة الى برقة ، بعدما كانت مجزأة سياسيا ومذهبيا ، بين الاغالبة في القيروان والادارسة في فاس ، والرستميين في تاهرت ، وبني مدرار في سجلماسة ، ورنت ببصرها نحو الامارة الاموية في الأندلس ، وكادت تلقى النجاح في ضم المنطقة لولا ، ثورات زناتة ، اشياع بني أمية وحزم عبد الرحمن الناصر ، الذي تلقب بلقب الخلافة وقوى صفوف انصاره في المغرب واحكم سيطرته على سبتة وطنجة .

وقد مكن الفاطميين نجاحهم في المغرب ، من نقل مركز نشاطهم ضد بغداد ، والعباسيين ، الى مصر ، المعبر الرئيسي للسيطرة على المشرق الاسلامي وضمه الى المغرب ، تحت السيادة العليا للخلافة الفاطمية الشيعية ، ويعتبر انتشار الدعاة الفاطميين ، في ارجاء المشرق الاسلامي ، وانتصاب البويهيين الشيعة في العراق وغلبة أبي الحارث البساسيري بعد ذلك على بغداد ، ودعوته للمستنصر بالله الفاطمي ، من أهم ما ادركه الفاطميون في نشاطهم السياسي والمذهبي ضد العباسيين .

5 — الفاطميون ونشر المذهب الشيعي

لم يؤثر عن الشيعة الفاطميين ، انهم ضعفوا ، في حركتهم الدعائية ، لمذهبهم أو قللوا من نشاطهم السياسي والعسكري ضد اعدائهم ، في مشرق الدولة أو في مغربها .

فالتشيع انتشر كاللهيب ، في اليمن ، والمغرب ، ومصر ، والعراق ، وفارس ، والبحرين ، بواسطة دعاة مهرة ، ورجال ذوي عزيمة صادقة . وقد كانت طرق نشره بين مسلمي

(1) الطبري : تاريخ الامم ج7 ص 116 و134 .

المغرب ، كثيرة ففضلا عن الدعوة اليه من زاوية حب آل البيت ، نرى عبيد الله المهدي وخلفاءه يستعملون وسائل الاغراء بالمناصب العليا ، وبالمال الكثير ، ويعتمدون أحيانا ، حتى على الصلات غير المشروعة في كسب الانصار — ويكفي ان نبحث في كتاب «طبقات علماء إفريقية» ، لنلاحظ ان محمدا بن حيان واابابكر القمودي ، وعليا ابن منصور الصفار ، وعبد الملك بن محمد الضبي تشرقوا لأغراض مادية صرفة ، وربيعا بن سليمان الذي عرف بابن الكحالة تشرق من أجل بقاء صلته بغلام شيعي كلف به ، وقاسم بن خالد الوسطى دعوه الى التشيع ، ووعدوه بقضاء مدينة باجة فلما استجاب ، قالوا له : استغنينا عن هذه الخطة في باجة ، واسحاق بن أبي المنهال تشيع ، فولي قضاء صقلية ، ثم نقل بعد ذلك الى قضاء القيروان ، وأحمد بن محمد بن شهرين ، قاضي برقة اعتنق المذهب الشيعي ، ربما لوعود براقة ، وأبو بكر بن سليمان الذي كان حنفيا ، اعتنق المذهب ليصير موثقا ، يكتب العقود ويشهد بين الناس في القيروان ، وكان على جانب كبير من الفقر والحاجة ، ولا ينتصب عدلا موثقا في القيروان ، الا من كان ثقة الدولة وعلى مذهبها ، سيما اذا كان يرتزق من شهادته أما زرارة بن أحمد ، فولي قضاء المهدية ، عاصمة الدولة ، لأنه كان من الغلاة في هذا المذهب (1) ، ونستخلص من كل ما سبق عن الشيعة ، ان رجال المذهب اعتمدوا في كسب ولاء الناس ، وفي اصطناع الرجال ، والزحف على بقية المذاهب ، على العاطفة ، والمال ، والجاه .

6 — الحركة الخارجية وطوائفها

وقد كانت الحركة الخارجية حركة عربية بدوية ، قمة وقاعدة . وظلت كذلك فترة طويلة ، وعندما بدأ رجالها حركة النضال الفكري والسياسي ضد المخالفين ، جذبوا اليهم كثيرا من المسلمين الجدد (الموالي) الذين أعجبوا بشجاعتهم ، واستماتهم في سبيل المبدأ من جهة ، وبدعوتهم الى جعل الخلافة حقا مشاعا بين كل المسلمين الذين يستكملون شروطا معينة ، من جهة أخرى ، وقد كان هذا رأى جميع طوائفهم باستثناء النجدات .

وساعد على تطور نظرياتهم ، ليس فقط رغبتهم في تقوية صفوفهم وتغذيتها ، للقضاء على الأرستقراطية والحكم الوراثي ، انما افادتهم أيضا تلك المناظرات العديدة الخصبة

(1) أبو العرب تميم : الطبقات ص 223 — 226 .

التي جرت بينهم ، وبين ابن عباس وعلي ، وابن الزبير ، وبعض عمال بني أمية على البصرة والكوفة وبعض خلفائهم ، مثل عمر بن عبد العزيز.

وتجتمع طوائفهم حول النظرة الى الخلفاء الراشدين ، فيعترفون بهم ، غير انهم يتبرأون من عثمان ، بعد ست سنوات من خلافته ، ومن علي بعد التحكيم ، وحول فكرة وجوب الخروج والثورة على السلطان اذا كان جائرا ،ودار الخلاف بين طوائفهم حول جملة مسائل أهمها : الجهاد ، أو القعود ، التقية ، أو المجاهرة ، دار المخالفين دار حرب أو دار اسلام .

ثم حول نوع معاملتهم ؟ هم ، واطفالهم ونسائهم وأموالهم ، وهل تحل الاقامة معهم ويجوز قتل أحدهم غيلة ، وقد ذهبت كل فرقة الى تكوين آراء خاصة بها حول هذه المسائل التي كانت سببا في كثرة الفئات الخارجية وتفرقها (1)

ويظهر ان أكثر الفرق تعصبا ، وتشديدا على المخالفين فرقة الأزارقة ، التي بادت ، ولم تبق آثارها المذهبية ، وان بقيت قصة فروسية رجالها ونزعتها الدموية وآثارها الأدبية ، حية للذكرى ، (2) وتليها في الشدة ، فئة النجدات ، ثم الصفرية ، وقد انقرضت أيضا . وأكثرها اعتدالا ، ومسالمة ، وتقربا من أهل الجماعة فرقة الاباضية ، اتباع عبد الله بن اباض المري ، التميمي التي نلاحظ بقاياها ، الآن ، في بلاد الشبكة (وادي ميزاب) وفي جزيرة جربة ، وفي جبل نفوسة ، وزنجبار ، والجبل الأخضر من أرض عمان الثائرة .

ومن حسن حظ المغرب ، أنه لم يعرف من فئات الخوارج ، غير المسالمين مثل الاباضية والصفرية ، وكانت هذه النحلة أسبق في الظهور ، والانتشار بين بربر المغرب الاقصى ، والاوسط ، والادنى . وهي التي استهلت النشاط الدعائي ، والحربي ضد بني أمية وعمالهم في المغرب .

---

(1) ومظهر وحدتهم اعترافهم جميعا بإمامة عبد الله بن وهب الراسي فهم جميعا وهبية والوهبية هي أم الحركات الخارجية . أنظر المبرد : الكامل «أخبار الخوارج ص 5 ، 78 ، وقد بدأت تظهر نزعات جديدة بينهم منذ أن تفرقوا من مكة عقب فشلهم في التحالف مع عبد الله بن الزبير . أنظر المبرد المصدر السابق ص 83 ـــ 93 .

(2) المبرد : الكامل ص 78 ، 79 ، 91 وما بعدها . وأقدم زعمائها نافع بن الازرق الحنفي ، الذى كانت له صلات ودية وعلمية مع عبد الله بن عباس . أنظر المصدر السابق ص 45 ــ 48 . وهو الذي واجه ابن عباس مرة بقوله« لله أنت يا ابن عباس أنظرب اليك اكباد الابل نسألك عن الدين فتعرض ويأتيك غلام من قريش فينشد سفها فتسمعه ؟ !

7 ــــ أسباب تسرب النزعة الخارجية إلى المغرب

ويظهر ان الاضطهادات العنيفة التي وجهت ضد خوارج المشرق ، والانتصارات العظيمة التي أحرزعليها قادة بني أمية العظام ضدهم : مثل الحجاج بن يوسف ، والمهلب بن أبي صفرة دفعت كثيرا منهم الى التنقل بين الامصار الاالاسلامية ، والهجرة الى حيث لا تنالهم ايدي البطش والطغيان ، أي في البيئات التي مازال مسلموها ينعمون بحياتهم الدينية ، في اطار البساطة المذهبية والاتجاهات غير المتحزبة . وقد وجد مهاجرو الخوارج في بيئة المغرب ، نموذجا لهذه البيئات ، وتربة خصبة لزرع آرائهم وبث دعوتهم ، وتقوية صفوفهم . وكان الرباط ، على الثغور والسواحل المغربية من الاسكندرية حتى طنجة بل أربونة ، بقصد العبادة ، والحراسة ، والثقافة ، من أهم ما اعان الخوارج على نشر مذهبهم ، في نطاق الشرعية المحاطة بالسرية التامة ، وتذكر التجارة ، والرحلة للكسب ، كعامل مهم ، في نشر الافكار والعادات ، لاسيما الفكرة الخارجية ، ولقد انتقل بعض البربر الى بيئة العراق ، وتعلموا أصول الحركة الخارجية في البصرة على يد فقيه الخوارج ، وعمدتهم ، أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم ، كما سافر البربر الى الشام واشتكوا الى رجال الخليفة في دمشق ، ما أصابهم من ضرر وظلم ، على يد ابن الحبحاب ، وعماله .

ويقف على رأس العوامل المهمة في نشر الحركة الخارجية في إفريقية حركة الدعاة . واقدمهم في هذه البيئة سلمة بن سعد الذي كان يدعو الى الأباضية ، وعكرمة (1) مولى ابن عباس ، الذي كان يدعو الى الصفرية . وفي رواية ان الرجلين ، وصلا الى المغرب في وقت واحد ، وعلى راحلة واحدة ، ونشطا في دعوتهما نشاطا ملحوظا ، وامتلأت نفوسهما حماسا ورغبة في كسب ود البربر المسلمين . ويعزي قيام الثورات الخارجية في بيئة المغرب منذ العشرينات من القرن الثاني للهجرة ، بدرجة كبيرة الى حركة الدعاة ، ويعتبر نجاحا باهرا لجهودهم ، ولعل روح المغامرة ، والتفاني في سبيل المذهب ، دون اعتبار الاخطار ، اللذين عرفا عن سلمة بن سعد ، هما اللذان جعلا الأخباريين من أهل المذهب طبعا ، يفخرون

(1) هو أبو عبد الله مات ابن عباس وهو عبد فاعتقه ابنه علي وكان مقدما في العلم بالفقه والقرآن وفي الرواية للاثار وكان ينكر عليه انتحاله لنزعة الخوارج الصفرية ونسبتها الى عبد الله بن عباس ؛ مات (105 هـ) وهو ابن ثمانين سنة أي في نفس اليوم الذي توفي فيه شاعر الغزل كثير عزة الذي كان شيعيا كيسانيا يؤمن بالرجعة . فقال الناس بالمدينة ، مات اليوم أفقه الناس ، وأشعر الناس . أنظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج13 المعرف بذيل المذيل ص 95 وما بعدها .

بقوله : «وددت لو يظهر هذا الأمر ، ولا أبالي بعدها ان تقطع عنقي» . وهو الذي اختار ، من وجوه البربر جماعة من أهل الطول ، والعصبية ، وارسلهم الى البصرة لتلقي أصول المذهب ، على يد مجتهد المذهب ، أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة . فأتيح لهم ، ان يتصلوا باخوانهم في البصرة وينهلوا من بحار علم امامهم الزاخرة ، وعندما رجعوا الى المغرب ، كرسوا جهودهم للدعوة ، للمذهب الخارجي ، الأباضي ، فمكنوا له من الانتشار والتغلغل ، بين البربر البتر ، وفروع زناتة ، على نحو ، لم تدركه بقية النحل الخارجية ، لا في مشرق الدولة ، ولا في مغربها . ولم يلتجئ رجال الطائفة الخارجية هنا ، الى القوة والعنف ، الا بعد ان اخفقت محاولاتهم لتبصير المسلمين ، وانارة الطريق ، واقامة الحجة ، ورأوا اصرارا من بني أمية وعمالهم ، على سلوك نهج يخالف تعاليم الاسلام ومن ثم كانت حركتهم ، رد فعل للانحراف ، ومحاولة جادة لتصحيح بعض أوضاع المسلمين الشاذة ، وللعودة بالدين الى بساطته وروحه الأولى . ورغم ما يقال عن الحركة الخارجية ، من أنها حركة فوضوية ، ضد النظام ، واجماع الأمة ، وأنها دخيلة بسبب دعاتها من الموالي الموتورين ، أو عنصر ضعف في العقيدة الاسلامية وفي النظام السياسي الاسلامي . فينبغي في نظري ، اعتبارها أولا : ثورة فكرية ، أنتجت أدبا ، وعلما ، وفقها ، وطورت العقيدة والمذهب السياسي ، واغنت الحضارة الاسلامية بعناصر مفيدة ، وثانيا : هي نتيجة من النتائج الحسنة ، لانفعال العناصر غير العربية بالاسلام ، وتفهمها لأصوله ، ومناقشتها لمبادئه وقواعده .

وربما كانت معالجة الأمويين والعباسيين لمطالبها ، ومجابهتهم لها ، بقوة السلاح لا بقوة الاقناع ، هي التي زادت المشكلة حدة ، وفرقت الصف العربي الاسلامي ، وتسببت في فوضى سياسية ، ومآسي دموية . يضاف الى ذلك ، ان بعض العناصر الاسلامية الجديدة ، حاولت عن طريق تأييد الحركة الخارجية ، افساد الاسلام ، وتنغيص حياة المسلمين ، العرب ، والبربر ، على السواء ، للوصول الى اهداف معينة . ومما يذكر هنا للدلالة ، لا للحصر ، ان احد رؤساء أول ثورة خارجية ظهرت كان عبد الاعلى بن جريج الرومي الاصل وهو من موالي بن نصير . فقد كان هذا الرجل «امام الصفرية ، في انتحال مذهبهم» على حد تعبير صاحب كتاب الاستقصاء (1) .

---

(1) السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 49 .

ويخيل الي ، ان أهم ما يستخلصه الباحث ، من وراء سرعة انتشار الحركة بين البربر ، وظهورها لأول مرة في اقصى المغرب هو مدى الوحدة الفكرية والثقافية ، التي كانت تسود العالم الاسلامي من سمرقند الى طنجة ، ومبلغ الحساسية المرهفة عند المسلمين لما يقع في أي جزء ، من أجزاء عالمهم المترامي .

8 ـــ عمال بني أمية ومسؤوليتهم في ظهور الحركة الخارجية

قبل ان نعرض مختلف نشاطات الحركة الخارجية في المغرب ، للمناقشة ، لابد من الاشارة الى ان أسباب ظهورها في البداية ، ترجع بنسبة كبيرة ، الى السياسة الادارية السيئة ، والى طريقة معاملة البربر المسلمين ، في عهدي يزيد بن أبي مسلم الثقفي ، وعبيد الله بن الحبحاب السلولي .

فاما يزيد بن أبي مسلم ، فقد ابتدأ حياته مولى للحجاج عامل المشرق ، ثم أصبح كاتبا فصاحب شرطة ، فعامل خراج العراق ، وقد أظهر في المهمات التي اسندت اليه ، كفاية ومقدرة ، جعلت الوليد بن عبد الملك يقره في اعماله بعد وفاة مولاه ، وهم سليمان من بعده ان يعينه كاتبا ، لولا اعتراض عمر بن عبد العزيز .

هذا الرجل ولي شؤون إفريقية ، بعد موت عمر بن عبد العزيز من طرف يزيد بن عبد الملك (1) . فكان أول اعماله المشكورة تعيين عنبسة بن سحيم الكلبي واليا على الأندلس . غير أنه سلك مع مسلمي إفريقية ، سياسة أغضبتهم ، فاعتبرهم فيئا للمسلمين وخمسهم فعلا ، واتخذ منهم حرسا وبطانة ، وكان في نيته ان يشم على أيديهم ، كلمة حرس ، تمييزا لهم عن غيرهم ، وطالبهم بدفع الجزية . ومن المحتمل ان يكون قد حال بينهم ، وبين الاقامة في الحواضر الاسلامية الكبرى مثل القيروان ، وامرهم بالرجوع الى قراهم وارياقهم الاصلية ، تقليدا لسياسة مولاه الحجاج ، مع موالي المشرق بحيث جعل منهم طبقة خاضعة ، وفي مستوى ادنى من العرب الفاتحين ، وحال بينهم وبين الاندماج في المجتمع الاسلامي الجديد ، وتبنى الروح الثغرية الجديدة ، فأثارت هذه الاساليب من رد الفعل في المغرب ، ما أثارته من قبل في المشرق ، واتفقت طائفة من البربر وقتلوا يزيد (2) .

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 288 .

(2) وعن سياسة الحجاج تجاه الموالي أنظر : الريس : الخراج في الدولة الاسلامية 208 وما بعدها .

وارجعوا الوالي القديم وفي اعتذارهم للخليفة ، على لسان رسولهم ، أوضحوا ان تصرفهم ليس خروجا عن طاعة الخلافة ، وانما يدخل في اطار رد الاهانة لصاحبها ، والغيرة على الحق ، والعدل ، لأن يزيد «سامنا مالا يرضى الله ورسوله فقتلناه واعدنا عاملك» (1) .

والعجيب ان ما وقع ليزيد بن أبي مسلم لم يتعظ به عبيد الله بن الحبحاب ، الذي أظهر كفاية في حكم مصر ، وتدبير خراجها ، فخيل اليه ، أنه يستطيع السيطرة على شؤون إفريقية بقليل من العناية وبكثير من الحروب الوقائية ، ضد مضارب البربر.

وظن أنه يمكنه ان يبقى طويلا ، على رأس ولاية إفريقية ، اذا أجزل العطاء لرجال الدولة ، في دمشق ، وأكثر من الطرائف المغربية ، التي يستحبها الخلفاء ، والكبراء ومن ضمنها سبايا البربر الجميلات ، والأدم العسلية ، وقد عين ابن الحبحاب ، على نواحي المغرب ، بعض ابنائه واصفيائه ، ممن تشربوا اتجاهاته ، في الحكم ، وكانوا على نسجه في النظرة لمسلمي البربر.

ولاشك ان نشاطه العسكري ، في بلاد السوس الاقصى ، وسياسة التقتيل والتنكيل وسبي النساء والأطفال ، والتلهف على الغنائم التي سلكها مع البربر ، لاسيما ضد قبيلة مسوفة الصنهاجية قد ادخلت الاضطراب في المنطقة المغربية لاسيما الجنوبية منها ، ونشرت الرعب ، وجرحت كرامة البربر اجمعين ، فهبوا للثورة ، وتنافروا لرد ما اعتبروه عدوانا (2) .

ولم يكن واليه ومساعد ابنه على طنجة — عمر بن عبد الله المرادي — بأحسن تصرفا من سيده (3) .

فقد كان بسوء اعماله ، مسؤولا مباشرة عن انتقاض أهل البلاد وتنافر الحيين العربي والبربري ، والتجائهما الى الحرب والنزال ، بدلا من التآخي والمساكنة ، فقد كان هذا العامل ينظر الى البربر نظرته الى شعب خاضع ، فتحت أرضه عنوة ، فانصرف عن جمع الصدقات الواجبة على مسلمي البربر ، الى توظيف الجزية واشتد في جمعها ، وكان لايسوى

(1) السلاوي : الاستقصاء ج 1 ص 46—47 .

(2) ابن خلدون : العبر ج 1 ص 110 .

(3) ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 89 .

بينهم ، وبين غيرهم من المقاتلة ، في الغنائم ، وقد يحرمهم من اسهمهم المستحقة بدعوى ، ان ذلك أخلص للجهاد ، أما عند الشدة فكان يجعل مسلمي البربر في المقدمة ، وجرى على أخذ الجلود البيض أو العسلية منهم ، ولما كانت هذه لا توجد إلاّنادرا ، فقد كان يأمر بذبح عدد كثير من الشياه ، للبحث عن سخال ذات جلود عسلية ليرسلها الى الخليفة (1) .

ولم يقتصر عند هذا الحد بل أوغل في الشذوذ الى درجة أنه كان يتخير الجميلات من البربر ، ويرسلهن الى بيت الخلافة في الشام . والبربر أهل عز ونخوة ، وشرف ، وقد جرح كبرياءهم الوطني ، معاملتهم كأناس خاضعين ، والتصرف في حريمهم وأموالهم ، بغير هدى من كتاب اوسنة ، فأرادو ان يتبينوا وجهة نظر الخلافة ، ومدى مسؤوليتها عن هذا الانحراف فكلفوا وفدا منهم ، برئاسة ميسرة ، سافر الى دمشق ، ليشرح أمام الخليفة هشام شكواهم ، فحيل بين هذا الوفد ، وبين رؤية الخليفة ، ترضية لأبن الحبحاب ، وتغطية لاعماله ، ولسياسة ولاته وطمعا في الطافه ، الكثيرة ، فرجع الوفد يائسا ، من تفهم الخلافة وعمالها ، لحقيقة مطالب المسلمين البربر ، وكانت بسيطة ومعقولة ، وفي اطار الاحكام الاسلامية لو وجد الحزم وتوفرت النية الحسنة ، فسلموا البربر ، يريدون فقط ، ان ينظر اليهم كأهل عهد وان تكون معاملتهم المالية في حدود ما قرره الاسلام ، وينقطع طلب الوظائف الكثيرة والتدخل في شؤون البربر ، وفي النهاية ، كان الوفد لسان المسلمين في طلب الاصلاح ، ومكافحة الجور.

ولما اتضح عجز الخليفة ، عن كبح جماح عماله ، واصر هؤلاء على موقفهم العدائي ، تناذر البربر ، وانقلبوا معارضين ، والتجأوا الى القوة ، لتحقيق مطالبهم ، وللثأر لكرامتهم (2) .

وساعدهم على اشعال لهيب الثورة في أقصى المغرب ، وقتل عاملي طنجة والسوس ، بعد مركز القيروان ، وانشغال ابن الحبحاب ، وتوزع قواته ، وغيبة أكثر رجاله في النشاط الثغري بصقلية .

---

(1) ابن الاثير الكامل : ج 3 ص 45 .

(2) نفسه : ج 3 ص 45 ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج 1 ص 192 ـ 193 ـ السلاوي : الإستقصاء ج 1 ص 48 ـ أنظر ملحق 1 .

9 ــ الحركة الصُفرية في بلاد المغرب

الصفرية هم اتباع زياد بن الاصفر ، وموطنهم الاقليم الشرقي من الجزيرة ، ومن آرائهم ، عدم تكفير القعدة عن القتال اذا كانوا على نفس عقيدتهم ومذهبهم ، وعدم جواز قتل اطفال المشركين ، لأنهم ليسوا في نظرهم كفارا يجب تخليدهم في النار ، وتمسكوا بالتقية في القول ، دون العمل ، ووافقوا الازارقة في رأيهم بأن أصحاب الكبائر ، مشركون ، انما قالوا : ما كان من هذه الذنوب قد ترتب عليه حد من الحدود فلا ينبغي ان يوصف صاحبه بالاشراك ، ومن أقوال زعيمهم ، الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان ، وشرك هو عبادة الاوثان . والكفر كفران : كفر بالنعمة ، وكفر بانكار الربوبية . والبراءة براءتان : براءة من من أهل الحدود سنة ، وبراءة من أهل الجحود فريضة (2) .

وقد انتشرت هذه الآراء في المشرق ، وظهرت أيضا في المغرب بواسطة دعاة مهرة ، أبرزهم عكرمة مولى ابن عباس ، وميسرة ، وعبد الأعلى بن جريح ، وأصبح لها أنصار ومؤيدون من مسلمي البربر ، ومن غير البربر من الموالي الذين حرصوا على تنفيذها لا بالاقناع فقط ، وانما التجأوا في آخر الأمر ، الى الثورة ، والعصيان ضد بني أمية في منطقة طنجة والمغرب الأقصى ، ثم نقلوا نحلتهم ونشاطهم الى المغربين الأوسط والأدنى .

10 ــ نشاطها العسكري

وقد استهل النشاط الصفري في المغرب زعيم بربري بترى من مطغرة (مضغرة مدغورة) يسمى ميسرة ، ويوصف في المصادر الاسلامية بعدة أوصاف مفتعلة مثل الحقير ، أو الفقير والسقاء ، بينما يصفه بعض مؤرخي الخوارج ومن شايعهم ، بالخفير ، تنزيها له عن وصف الحقارة ، وعن احتراف السقي ، في أسواق القيروان ، ويذكرون أنه كان وجيها في قومه ، ومن ذوي الصلاح والتقوى والعلم ، ووصفه ابن خلدون «بالحسن» أحيانا ، وبأنه «شيخ الصفرية ومقدمهم» ولذلك تمكن من قيادتهم في المعركة ، عن رضا وطواعية .

---

(1) في سر التسمية بذلك وجهان : احدهما النسبة الى أقدم ائمتهم عبد الله ابن صفار ، وثانيهما أنهم قوم أنهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم فقيل صفرية . أنظر الكامل للمبرد : أخبار الخوارج 78 ، 89 ، ط دار الفكر الحديث يحي هويدي : تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية ج1 : 32 .

(2) الشهرستاني : الملل والنحل ج 1 ص 137 ، المبرد : الكامل 89 ، دار الفكر الحديث .

وبلغ من شدة اقتناعهم به ان قبلوا تزعمه لسفارتهم الى المشرق ، ثم فكرة مبايعتهم له إماما ودعوتهم اياه بلقب أمير المؤمنين ، لأول مرة في تاريخ المغرب الاسلامي ، وقد تمكن ميسرة بفضل ثقة البربر ،وتجمعهم حوله من قتل عمر بن عبد الله المرادي في طنجة ، وتعيين رجل مولى من الطائفة ، في مكانه يسمى : عبد الأعلى بن جريج الرومي الاصل (1) ، ثم من إقناع كثير من المترددين تجاه حركته الثورية ، وهكذا كثر جمعه بسيل من المنضمين اليه ، وفي اللقاء الذي حصل بينه وبين خالدبن حبيب ابن أبي عبيدة ، على مشارف طنجة ، وبعد عبور هذا الأخير ، نهر شلف ، لم ينحسم الموقف .

فاستنفر ابن الحبحاب قوات حبيب بن أبي عبيدة وطلب رجوعها من صقلية ، وارسلها نجدة الى خالد بن حبيب ، غير ان حبيبا نزل بمكان قرب نهر شلف لايريم عنه ، خوفا من انضمام بربر المغرب الأوسط الى حركة ميسرة ، وارهابا لمن قد تحدثهم أنفسهم بالعصيان في المنطقة ، وقد انسحب ميسرة من الميدان ، خلافا لما جرى عليه اسلافه من الاستماتة ، حتى النصر أوالشهادة ، الى طنجة فاتهمه رجال النحلة بالفرار ، والانحراف ، وقتلوه ، وبايعوا خالدا بن حميد الزناتي إماما جديدا ، فقادهم هذا الى ميدان المعركة ضد سميه خالد بن حبيب ، واستطاع القائد الصفري ، بشدته ، وحماسته ، وصبره ، ان يقتل كثيرا من فرسان العرب وسراتهم وينزل الهزيمة بقرنه خالد بن حبيب ويقتله في المعركة التي دارت قرب طنجة ، وسميت — نظرا لعلو مكانة من فقد فيها — معركة الاشراف (سنة 122 هـ) (2) .

ويظهر ان أسباب هذه الهزيمة ليس فقط ، عدم تنظيم خالد بن حبيب لصفوفه وتعب رجاله من طول المواقفة ونقص الامدادات عنه ، وانما أيضا ، عدم اشتراك قوات أبيه ، في المعركة ، واكتفاؤه ، بمراقبة الموقف من تلمسان ، تمخضت معركة الأشراف عن عدة نتائج في مقدمتها : ضعف الروح المعنوية عند العرب ، وقوتها عند رجال النحلة الصفرية ، التي انتشرت بين بربر المغرب الأقصى إثر ذلك انتشارا سريعا ، فشقوا عصا الطاعة في وجه عامل إفريقية بالقيروان ، وضد الخلافة المركزية في المشرق وخليفتها

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 293 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب 255 وما بعدها . السلاوي : الاستقصاء 1 ، 48 — 49 .

(2) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 294 ، يذكر أن الصفرية بعد قتلهم ميسرة عينوا مكانهعبد الملك بن قطن المحاربي ، أنظر : سعد زغلول : المرجع السابع 258 وما بعدها .

هشام بن عبد الملك . فشل عبيد الله بن الحبحاب في مواجهة الموقف في المغرب ، ثم في الأندلس أيضا ، الذي عرف ثورة خطيرة عصفت بممثله ، عقبة بن الحجاج وقدمت على الولاية عبد الملك بن قطن الفهري (1) .

وقد استبد بهشام بن عبد الملك غضب شديد ، عبر عنه بقوله : «لأغضبن للعرب غضبة ، واسير جيشا يكون أوله عندهم ، وآخره عندي» ثم استدعى عامله المهزوم سنة 123 هـ وعين على الولاية كلثوما بن عياض القشيري ، وجعل في معيته قريبه بلجا بن بشر القشيري ليخلفه اذا مات ، وضم الى قواته ، التي جندت في الشام ، قوات مصر ، وبرقة ، وطرابلس ، بحيث اكتمل عدد قواته ، ثلاثين ألفا ، بمن انضم اليهم من مسلمي إفريقية ومن عربها الذين كان يقودهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري .

وفي اللقاء الذي وقع بين قوات كلثوم المفككة الى نزعات ، بسبب تصرفات ، قريبه بلج ، وبين قوات خالد بن حميد الزناتي الموحدة تحت لواء الصفرية ، قرب نهر سبو (2) دارت الدائرة اولا على قوات بلج وحبيب بن أبي عبيدة ، وسليمان بن أبي المهاجر ، ثم على كلثوم نفسه الذي كان يشرف على سير المعركة من فوق منصة (ديدبان) ، فانهزم العرب وقتل كلثوم ، وحبيب بن أبي عبيدة ، وسليمان بن أبي المهاجر ، وتفرق شمل البقية ، فأهل الشام يقودهم بلج ومعهم عبد الرحمن بن حبيب التجأوا بعد لأي الى الأندلس ، وأهل مصر وافريقية ، رجعوا الى القيروان .

وكانت نتيجة معركة سبوسية الوقع على المسلمين في المشرق وفي المغرب وقد شجعت جمهور المترددين في إفريقية ، على انتحال الصفرية ، وتأييد الثورة ، واحتلال قاعدة القيروان ، ومن ثم نرى — لأول مرة — نشوب ثورة صفرية في إفريقية ، تزعمها بربري مستعرب هو عكاشة بن أيوب الغزاري الذي انطلق من منطقة قابس تجاه القيروان وهزم

(1) ابن عذاري ج 1 ص 55 — ابن الأثير : الكامل ج 5 ص 89 — 91 .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 57 . يسمى بروكلمان المعركة التي قتل فيها كلثوم وحبيب (معركة نوام) ويحددها بسنة 741م ص 192 — 193 (تاريخ الشعوب الاسلامية وحبيب) ج 1 . السلاوي : الاستقصاء 1 ، 49 — 50 . سعد زغلول : المرجع السابق 261 وما بعدها . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 2 ، 306 وما بعدها

القوة التي تصدت له في باديء الأمر فلما هزم بعد ذلك ، التجأ الى الصحراء مؤقتا ليعيد تنظيم صفوفه ، وليراقب الموقف من هناك (1) .

واسرع هشام بن عبد الملك ، لتدارك الموقف قبل تدهوره ، فعين أمير مصر حنظلة بن صفوان ، واليا على إفريقية سنة 125 هـ . ، وفي عهده نضجت الحركة الصفرية ، وتبلورت اهدافها التي تمثلت في ضرورة احتلال القيروان والسيطرة على ولاية إفريقية ، وتصدى لتنفيذ هذه الاهداف في هذا الوقت عكاشة بن أيوب الفزاري ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري (2) وحصل الاتفاق بين الرجلين والتنسيق بينهما في منطقة الزاب : على أساس ان يسلك كل منهما طريقا خاصا الى القيروان ليطبقا عليها من جهتين ، في وقت واحد ، وبينما سلك عكاشة البربري المستعرب ، طريق مجانة ، أخذ عبد الواحد طريقا جبليا ، وعلى مقدمة قواته أبو قرة المغيلي الزناتي ، ورسم حنظلة من جهته ، خطته على أساس احباط مساعي الرجلين في التعاون ، بالاسراع في ملاقاة كل منهما على حدة ، وكان اللقاء بين حنظلة وعكاشة بالقرن (3) حاسما وشديدا ، انهزم على اثره الصفرية ، واسر زعيمهم وسيق الى حنظلة حيث قتله ، بعدئذ تفرغت قوات الخلافة لعبد الواحد ولقوته التي بلغت حدا كبيرا ، وفي الطريق لملاقاة البربر ، نفد علف الدواب من الشعير ، فأطعمت حنطة ، فبدا التأثر عليها كما انهزم المسلمون امام الصفرية وتراجعوا الى القيروان ، وهذا التراجع نحو القيروان زيادة عن قلة الركائب ، شجعا عبد الواحد ، فتقدم نحو مشارف القيروان ،

---

(1) الاحظ ان النسبة الى فزارة صحيحة ، وليس فيها تصفيف ، اذ هي اسم لقبيلة بربرية تعربت ، كانت تضرب حول قصور قافز ، وطلميثة ، ولك ، في اقليم برقة ، هي وقبائل مزاتة ، وزبيانة ، ومن صفاتهم : الفروسية ، والعزة ، والنخوة ، والجلد ، والنزعة العدائية ضد العرب . أنظر الادريسي : وصف افريقية الشمالية والصحراوية ص 100 .

(2) السلاوي : الاستقصاء 1 ، 51 . سعد زغلول : تاريخ المغرب 272 . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 2 ، 312 وما بعدها . وفيه تصحيف اسم القائد الى أبي يوسف الهواري .

(3) لقد وضع حد لنهاية عكاشة في القرن ، أما عبد الواحد ، فقد قتل في موقعة الاصنام ، وكلاهما غير بعيد عن مكان القيروان . ورواية ابن عبد الحكم تقدم معركة الاصنام على معركة القرن ، وعلى هذه الرواية أعتمد بعض المؤرخين المحدثين ، بينما أكتفى السلاوي بذكر معركة القرن فقط ، التي وضع فيها حد لنشاط كلا الرجلين . أنظر : ابن الاثير : الكامل 4 ، 223 . ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب 299 . سعد زغلول : تاريخ المغرب 275 ـ 276 . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير 313 ـ 314 . ابن عذاري : البيان 62.1 وما بعدها .

واناخ بقواته ، على مكان قريب منها يسمى الاصنام ، وهكذا بات الموقف خطيرا ، واضحت مدينة عقبة ، تكاد تكون محصورة ، وفي أزمة من قلة الاقوات ، والركائب ، وفي مثل هذا الوقت العصيب تتجلى عبقرية القائد ، ونفاذ بصره ، وخطته المحكمة ، ومقدرته على تعبئة النفوس ، والقوى ، وقد كان حنظلة بن صفوان ، كفؤا للموقف تماما ، فجند كل من في القيروان تقريبا ، ووزع السلاح والاموال على الجند ، وظهر بفضل يقظته ، دور العلماء في التهيئة ، للمعركة فحثوا أهل القيروان ، على الجهاد وقتال الفئة الخارجية وبلغ من تأثير الحماس الذي أوجدوه ، ان كسر الناس أجفان سيوفهم ، دلالة على روح الاستماتة في القتال ، حتى النصر ، أو الشهادة ، وتجلى أيضا دور النساء ، فقمن بتحريض المقاتلين وتشجيعهم على الاستبسال ، وفي اطار هذه التعبئة النفسية ، والاستعداد المادي ، التقى المسلمون ، مع قوات عبد الواحد في الاصنام ، فهزموهم شر هزيمة وقتلوا زعيمهم ، واحتزوا رأسه ، وأتوا به حنظلة ، وتتبعوا فلول الصفرية ، حتى حصن جلولاء (1) ولكثرة من قتل في هذه المعركة ، ولرغبة المسلمين في التعرف على عددهم ، وبسبب عدم خبرتهم بأساليب الاحصاء ، لم يجدوا وسيلة لذلك غير وضع قصبة الى جانب كل قتيل ، ثم احصاء القصب بعد ذلك ، وتذكر النصوص التاريخية ان العدد بلغ مائة وثمانين ألف قتيل (2).

سرت بشائر انتصار المسلمين على الصفرية في الاصنام ، في المغرب فسجد المسلمون شكرا لله وتنفسوا الصعداء ، وفي المشرق سر الخليفة هشام ايما سرور بالنتيجة ، وفي مصر نقل عن الليث بن سعد قوله : «ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها ، بعد غزوة بدر ، أحب الي من غزوة القرن والأصنام» (3) .

لم تقم للصفرية بعد هذه الهزيمة ، قائمة في إفريقية ، فالتجأ بعض قادتهم الى قبيلة برغواطة في منطقة تامسنا ، مثل طريف بن مالك ، ودعا لنفسه ، وشرع للبر برشرائع احتضنها بعد موته رابع ابنائه ، صالح الذي كان قد حضر الى جانب أبيه ، في

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 299 السلاوي : المرجع السابق 51,1 . سعد زغلول : المرجع السابق 275-276 . والقرن أقرب الى مدينة القيروان من موضع الاصنام .

(2) السلاوي : الاستقصاء 51,1 .

(3) ابن عذاري : المصدر السابق 64,1 . سعد زغلول : المرجع السابق 277 .

حروب الصفرية في عصر ميسرة ، ومغرور بن طالوت (1) . ومما يلاحظ ان هذه النحلة لاتعتبر ، من الصفرية ، الا بالنظر لمصادرها الأولى ، وانما هي في آخر تطورها ، ردة ، وخروج صريح عن تعاليم الاسلام .

ويظهر ان فريقا آخر من الصفرية التجأ الى الصحراء ، وعمل هناك على نشر دعوة الصفرية بين البتر ، في منطقة نفزاوة ، وقد لاحظنا فيما بعد ، أن ورفجومة ، وهي احدى بطون قبيلة نفزة ، كانت صفرية ، وتمكنت تحت قيادة عاصم بن جميل ، وبحيلة ، من السيطرة على القيروان فترة ، وطرد واليها حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وقتل نائبه في المدينة ، وهو قاضيها أبوكريب ، عندما أخلص في الدفاع عنها .

أصبحت القيروان في غيبة حبيب واليها المشرد ، لاول مرة في قبضة زعماء الصفرية : عاصم ، وعبد الملك بن أبي الجعد اليغرني (2) الذي ثأر لهزيمة عاصم عند أوراس ، بقتل حبيب بن عبد الرحمن سنة 140 هـ وأنهاء حكم أسرة الفهريين في إفريقية (3) .

وقد استحل عبد الملك ورجاله ، المحارم ، وهتكوا الاعراض ، في القيروان ، وداسوا المقدسات الدينية ، عندما ربطوا دوابهم في مسجد عقبة وفعلوا المنكرات فيه ، فضجر الناس ، وندموا عما فرط منهم في حق الفهريين ، ولما انتشرت أخبار جور ، ورفجومة في الآفاق المغربية ، تملكت الأريحية مسلما معافريا ، وثائرا متغلبا على طرابلس ، وخارجيا اباضيا ، هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، فزحف على ورفجومة في القيروان ، ولسان مقاله امام اتباعه : « بيتك اللهم بيتك » ، فأخرجها وشردها واظل مدينة عقبة بحمايته المؤقتة ، وعين لحراستها وتدبير شؤونها رفيقه في الدراسة ، وفي حمل أمانة العلم ، عبد الرحمن بن رستم ابتداء من سنة 141 هـ (4) .

---

(1) ابن عذاري : البيان لله ج 1 ص 60 ؛ السلاوي الاستقصاء 51,1 .

(2) يوصف هذا الرجل لبراعته ، ووجاهته في قومه ، بالكاهن .

(3) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 80 ـ 81 .

(4) يذهب بعض مؤرخي العرب ، الى ان ورفجومة ، كانت أباضية الا أنها تخلفت عن اباضية نفوسة بدليل اصطدامها معهم ، ثم عن اباضية تاهرت أيضا . وعن حركة ورفجومة وفظائعها ، وتحرك عبد الاعلى ضدها ، أنظر : ابن عذاري البيان 80,1 ـ 82 .

II ـ الحركة الاباضية في افريقة

أ ـ الأصول الأولى للحركة الأباضية :

تنتسب الفرقة الأباضية ، الى أحد فقهاء المذهب ، وهو عبد الله بن إباض المري التميمي ، أظهر رجال الفرقة المتأخرين نسبيا ، في الاجتهاد ، والحماس ، والنضال في مدينة البصرة (1).

يرتبط ظهور هذه الحركة ، ببداية النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ، وفي آخره تقررت الفروق بين الأباضية ، وغيرهم ، من أصحاب النحل الأخرى ، ففي مدينة البصرة عاش امام المذهب ، التابعي الجليل جابر بن زيد في الفترة ما بين 22 و 96 هـ ، ومن مركزه في البصرة انتقل الاشعاع ، والتيارات الأباضية ، الى مختلف البلاد .

وجابر بن زيد(2) ، الذي يكني(أبا الشعثاء) من أزد عمان ، التجأ الى البصرة وأخذ العلم عن ابن عباس ، وعائشة ، وانس بن مالك وعبد الله بن عمر ، وعنه أخذ الكثيرون واهمهم : أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، أبرز فقهاء المذهب ، وعمدتهم بعد أبي الشعثاء .

كان لآراء جابر بن زيد ، وزنها ، ومكانتها عند جميع الأباضية ، فلا يتجاوزونها بأي حال ، من الأحوال ، واشتهر بينهم هذا الامام ، بكتابه المشهور الذي يسمى (ديوان جابر) ، وأثر ، أن هذا الرجل كان محل تجلة واكرام من طرف يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج (3) .

واقتدى رجال الطائفة ، بعد جابر ، بأقدم تلاميذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، مولى بني تميم الذي عرف بلقب «القفاف» ، وكان مقامه في البصرة ، ولم ينتقل عنها . ومجالسه العلمية كانت تُعقد علنا ، لأرشاد أهل المذهب ، ثم أصبحت تعقد سرا ، خيفة من بطش الحجاج ، وملاحظة رقبائه ، ومع هذه التقية ، فقد عاقب الحجاج هذا الامام وسجنه في البصرة ، بسبب نشاطه المذهبي ، ومن عبارة أوردها الشماخي في «سيره» ،

---

(1) المبرد : الكامل . أخبار الخوارج ص 89,78 .

(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 13 ، الذيل والمذيل ص 118 ـ 119 .

(3) علي يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ج 1 ص 143 ـ 149 الحلقة الاولى من القسم الاول .

نستنتج مدى سعة علم الرجل ، وتنوع نشاطاته الثقافية قال الشماخي : « فقد تعلم العلوم وعلّمها ، ورتب روايات الحديث ، وأحكمها » (1) .

وقد حرص اتباعه ، وتلاميذه ، على التمكين لمذهبهم ، ونشره ، في الآفاق شرقا وغربا ، ولكنهم كانوا محافظين على قوة رابطتهم بأستاذهم في البصرة بالعراق .

ب ـ دعاة الأباضية :

يعزى نشر المذهب الى مجموعة من المتحمسين ، يسمون « الدعاة » وفي ميدان المغرب يرى رجال الطائفة ان سلمة بن سعد ، هو أول من نقل مبادئ المذهب الأباضي ، الى إفريقية فهو اذا أول الدعاة .

فقد انتقل من المشرق مغامرا ، في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وارتاد البلاد من منطقة الى أخرى دون رفيق (2) ، حتى وصل إفريقية ، فبث فيها آراءه ، وعلوم الطائفة ، كما سمعها من أستاذ المذهب أبي عبيدة ، نقلا عن أبي الشعثاء ، ويظهر ان نشاطه قد أثمر ، لاننا لاحظناه ، يحافظ على علاقته بالبصرة وبأمام المذهب ، فيجمع بعض الطلبة من جهات مختلفةً ويكون منهم بعثة ، يشرف على سفرها الى البصرة ، وكان عددهم خمسة وسموا فيما بعد « حملة العلم الى إفريقية » وهم : عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم بن جميل السدراتي ،واسماعيل بن درار الغدامسي ، وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ، وأبو داوود النفزاوي — ويستنتج من ترجمة محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني ، حرص كثير من رجال الطائفة بتأثير دعوة سلمة بن سعد ، على الالتحاق لأخذ أصول المذهب من منبعه . فقد سافر هذا الرجل وأخذ العلم ثم رجع الى بلده في جبل نفوسة حيث أصبح مفتيا ، قبل ان تسافر البعثة العلمية الجماعية التي كونها سلمة ، ويروى أنها بعد ان رجعت من البصرة واقامت فترة طويلة نسبيا ، بطرابلس حيث أصبحت محور حركة الافتاء ، انصرف ابن مغطير عنه ، وكرس حياته بعد ذلك لتوجيه البعثات العلمية الى الشرق ، وبعثة حملة العلم ، هي عمدة رجال الطائفة ، في رواية ، وفي دراية آراء فقيه المذهب وامامه — وقد شغل رجالها ، بالافتاء ، والتدريس ، كما مارسوا شؤون السياسة ،

---

(1) علي يحيي معمر : نفس المرجع والحلقة ص 153 ـ 159 (نقلا عن الشماخي) .

(2) في رأي انه أتى مع عكرمة مولى ابن عباس في بعثة واحدة ؟

فهم الذين بايعوا أشهرهم أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح اماما ، ورئيسا سياسيا ، فرتب بدوره شؤون الطائفة واقام نظاما سياسيا دينيا في طرابلس ، ثم في افريقية كلها بمساعدة رفقائه في الدراسة ، وقد أصبح ابن درار الغدامسي قاضيا للطائفة ، وعبد الرحمن بن رستم ، عاملا على سرت ، وكانت هي والقيروان من أهم ثغور الدولة الخطابية ، وكلف ابن يمكتن ، احيانا بقيادة جيش الطائفة ضد المخالفين ، وضد عمال العباسيين ، وقد لقي حتفه في المعارك التي دارت بين الطائفة وجند محمد بن الأشعب ، قرب تاورغاء (1) . واسندت مهمة قيادة جيش الطائفة ضد ورفجومة المستبدة بشؤون القيروان ، الى عاصم بن جميل السدراتي ، الذي يؤثر انه كان هدفا لنقمة أبي الخطاب وتأديبه بسبب غلوله في أموال وسبي ورفجومة ، فتأثر لذلك ، وخان الطائفة ، والتجأ الى أبي جعفر المنصور يحرضه ضد امامه ، وأهل مذهبه (2) ، ويعزي لعمر بن يمكتن ، الذي ذكره أبو زكرياء في الطبقة الثانية من علماء المذهب ، انه أول من ابرز أهمية الثقافة والتعلم ، فبنى لأول مرة في منطقة جبل نفوسة ، في قرية «ايفاطمان» (3) مدرسة لتعليم ابناء البلاد القرآن واصول المذهب وروى أقدم مؤرخي إفريقية «سلام بن عمر» استنادا الى رواية صالح النفوسي بتوزر ، ان أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن ، وقد تعلمه في طريق (مغمداس) حيث كان يتلقى السابلة والمارة من المشرق فيكتب عنهم لوحة من القرآن ، وينصرف الى منزله ، فاذا حفظ ما كتبه رجع الى الطريق ليكتب غيره ، وهكذا حتى حفظ القرآن ،

وكل هذا المجهود الذي تحمله ابن يمكتن ، انما يدل على رغبة في تحصيل القرآن ومباديء العلوم ، من جهة وعلى قلة المعلمين ، في تلك البلدان ، ثم على ندرة المصاحف المكتوبة في ذلك العصر ، من جهة أخرى (4) .

ويظهر ، أن طريق الشرق ، كان عامرا ، وتيار الهجرة العربية لم ينقطع ، ان لم يقو في هذا العصر ، فالتجأ طلاب المعرفة ، الى الوافدين من الشرق ، للتنور بآرائهم ، والاخذ عنهم .

---

(1) علي يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ج 2 ص 43 الحلقة 2 من القسم 1 .

(2) علي يحيى معمر : نفس المرجع والحلقة ص 52 ـ 53 .

(3) توجد آثارها في الجبل ، بين الحرابة والرحيبات وقد اندثرت الآن .

(4) الورقات ج 1 ص 80 ـ 81 .

ج ـ **مباديء الاباضية:** يرى فقهاء الطائفة ومحصولهم ، ان مرتكب الكبيرة ، موحد وليس بمؤمن ، وكانت نزعتهم أميل الى السلم ، فلم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم ، كالازارقة ، ومن أقوال عبد الله بن إباض : لا نقول فيمن خالفنا : انه مشرك ، لان معه التوحيد والاقرار بالكتاب والرسول وانما هم كفار للنعم ، وموارثهم ومناكيحهم ، والاقامة معهم حل ، ودعوة الاسلام تجمعهم ، وقتالهم غير جائز الا بعد اقامة الحجة عليهم ، ودارهم دار اسلام ما عدا معسكر السلطان (1) .

ويذكر صاحب الملل والنحل من بين رجالهم الاوائل أبا الشعثاء ، وعبد الله بن يزيد ، ومحمد ابن حرب ، ويحي بن كامل وأبا الحسين عليا ابن زيد (2) .

أما رجالهم المتأخرون فعرف منهم في افريقية وطرابلس أبو الخطاب الامام ، ثم أبو حاتم الملزوزي الذي خلفه بعد موته ، فهؤلاء الائمة وأتباعهم لعبوا دورا سياسيا ، في انتفاضة البربر ، التي أبعدت افريقية على سلطان الخلافة الاسلامية (3) .

ومن فئات الاباضية فرع النكارية ، وتوجد بقاياهم فيما يرجح في منطقة جربة ، وجبل نفوسة ، وورقلة (وارقلان) (4) . وقد حاول أحد زعماء النكارية ، وهو خلف ، أن يستقل بالجبل في بعض الفترات ، فحيل بينه وبين تحقيق رغبته ومنها ايضافئة الخليفيين ، والنافعيين ، والبيهسيين ، ويستعرض صاحب كتاب « الاباضية في موكب التاريخ » ـ وهو من أهل الطائفة ـ مميزاتهم فيقول : منها ، تسامحهم مع المعتدين ، وبساطتهم ، وصراحتهم في قول الحق ! ! ووضوح عقيدتهم ، واعتدال في حياتهم ، ساعدتهم على نشر مذهبهم ، فلم يعرف عنهم اللجاج ، كالمعتزلة ، ولا العنف ، شأن الازارقة ، ولا الكذب ، شأن بني أمية ! ولا الافراط شأن الشيعة (5) .

---

(1) جمال سرور : الحياة السياسية ص 131 ـ دائرة معارف البستاني مجلد 1 ص 18 .

(2) الشهرستاني ج 1 . ص 137 .

(3) دائرة المعارف الاسلامية مجلد 1 (اباضية) ص 3 ـ 4 .

(4) البكري : المغرب في وصف بلاد افريقية والمغرب ص 19 ـ 85 ـ الادريسي وصف افريقية ص 89 ـ 91 ـ 95

(5) علي يحيي معمر : الحلقة الثانية ص 45 ـ 47 .

د ـــ الاباضية ودور العنف في افريقية :

أكتفى الاباضية في البدء ، بنشاطهم السلمي وحركتهم الدعائية ، لنشر مذهبهم بين البربر ، في طرابلس ، وافريقية ، ولم يخرجوا عن ذلك ، الى استعمال العنف والثورة الا في الثلاثينات من القرن الثاني للهجرة ، عند ما كان مصير افريقية كلها ، بيد أسرة عربية عريقة هي أسرة الفهريين ، وكانت طرابلس ونواحيها يشرف عليها من تونس ، واليها الياس بن حبيب ، من قبل أخيه عبد الرحمن بن حبيب ويظهر ، أن الياس ، قد سمع عن نشاط أحد الاباضية ، وهو عبد الله بن مسعود التجيبي ، ما أثار حفيظته ، فقتله ، فاستاء رجال الطائفة ، وطالبوا عبد الرحمن بقتل أخيه قصاصا لنفس مؤمنة ، فأبي ذلك ، لكنه أبعده عن شؤون طرابلس تأديبا له ، وأستجابة لرغبة الأباضية وعين خلفا له حميدا بن عبد الله العكي ، وفي عهد هذا العامل ، وبسبب عدم رضاهم عن سياسة عبد الرحمن بن حبيب ، ثار الاباضية ثورة عامة ، ضد سلطان الفهريين ، وخلفاء بني أمية ، وتولى قيادة ثورتهم في هذا الوقت الحارث بن تليد ، الذي بويع أماما ، وعبد الجبار بن قيس المرادي الذي عين قاضيا ومشيرا ، فأنزلا هزيمة بعامل عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ، وسجناه ثم أطلقا سراحه وطرداه من المنطقة (1) ، وسلكا سياسة العنف مع أهل البلد الذين لم يرتاحوا لهذا التطور الجديد ، فقتلوا جماعة كثيرة منهم ، وكان تصرفهما سببا لسير جيش عبد الرحمن الى طرابلس ، حيث تتبعهما حتى أخضع ثورتهما وعمر سور طرابلس ، ورجع الى القيروان ، بعد أن عين على طرابلس واليا هوعمروبن سويد المرادي (2) .

ويشير صاحب كتاب « الاباضية في موكب التاريخ » وهو من الاباضية المحصلين الى أن قتل الامام ، وقاضية تم بدسيسة من عبد الرحمن بن حبيب أظهرت الرجلين ، أمام الأتباع ، في مظهر من أستبد بهما الغضب والنزاع على السلطة ، فتقاتلا (3) .

---

(1) ابن عبد الحكم : الفتوح ص 301 .

(2) ابن عبد الحكم : الفتوح 302 .

(3) علي يحيى معمّر : نفس المرجع والصفحات ـ ابن عبد الحكم : الفتوح 302 .حيث يذكر قصة تنازعهما والتجائهما الى تحكيم السيوف .

وعلى فرض صحة ما ورد عن هذا المؤلف الاباضي ، الذي لم يذكر مستنده في الرواية فان الحرب خدعة ، ولن يلام ابن حبيب ، وهو مسؤول عن الامن ، وراحة السكان ، وعمن قتل على أيدي الاباضية ، على الكيد لهما ، والقضاء عليهما ، والتشهير بسمعتهما بين من جعلوهما مستودعا لثقتهم .

لم يقض على ثورة الاباضيةفي طرابلس ، الا مؤقتا ، ذلك انهم بعد هذه الهزيمة التي حلت بهم ، عكفوا على تنظيم صفوفهم من جديد ، وتهيئة أتباعهم ماديا ومعنويا ، للثأر ، من عمال بني أمية ، وبني العباس والقضاء نهائيا ، على ما سموه « حكم الاستبداد ، والجور ، والملكية » ! واقامة حكم العدل والشورى ، والجمهورية في رأيهم ولقد أتيحت لهم فرصة للظهور من جديد على المسرح السياسي عند ما أشيع بأ سوء صنيع ورفجومة الصفرية وأميريها ، عاصم بن جميل ، وعبد الملك بن أبي الجعد اليغرني ، وانتهاكهما للحرمات ، والمقدسات الدينية عند جميع المسلمين ، وعندما بلغت تصرفات ورفجومة ، رجال الطائفة ، وأمامها الجديد وهو أشهر حملة المذهب الاباضي الى أهل افريقية عبأ صفوفه وتدخل لطرد ورفجومة من القيروان ، وقد تم له ذلك ، بعد معركتين ، قتل في الاخيرة منهما ، عبد الملك بن أبي الجعد وشردت قبيلته ، التي تركها أهل القيروان لمصيرها ، ولم يساعدوها جزاء وفاقا لمكرها بهم ، وأحتيالها عليهم من قبل ، وأصبحت المدينة بأمر من أبي الخطاب ، تحت رعاية رفيقه في الدراسة وفي حمل أمانة العلم ، عبد الرحمن بن رستم ابتداء من سنة 141 هـ ، كما أسلفنا

وقد استفاد الاباضية من انقاذ القيروان ونصب حمايتهم المؤقتة عليها ، ايما استفادة في الناحيتين المادية والمعنوية فقد أرتاح الناس في افريقية كلها ، وأسلسوا القياد لابي الخطاب ، وابن رستم ، وتأكدت تبعية افريقية لابي الخطاب ، بعد هزيمته لابي الاحوص العجلي في « مغمداس » ، وهو الذي كلف من طرف محمد بن الاشعث عامل مصر ، باقرار الامن والنظام في افريقية ويظهر أن أبا جعفر المنصور ، ساءه أن تنفصل افريقية عن سلطانه السياسي والمذهبي ، ويترك مصيرها بين أيدي فئة موتورة لم تخل من « عقدة الطائفة » ، ومن التحيز المذهبي ، لذلك عهد الى عامله على مصر محمد ابن الاشعث ، بان يتولى بنفسه ، مهمة ارجاع الوضع في افريقية الى

حالته الطبيعية ، وبالرغم من أن ابن الاشعث ، كان في معيته ، حين خرج من مصر ، جيش ضارب ، بلغ نحو خمسين ألفا ، وبعض قادة العرب المشهورين ، مثل الاغلب بن سالم التميمي ، الا انه لم يجرؤ على ملاقاة أبي الخطاب الذي عسكر بمدينة سرت ، كبرى ثغور دولته ، بجيش بلغ نحو مائتي الف من المحاربين ، فالتجأ ابن الاشعث الى أعمال الجبلة ، وتظاهر بالتراجع الى مصر ، وبث عيونه وارصاده ، في المنطقة ، ليزودوه بأخبار عن أبي الخطاب ، وعن الوضعية العامة في جيشه . وعندما بلغه اختلال أمر أبي الخطاب وضعف سلطته على بعض النزعات القبلية في جيشه ، بسبب تنازع قبيلتي هوارة ، وزناتة ، واتهام الاخيرة أبا الخطاب ، بايثاره وميله للاولى ، عزم على اللقاء ، وكان حاسما حقا فقد أنهزم الاباضية (سنة 144 هـ) وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم ، وفي المقدمة أمامهم أبو الخطاب الذي أرسل رأسه الى بغداد (1) .

وبهزيمة ابي الخطاب في سرت ، وقتله ، تنتهي أكبر دولة أقامها الاباضية ، في افريقية حتى هذا الوقت .

كانت هزيمة سرت ، ذات تأثير سيء في نفوس الاباضية ، وكان خطبهم جللا ، بقتل امامهم ، وقائدهم الذي أكسبهم ، بين النحل الاخرى سمعة حسنة ، بالتزامه للحق والعدل ، ونصره للدين ، لذلك لم تهدأ نفوسهم وعولوا على الثأر ، واقرار دولة الحق ، على انقاض حكم الاستبداد والجور في رأيهم ! ! فكانت ثورة أبي هريرة الزناتي ، التي أخمدت بفضل حزم وشدة ابن الاشعث الذي رأى بعد ماحل بمدينة عقبة ، من الحصار ، والتدمير ، ان يعمرها ويقوى استحكاماتها ، فبني سورا يحيط المدينة ، أنتهى منه سنة 146 هـ كما تتبع المخالفين ، الاباضية ، في ودان ، وزويلة ــ وقتل مقدم هذه الطائفة في المدينة الاخيرة ، ويسمى عبدالله بن حيان (2) .

ويظهر أن مصير ثورة أبي هريرة ، فتّ في ساعد عبد الرحمن بن رستم ، الذي آثر النجاة بنفسه ، الى مضارب البتر ، في المغرب الاوسط انتظارا لفرصة أخرى فنزل على قبيلة لماية لحلف قديم بينه وبينهم ، ولكونها اباضية ، فاحتضنوه وبايعوه بالامامة ، وشرعوا في بناء مدينة تاهرت على وادي مينة وفي سفح جبل جزول المطل

(1) ابن عذاري : البيان ج1 ص 83 - ابن الاثير : الكامل ج5 ص 149، 150 السلاوي : الاستقصاء 57,1.
(2) ابن الاثير : الكامل ج5 ص 151 : يذكر أن مقدم زويلة الاباضي يسمى عبد الله بن سنان .

على تلول منداس (1) ، التي أصبحت ولمدة قرن ونصف ، عاصمة لدولة اباضية هي الامامة الرستمية .

مال الاباضية بعد هذه الهزائم المتوالية ، الى الموادعة والهدوء في عهد خلف ابن الاشعث وهو : الاغلب بن سالم التميمي ، وتركوا الميدان فسيحا لابي قرة المغيلي الصفرى ، وقبيلته في تلمسان ، ولبربر طنجة من بقايا السيوف لعلهم يستفيدون من تنازع الخصمين في تمثيل دور الحكم العدل ، لكن حظهم هذه المرة ، لم يكن بأحسن من سابقتها ، فقد أنهزم أبو قرة دون قتال ، ولم يظهر من زناتة في تلمسان ، ومن مطغرة واحلافها في طنجة ما يدعو الى القلق فضلا عن امتشاق الحسام ، فأعادوا تنظيم صفوفهم من جديد وبايعوا يعقوب بن لبيب ، مولي كندة ، الذي يكني بابي حاتم (2) ، أماما جديدا خلفا لابي الخطاب ، وبنوا خطتهم هذه المرة ، على مد اليد ، لبقية الطوائف الخارجية ، والتنسيق معها ، للظفر بالحكم والتمكين للمذهب الاباضي ، وظنوا أن الفرصة مواتية ، كي يتجمعوا من جديد ، ويعودوا الى سالف نشاطهم ضد قاعدة القيروان ، وعمال الخلافة العباسيةفيها دلك ان افريقية منذ سنة 151 هـ كان يقود دفتها بتفويض من أبي جعفر المنصور ، قائد عربي من أسرة المهالبة ، ذات السمعة الباهرة ، في قتال خوارج المشرق هو عمرو بن حفص (هزار مرد) . وكان هذا الوالي ، مشغولا ببناء مدينة ، في منطقة الزاب هي مدينة طبنة الاسلامية التي تقع على وادي يبطام ، ولاجل تنفيذ رغبة المنصور ، ولاتمام العمل على خير وجوهه أقام عمرو بن حفص ، بعيدا عن القيروان فانعزل عما يجري في أرجائها ، وفي منطقة طرابلس بالذات ، التي كان يدير شؤونها نيابة عنه الجنيد بن بشار .

ابتدأ الاباضية حركتهم ، بانزال الهزيمة بعامل طرابلس ، وطرده الى قابس ، ثم حاصروه فيها بقوات كبيرة ، على رأسها أبو حاتم وقد ظن مخططو سياسة التحالف بين أهل النزعة الخارجية ، أن خير طريق وأقربه الى الظفر بالمطلوب ، هو الزحف مباشرة على طبنة لمناجزة حاميتها ، وممثل الخلافة فيها ، وتبعا لذلك حوصرت طبنة ، من

(1) ابن خلدون : العبر ج 2 ص 121 : يذكر أن تاهرت تمر بها عيون نابعة من نهر مينة ـ وتتجاوز مدينة البطحاء ، التي بناها عبد المؤمن الموحدي ـ حيث تصب في نهر شلف ، ويحدد تمصير تاهرت بسنة 144 هـ .

(2) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 92 ـ وقد يذكر أيضا بيعقود بن حبيب . وهو من بين أئمة الدفاع ، وليس من بين أئمة الستر أو الشراء أو الظهور في نظر الاباضية .

طرف أثنى عشر جيشا خارجيا أظهر العناصر فيها ، الاباضية ، الذين قاد جموعهم أبو حاتم ، وابن رستم ، ومسعود الزناتي (1) .

أما الصفرية ، فقاد جموعهم : أبوقرة المغيلي وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي . والذي يظهر من النصوص التاريخية ، أن عمرا صمم على لقائهم ، رغم قلة عدده ، ونقص عدته ، فلما خالفه رجاله ، التجأ الى تفريق صفوف الاحلاف وشراء ذمم بعضهم ،بالمال ، وبالاغراء ، وبالرغم من أن أبا قرة أبى أن ينسحب ، نظير ما وعد به قائلا لرجاله : «بعد أن سلم علي بالخلافة أربعين سنة ، أبيع حربكم ، بعرض قليل من الدنيا » فان المال والتحف أستهوت أخاه ، فحمل - عند ما أنسحب فجأة - أبا قرة على الانسحاب رغما عنه (2) .

وعندئذ سرح عمرو لابن رستم ، جيشا ، هزمه في منطقة تهودة في الزاب ، وألجأه لآخر مرة ، الى الفرار نحو تاهرت والاستقرار فيها هذا بينما ضعفت الروح المعنوية عند باقي الجيوش الحليفة ، المحاصرة لطبنة فانصرفت عنها مؤقتا وفي الوقت الذي سار فيه أبو حاتم نحو القيروان لحصارها سمع أبو قرة نبأ خروج عمرو بن حفص نجدة لاهلها فرجع الى طبنة من جديد حيث لقى هزيمة منكرة من طرف حامية المدينة ، جعلته يظفر من الغنيمة بالانسحاب . اما أبو حاتم وغيره ، فكادوا يدخلون مدينة القيروان ، لولا سماع أهلها بنجدة عمرو— فقويت روحهم المعنوية من جديد وحافظوا على مستوى مقاومتهم ، ورابطوا ، ضد جبهة المحاصرين حتى تمكن عمرو— بحيلة بارعة ، وخطة محكمة — من هزيمة المحاصرين هزيمة معنوية ، والنفاذ الى قلب مدينة القيروان بمن معه من جند ، وما جلبه من مؤن ، وسلاح — وأثر ذلك لم يجد الخوارج — وسيلة للضغط على عمرو غير تشديد الحصار ، وفرض رقابة صارمة ، على جميع المسالك التي تؤدي الى المدينة . ويظهر ان الحصار طال حتى أثر على الحالة المادية والمعنوية للسكان ، وجعل عمرا يفكر في وسيلة غير مشروعة للحصول على المؤن اللازمة للمحاصرين ، ولما لم تجد هذه الوسيلة ، وفي نفس الوقت بلغه نبأ تعيين قريبه يزيد بن حاتم المهلبي على رأس نجدة لانقاذ

---

(1) يذكر ابن عذاري هذا القائد ، باسم المصور الزناتي ج 1 ص 88 .

(2) ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 151 - ابن عذاري : نفس المصدر والصفحة .

المحاصرين ، وما أوصى به ، من وقف المقاومةحتى يحضر الى القيروان ، انفت نفسه ، وانتفخت أوداجه ، وخرج من المدينة مغضبا ، وقاتل الخوارج قتال المستميث حتى قتل ، سنة 154 هـ على يد أبي حاتم ، وأبي غادى (1).

وأثر موته ، تمكن أخوه لامه حميد بن صخر (2) من تحقيق نوع من التفاهم المؤقت ، مع أبي حاتم ، على اساسيين : بقاء أهل المدينة ونواحيها على طاعتهم لآل العباس ، واحتفاظ الجند بأسلحتهم . فتظاهر الخارجي بالرضا والموافقة ثم استبد به الغضب ، وكشف عما في نفسه عندما دخل المدينة ، ورأى السواد شعارا ، والأسلحة شاهرة وطاعة المنصور نافذة ، ومعالم القيروان الاسلامية شامخة ، فاخرج الجند من المدينة فالتجأوا الى طبنة وثلم سور القيروان ، الذي رأينا ابن الأشعث يقضي في بنائه فترة طويلة واحرق أبوابها ، التي طالما صدته مدة اشهر (3) — وأبي الله الا ان تقصر اقامته في مدينة عقبة ، وتتحول سعادته بهذا النصر اليسير ، الى شقاء دائم ، بنبأ وصول نجدة عباسية ضخمة على رأسها يزيد بن حاتم ، الى منطقة طرابلس ، فرجع بسرعة اليها ، وبنفس هذه السرعة خرج منها وتمركز بمنطقة جبل نفوسة ، وعندما تم له النصر ، في أول لقاء بينه وبين يزيد بن حاتم ، في قابس ، ضرب خيامه بمكان وعر المسالك ، وخندق حوله ، ومع ذلك تم لرجال يزيد بن حاتم النصر على قوات أبي حاتم وتتبع المسلمون الفلول ، في كل سهل ، وجبل (4) ، — وقتلوا أبا حاتم الملزوزي ، أمام الأباضية في منطقة جندوبة ، فدفن هناك .

يروى الشماخي في «سيره» — كرامة لأبي حاتم تتمثل في ان مكان القبر اشتهر بين الناس بأنه يرى فيه الضوء كل ليلة ، الى ان دفن الى جواره اعرابي فانقطع !! (5) ، ونحن وان كنا لا ننازع رجال الطائفة في احاطة ائمتهم بما يريدون من هالات التقدير والاحترام ، ارضاء لمشاعرهم الدينية ، وتربية لعامتهم ، غير اننا ندفع زعمهم بأن الضوء انقطع من القبر ، بمجرد ان دفن الاعرابي الى جواره ، لأنه تشتم منه ، رائحة العنصرية ، والتعصب المذهبي —

---

(1) ابن عذاري : نفس المصدر والجزء ص 91 نقلا عن الطبري في حوادث سنة 153 .

(2) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ص 284 . وأنظر ابن عذارى الذي يذكر ان آخاه يسمى جميلا بن حفص ص 90 .

(3) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ص 146 — 147 .

(4) كان شعار الجند العباسي : (بالثارات عمرو بن حفص) .

(5) علي يحي معمر : الاباضية في موكب التاريخ ج 2 ص 62 — 63 . (نقلا عن الشماخي) .

وكلاهما قد حاربه الاسلام ، وشدد النكير ، على من يعتمد عليهما في حياته ومعاملاته .
وأثر معركة جندوبة ، دخل يزيد القيروان ، وابتدأ بسلسلة من الاصلاحات كان لها أثر بعيد في المدينة ، وفي سكانها ، فأمن الناس من جو الخوف الذي خلفه الخوارج ، ورتب أسواق المدينة ، وجعل كل صناعة في مكانها ، وجدد بناء مسجد ـ عقبة وتتبع بقايا الخوارج والمنتقضين من صفرية ورفجومة ، وهوارة فقضى على رؤساء الفتنة عندهم ، مثل أبي ايوب الهواري في نفزاوة وأبي يحي بن قرباس في منطقة طرابلس (1) . ولشعوره بأهمية تأمين المنطقة وسكانها من خطر هذه الفئة ، عين — وهو على فراش الموت — ابنه داوود ، في منصبه ، وكان لهذا الخلف مع الخوارج في ناحية باجة وغيرها ، معارك مشهورة ، قادها ضدهم : أخواه المهلب ، وسليمان ، الذي تمكن من القضاء على ثورة نصير بن صالح الأباضي ، الذي يعتبر تقريبا من أواخر ثوار الخوارج في إفريقية ، لان الأمور في هذه المنطقة ، بعد جهود المهالبة ، استقامت ، وتمهدت ، وتهيأت البلاد ، واقبل سكانها على حياة مستقرة ، وعلى نشاط ثقافي مثمر ، في عصر الاغالبة . أما بقايا السيوف من الأباضية — فقد تجمعوا في منطقة تاهرت (2) ، حيث أقاموا الدولة الرستمية ، وطبقوا مذهبهم ، ومارسوا نشاطهم الثقافي ، في حرية واطمئنان ، في اطار المحافظة على صلات الود ، والاخوة المذهبية ، مع خوارج المشرق ، وجبل نفوسة ، وسجلماسة التي غدت هي الأخرى مدينة وحاضرة لدولة صفرية ، عمرت فترة طويلة من الزمان (3) .

---

(1) ابن عذاري : البيان ج 1 ص 93 — 94.

(2) في مكان يقرب من تاهرت القديمة ، يسمى (تاقدمت) كان في الأصل مزرعة رومانية . وهنا بنيت أقدم امصار الخوارج ، بعد مصر سجلماسة . وتسمى بتاهرت المحدثة والعليا والرستمية ؛ ومعسكر ابن رستم .

(3) بنيت سجلماسة سنة 140 هـ ، وأصبحت مركزا لصفرية مكناسة من بني واسول وبني مدرار حتى سنة 296 هـ ، وفي هذه السنة فتحت على يد أبي عبد الله الداعي فأصبحت في اطار نفوذ الخلافة الفاطمية ، انما بقيت محتفظة بطابعها التقليدي ، وبأمرائها من بني مدرار الذين أصبحوا يعينون من طرف الخليفة الفاطمي في المهدية . أنظر : ابن عذاري 1 ، 82 . السلاوي : الاستقصاء 1 ، 55 — 56 . ومكانها قرية الريساني في اقليم تافيلالت بالمغرب الأقصى .

الخاتمة

وبعد

فان هذه الفترة التي عرفت نشاطا كشفيا هادفا ، أعقبه فتح ثقافي دائم ، بعد حروب صعبة ، تبادل فيها الحيان النصر ، والهزيمة وعرفت صراعا سياسيا ، ومذهبيا ! استفاد منه الحيان أيضا على خلاف في القدر والمقدار.

هي مفخرة العرب والمسلمين ، لأنها وضعت أثناءها أسس استيطان العرب ، وقواعد تعريب المغرب ، وصهر سكانه ، في بوتقة المجموعة العربية الاسلامية ، وفي أثنائها ، عبدت الطرق لكي تنتشر مظاهر الحضارة الاسلامية ، ومنها علم المدينة ، ومذهب امامها ، مالك بن أنس ، فاصبحت جزيرة المغرب والأندلس من أعز البقاع الاسلامية جانبا ، وأكثرها نفرا وامنع القلاع المالكية ، وأكثرها حفاظا على المثل الاسلامية ، ودفاعا عن حمى الدين والعربية .

وقد تضمن الكتاب آراء تدعو الى التفكير والتأمل منها :

ان نقطة الانطلاق في الموضوع طريفة وهادفة ؛ لأنها ارتبطت بفكرة الاستقرار ، ونية الاستيطان عند الفاتحين العرب . وذلك يدحض حتما الآراء المغرضة التي تجعل من العرب عشوائيين ، وطلاب مال وأسلاب وغنائم ، ولا شيئ غير ذلك . وبالنسبة لسكان هذه البلاد الأقدمين تأكد ما سموا به انفسهم ، فهم «الأمازيغ» . ويرجح ان يكون جانب منهم ، قد انحدروا من بقايا الانسان القديم الذي كشفت الحفريات الأثرية عن نماذج له في عدة مناطق من الجزائر ، وتونس والمغرب . ولقد انطلقت من فكرة الاستقرار التي يرمز اليها معسكر القرن ، وقاعدة القيروان ، فوضحت الاهداف الثقافية والانسانية ، للعرب المسلمين في هذه الديار . كما أوضحت أهمية التحالف بين العرب ،

والامازيغ ، واعتبرته ركيزة لأتمام عملية الفتح بوجهية الثقافي ، والسياسي . ولأول مرة ، في تاريخ المنطقة يماط اللثام عن خططها الادارية مثل القضاء والمظالم ، والحسبة التي أوليتها عناية خاصة في الملاحق ؛ وسأهتم بهافي بحث آخر(1) ، لما للجانبين الاقتصادي والاجتماعي من أهمية في حياة الجماعة الاسلامية في إفريقية . ويعتبر ظهور الحركات المذهبية في المغرب انفعالا للمسلمين الجدد ، بمبادئ الاسلام وبآراء الفرق الاسلامية في المشرق . ومن الواضح ان «المذهبية» في المشرق وفي المغرب ، دليل على خصوبة نصوص الاسلام ، وحيوية المسلمين ، واستعدادهم للتطور ؛ ولئن ضعفت الانظمة السياسية من جراء الفتن المذهبية ، فان الحضارة الاسلامية ، اغتنت بانتاج الفرق المختلفة ، في ميادين الآداب ، والعلوم ، والشريعة . ويعد من ميزات الكتاب ، في نظري ، وجود ملاحق في آخره تتناول جوانب من الحياة السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين في بيئة المغرب العربي . وأكثرها من مصادرخطية مغمورة ، لم تنلها أقلام الباحثين .

---

(1) أنظر للمؤلف : التيسير في أحكام التسعير ، ط بيروت 1971 م . الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، ط بيروت 1971 م .

الملاحق

ملحق (1)

أسباب ظهور الحركة الخارجية في المغرب

قال ابن الأثير:

لم يزل أهل إفريقية ، من أطوع أهل البلد ، واسمعهم الى زمان هشام ، حيث دب اليهم أهل العراق ، فاستثاروهم ، وشقوا العصا ، وفرقوا بينهم الى اليوم ، وكانوا يقولون : لا نخالف الائمة بما تجنى العمال . فقالوا لهم : نما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم . فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم فدخلوا على الأبرش فقالوا : ابلغ أمير المؤمنين ، ان أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا غنمنا نفلهم ، ويقول : هذا اخلص لجهادكم ، واذا حاصرنا مدينة ، قدمنا واخرهم ، يقول : هذا ازدياد في الأجر ، ومثلنا كفى اخوانه ، ثم أنهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد ، فاحتملنا ذلك ، ثم نهم ساومونا ، أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا ان نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ، ونفدت نفقاتهم فكتبوا اسماءهم ودفعوها الى وزرائه ، وقالوا : ان سأل أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا الى إفريقية فخرجوا على عامل هشام وقتلوه ؛ واستولوا على إفريقية ، وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النغر فعرف أسماءهم فاذا هم الذين صنعوا ذلك .

أنظر الكامل في التاريخ ج 3 ص 45 .

ملحق (2)

وعند ظهور الحركة الخارجية في اقليم طنجة : التجأ حنظلة بن صفوان الى العلماء الذين ارسلهم عمر بن عبد العزيز — فكتبوا اليه رسالة جامعة يحثون فيها مسلمي البربر ، على الطاعة ، والتزام الهدوء .

نصها :

من حنظلة الى جميع أهل طنجة :

أما بعد فان أهل العلم بالله وبكتابه ، وسنة نبيه محمد (ص) قالوا انه يرجع جميع ما انزل الله عز وجل الى عشر آيات : آمرة ، وزاجرة ومبشرة ، ومنذرة ومخبرة ، ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال وحرام ، وامثال . فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة من النار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال أمر ان يؤتى ، وحرام أمر ان يجتنب ، وامثال واعظة ، فمن يطع الآمرة ، وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وانذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ، ويحرم الحرام ، ويروا العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله مع طاعة واضحة ، وثقة صالحة فقد أفلح ونجح وحي حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أنظر رياض النفوس للمالكي ج 1 ص 67

ملحق (3)

واجب الولاة

قال يحيى بن عبد الله بن أبي البركات في كتابه «بشائر الفتوحات والسعود ، في أحكام التعزيزات والحدود» : وعلى الامام ان يقيم من ينظر في أمور الناس ، واحوالهم ومعاشهم ويؤدبهم على ترك التستر في الحمامات ، وعلى الجلوس في الطرقات والتعرض لاماكن الريب والتهم ، وطرح الازبال والقاذورات في الازقة ، والأسواق ، ونصب الميازيب من السطوح التي تضر بالمارة ، والتقدم بالنهى لارباب الحيطان المائلة التي يخشى سقوطها ، وعلى ترك المياه تجري في الطرقات وترك الكنف مفتوحة ومنع من يسوق الدواب من غير ان يقودها لئلا تصيب احدا ، وعن اخراج الاجنحة والرفوف على الطرق ، ان منعت جواز الراكبين وعن تضييق الطرق بالبناء والدكاكين ، ويمنع من اختلاط الرجال بالنساء في مواقف البيع وينهى النساء عن الخروج للمقابر والجنائز والزيارات الا ليلا لاسيما في وقت غلبة الفساد ، وخصوصا في المواسم والاعياد ، ويعاقب ازواجهن ان لم يمنعوهن ويجعل للنساء سجنًا منفردا بهن مع أمينة ، وينهى عن التعامل بالربا ، وعن الغش ، وتطفيف المكيال والميزان ، وعن افساد سكة السلطان ، وعن التعامل بالمغشوش وغير

المطبوع بطابع السلطان ، ويهرق اللبن المغشوش ، ويكسر الخبز الرديئ ، ويتصدق به ، وتحرق الملاحف والشقق ونحوها التي نسجت على غير وجهها ، ويقطع اغصان الشجر النابت في حرير سور البلد ، ويتعاهد النظر في المساجد والزوايا والاسوار وسائر الاحباس والحدود .

أنظر مجموع المخطوطات (ك) رقم 1154 ورقة رقم 577 دار الوثائق بالرباط الخزانة الملكية رقم 103

ملحق (4)

واجب الولاة

قال يحي بن عمر الكناني في أحكام السوق : ينبغي للوالي ، ان يتحرى العدل ، وان ينظر ، في أسواق رعيته ، ويأمر أوثق من يعرف ببلده ، ان يتعاهد السوق ، ويغير عليهم صنجتهم وموازينهم ، ومكاييلهم كلها فمن وجده غير من ذلك شيئا ، عاقبه على قدر ما يرى من جرمه ، واخرجه من السوق ، حتى تظهر منه التوبة ، والانابة ، الى الخير ، فاذا فعل هذا رجوت ان يخلص من الاثم ، وصلحت أمور رعيته ، ان شاء الله ، ولا يغفل النظر انظهر في سوقهم دراهم مبهرجة ، ومخلوطة بالنحاس بأن يشتد فيها ، ويبحث عمن احدثها فاذا ظفر به أنزله من شدة العقوبة ، ويحبسه بعد على قدر ما يرى ، ويأمر أوثق من يجد يتعاهد ذلك من السوق حتى تطيب دراهمهم ، ودنانيرهم ، ويحزروا نقودهم فان هذا أفضل ما يحوط رعيته به ، ويعمهم نفعه في دينهم ودنياهم ، ويرتجى لهم الزلفى عند ربهم .

الحسبة على الجزارين

سئل ابن القاسم عن الجزار يكون عنده اللحم السمين ، واللحم المهزول فيخلطهما جميعا ويبيعهما بوزن واحد مختلطين ، والمشتري يرى فيه من المهزول والسمين ، غير أنه لا يعرف وزن هذا من هذا . فقال : أما أن كانت أرطالا يسيرة نحو الخمسة والستة ، ونحو ما أشترى الناس بالدراهم والدرهمين فلا أرى بذلك بأسا ، وأما ان كانت الارطال كثيرة مثل العشرين والثلاثين فلا خير في ذلك ، لانه من الغرور ، ويمنع الجزارون من مثل هذا لانه من الغش ولا يحل ذلك لهم .

وسئل يحي بن عمر ، عن الجزارين والبقالين يخلون السوق لواحد منهم ليبيع فيه وحده يوما أو يومين ، ولا ينقص من السعر شيئا ، وانما صنعوا ذلك للرفق به اذا فنى ما بيده أو أراد أن يتزوج ، فقال : اذا أخلوا السوق لهذا الرجل كما ذكرت وكان في ذلك مضرة على العامة ، نهوا عن ذلك وان لم ينقص من السعر ، وان لم يكن على العامة فيه ضرر فلا بأس به . وقد كتب الى عبد الله بن أحمد بن طالب ، بعض قضاته ليسأله عن الجزار يخلط المهزول بالسمين والضأن بالمعز ، فيطلع عليه فيهرب ويدع اللحم ، أو الخباز يبيع الخبز الناقص فيطلع عليه فيهرب ويدع حانوته ، أيغلق حانوته ويعقل لحمه وخبزه ؟ ما لم يخف الفساد عليه ، أم كيف ترى في ذلك ؟ فكتب اليه : والجزار يهرب والخباز فاعقل عليه فاذا جفت بيع عليه ، وأوقف الثمن . قيل لابي زكرياء يحي بن تميم ، هل يعجبك هذا من قوله ، وهل تقول به ؟ فقال : نعم ، به أقول .

الحسبة على صاحب الحمام

سئل يحي بن عمر عن صاحب الحمام ، اذا دخل نساء لا مرض بهن ولا نفاس ، فقال لا شيء عليه حتى يتقدم اليه ، فان عاد فعليه الادب على قدر ما يرى الامام . وكتب الى ابن طالب ، بعض قضاته في حمام قد ضاقوا منه ، ورأوا أنه منكر عظيم ، فأخذ رأيه في ذلك ، فكتب اليه : أحضر فتقبل الحمامي ، ومره ، ان لا يدخل الحمام الا امرأة مريضة أو نفساء ولا يدخل الرجل الا بمئزر . فقال نعم ، ولا تقبل شهادة رجل دخل الحمام بغير مئزر حتى تعرف توبته .

أنظر المعيار المعرب ج 6ص 286ـ 331 .

ملحق (5)

خطة الحسبة وفضلها ، وشروط المحتسب

قال أحمد بن سعيد المجيلدي : في كتابه « التيسير في أحكام التسعير أعلم ان الحسبة من أعظم الخطط الدينية ، هي بين خطة القضاء ، وخطة الشرطة ، جامعة بين نظر شرعي

ديني ، وزجر سياسي سلطاني ، فلعموم مصلحتها وعظم نفعها تولى أمرها الخلفاء والأمراء المهتدون ، لم يكلوا أمرها ، الى غيرهم ، مع ما كانوا فيه من شغل الجهاد ، وتجهيز الجيوش ، للمكافحة والجلاد . ومن شروط المحتسب : ان يكون ذكرا اذ الداعي الى شرط الذكورة أسباب لا تحصى ، وأمور لا تستقصى ، ولا يرد ماذكره ابن هرون أن عمر رضي الله عنه ، ولى الحسبة على سوق من الأسواق امرأة تسمى الشفاء ، وهي أم سليمان بن أبي مغيثمة الانصارية لان الحكم على الغالب ، والنادر لا حكم له ، وتلك القضية من الندور بمكان ولعله في أمر خاص يتعلق بأمور النسوة ، ومن شروطه أيضا ان يكون مسلما اذ لا ولاية لكافر على مسلم ، ولا أمانة ، وان يكون بالغا اذ الأمور مع الصبي لا تكاد تنضبط غالبا بزمام لامتزاجها في الغالب بقلة التثبت ، وكثرة الاوهام ، وان يكون عدلا اذ هي أصل في الخطط والولايات ، والأمور المباينة للجنايات ، ومن شروط الكمال ان يكون لا يخاف في الله لومة لائم ذا مهابة ووقار وهمة عالية غير دنيء القدر ، وفضاضة يشوبها رفق ، ومن حقه ان لا يؤدب أحدا حتى يتقدم له فيما أمر به أو نهى عنه ويتأنى ولا يؤدب أحدا الا بعد التحقيق . قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقد أدب عمر رجلا رآه يصلي بين النساء فقال له : والله لئن كنت احسنت فقد ظلمتني ، وان كنت أسأت فما أعلمتني . فقال له عمر : أما علمت بنهي ان يطوف الرجال مع النساء ؟ فقال : والله ما سمعت ، ثم القى له الدرة فقال له : اقتص . فقال : لا أقتص اليوم ، فقال : فاعف ، فقال لا ، وانصرف ثم لقيه غدا فقال له : أما آن لك ان تقتص أو تعفو؟ فقال : قد عفوت . وعلى المحتسب ان يحتسب في كل ما يراه مصلحة للمسلمين ، وان ينظر في جميع الامور الجليلة ، والحقيرة ، وقد كان بعض أصحاب الشافعي لما قدم لها ببغداد أقام قاضيا وجده يقضي في المسجد ، وقد كان محتسب أمر المؤمنين ان يعصبوا على أعينهم ، وقت صعودهم للتأذين على السطوح والمنابر ، وليكن لينا في فظاظة ، ضعيفا في قوة يوبخ ويزجر ويتوعد ، ويسحن ويضرب ، ويعاقب سرا وجهرا ، ويطوف بعد التثبت ، ويتخذ من ثقات أهل السوق ومن يعرف ثقته وامانتهيبحث له عن أحوال الناس ، يتفقد الموازين والامداد بنفسه مرة بعد مرة في الأوقات المعهودة فماظهر من المناكر غيره بحيث لا يتجسس على أحد ، ممن ابتلى بشيء ، الا المجاهر — ولا ينبغي له ان يتسور دار قوم اذا اتهمهم بمعصية ، ما لم ترتفع أصوات الملاهي والمناكر وضجيج السكارى فله الهجوم عليهم ، وأجرة المحتسب كأجرة أعوان القاضي . »

أنظر مجموع — ك — رقم 1153 — ومجموع رقم 2577 — دار الوثائق والمحفوظات بالرباط — ومجموع المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائر رقم 1377

ملحق (6)

الحسبة واسطة بين القضاء، وولاية المظالم

قال محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني (الحفيد) في «مطولته» عن الحسبة «فولاية الحسبة هذه واسطة بين أحكام القضاء، وأحكام المظالم، فاما ما بينها وبين القضاء فهي موافقة لاحكام القضاء من وجهين، ومقصرة عنه من وجهين، فاما الوجهان في موافقتها، لاحكام القضاء فأحدهما: جواز الاستعداء اليه، وسماعه دعوى المستدعى عليه (المدعى عليه) في حقوق الآدميين وليس هذا على عموم الدعاوي، انما يختص بثلاثة أنواع من الدعاوي، أحدها ان تكون فيما تعلق ببخس وتظفيف، في كيل ووزن، والثاني فيما يتعلق بغش أو تدليس في بيع أو ثمن، والثالث ما تعلق بمطل، وتأخير لدين مستحق مع القدرة على أدائه، وانما جاز نظره في هذه الأنواع الثلاثة من الدعاوي دون ما عداها من سائر الدعاوي، لتعلقها بمنكر ظاهر، هو منصوب لأزالته، واختصاصها بمعروف بين هو منصوب الى اقامته؛ لان موضع الحسبة الزام الحقوق، والمعونة على استيفائها، وليس للناظر فيها ان يتجاوز على الحكم الناجز، والفصل البات، فهذا أحد وجهي المخالفة والوجه الثاني ان له الزام المدعى عليه الخروج عنها ودفعها الى مستحقها لأن في تأخيره لها منكرًا هو منصوب لأزالته، وأما الوجهان في قصورها عن سماع عموم الدعاوي الخارجة عن ظواهر المنكرات، من الدعاوي في العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات، فلا يجوز ان يبتدئي بسماع الدعوى، الا ان يرد ذلك اليه بنص صريح مزيد على اطلاق الحسبة — فيجوز ويصير لهذه الزيادة جامعا بين قضاء وحسبة، فيرعى فيه ان يكون من أهل الاجتهاد، وان اقتصر به على مطلق الحسبة فالقضاء والحكام بالنظر أحق — فهذا وجه، والوجه الثاني: أنها مقصورة على الحقوق المعترف بها، فاما ما يدخله التجاحد والتناكر، فلا يجوز النظر فيها، لأن الحكم يقف على سماع بينه، وانحلاف

يمين ، ولا يجوز للمحتسب ان يسمع بينة على اثبات حق ولا يحلف يمينا على نفي حق ، والقضاء والحكام في سماع البينات واحلاف الخصوم أحق — وأما الوجهان في زيادتها على أحكام القضاة فأحدهما أنه يجوز للناظر فيها ان يتعرض بتصفح ما يأمر به من المعروف وينهى عنه من المنكر ، وان لم يحضره حصم مستعد وليس للقاضي ان يتعرض لذلك الا بحضور خصم ، ، والثاني ان للناظر في الحسبة من سلاطة السلطنة ، فيما يتعلق بالمنكرات ما ليس للقضاة ، لان الحسبة موضوعة على الرهبة ، والقضاء موضوع للمناصفة فهو بالاناة والوقار أخص ، واما ما بين الحسبة المظالم فبينهما شبه مؤتلف ، وفرق مختلفا فأما النسب الجامع بينهما فمن وجهين أحدهما ان كلا منهما موضوعة على الرهبة وسلاطة السلطنة ، وقول الصرامة ، والثاني جوار التعرض فيهما لأسباب المصالح والتطلع على انكار العدوان الظاهر ، وأما الفرق بينهما فمن وجهين ، لأن النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاة ، والنظر في الحسبة ، موضوع لما رفه عنه القضاة ، ولذلك كانت رتبة المظالم أعلى ورتبة الحسبة أخفض وجاز لوالي المظالم ان يوقع الى القضاة والمحتسبة ، ولم يجز للقاضي ان يوقع الى والي المظالم وجاز له ان يوقع الى المحتسب ، ولم يجز للمحتسب ان يوقع الى واحد منهما ، فهذا فرق ، والثاني أنه يجوز لوالي المظالم ان يحكم ، ولا يجوز لوالي الحسبة ان يحكم . »

أنظر : تحفة الناظر وغنية الذاكر ، في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مجموع (د) رقم 2577 ورقات 424 — 427 دار الوثائق والمحفوظات بالرباط

ملحق (7)

مراتب تغيير المنكر

« واما مراتب التغيير فعلى خمسة أنواع — النوع الأول : مجرد التنبيه والتذكير ، وذلك فيمن يعلم أنه جهل فساد ما وقع لصدور ذلك على غرة وجهالة كما يقع من العامي الجاهل بدقائق الفساد في البيوع ومسالك الربا التي يعلم خفاؤها عنه ، وكذلك ما يصدر منه من عدم القيام بأركان الصلاة وشروط العبادات فهذا ومن شاكله ممن له معذرة في الغفلة والجهالة ينهون بطريق التلطف ، ويعملون بمسلك الرفق ليتم قبولهم لذلك بنشاط واستبشار ، فيتلقونه بالفهم الخلى عن المسرع بحصول الفائدة ، النوع الثاني : الوعظ بما يهز النفوس ، ويميلها بتصفية الباطن ، والبعد من الاثم ، ومواقع الجرائم بالتخويف من عقاب الله ،

والتحذير من أليم عذابه واستحقاق وعيده ، وذلك في سائر من علم ان وقوعه في المناكر على علم منه بها ، كحد من شرب الخمر ، والمواظب على الغيبة والنميمة ، وأمثال ذلك من أنواع المعاصي التي لا يجوز على مسلم مكلف ان يجهل تحريمها ، فاللازم في شأن هذا ان يتعاهد المتصف به بالعظة ، والاخافة من ربه ويتلطف معه في ايصال ذلك لحاسته ولبه ، النوع الثالث : الزجر ، والتأنيب والاغلاظ بالقول ، والتقريع باللسان ، والشدة في التهديد وهجن الخطاب في الانكار ، وذلك فيمن لم ينفع فيه وعظ ، ولم ينجع في شأنه تحذير برفق ، ولا تذكرة لطف فردعه انما يكون بالتخويف الصارف له المرهب القامع لامثاله ، ، ، النوع الرابع : التغيير بملاقاة اليد لأزالة المنكر ، وذهاب وجوده ، وذلك فيمن كان حاملا للخمر أولابس حرير ، أوخاتم ذهب أوماسكا المال مغضوب ، وعينه قائمة بيده ، وربه متظلم من بقاء ذلك بيده ، طالب رفع المنكر في بقائه تحت حوزه وتصرفه فأمثال هذا النوع لابد فيه مع الزجر والاغلاظ من المباشرة ، للأزالة باليد أوما يقوم مقام ليد كأمر الاعوان المفتشين بالتغيير والازالة ، فيريقون الخمر ، وينزعون ثوب الحرير وخاتم الذهب ويختطفون المغضوب من يد الغاضب ، ويردونه لمالكه ، وما شاكل ذلك من أسباب السعي في زوال ذلك المنكر ، ومحو أثره ، ، النوع الخامس : ايقاع العقوبة بالنكال والضرب بالايدي والجلد بالسوط وذلك فيمن تجاهر بالمنكر وتلبس باظهاره ، وأبدى صفحة خده في استلذاذه ، وعدم افادة العذل واللوم على مواقعته ، ولم يقدر على دفعه الا بذلك ، فان كابر وعاند ودعت الضرورة الى مقاتلته بالسلاح ومكافحته بالتناصر والتعاون ، وجب ذلك على كل من حضر وباشر ، اذا لم يقلع عن ذلك المنكر الا بمثل ذلك ، وان يرفع الى الامام أوالى أحد من الحكام القائمين به عن أذنه ، لان ذلك ادعى الى النجح ، وأقرب لتسهيل المأخذ ، ونيل المقصد ، وارفع لما يخشى من اثارة الفتنة مع من ليس معه رائحة من الأمر السلطاني ، لما جعل الله في السلطان من الحكمة النيرة والسر الالهي . »

أنظر : تحفة الناظر ورقات 210 — 213 .

ملحق (8)

منع اختلاط المسلمين في أسواقهم مع أهل الذمة والتشبه بهم

« سئل يحي بن عمر عن يهودي يوجد وقد تشبه بالمسلمين ، وليس عليه رقاع ولا زنار ، فأجاب أرى ان يعاقب بالضرب والسجن ويطاف به في موضع اليهود والنصارى ليكون ذلك زجرا لهم ولمن رآه منهم — وكتب عبد الله بن أحمد بن طالب الى بعض قضاته في اليهود والنصارى ، ان تكون الزنانير عريضة صغيرة ، مخالفة اللون في وجوه ثيابهم ليعرفوا بها فمن وجدته تركها بعد نهيك فاضربه ضربا وجيعا بليغا وأطل حبسه ، وفي كتاب عمر رضي الله عنه المبعوث اليه من نصارى الشام ، وقد اشترطوا على انفسهم شروطا قبلها منهم وزاد عليهم فيها شرطين آخرين ما يؤذن بالاقتداء به ، في الزامهم هذه الشروط ، ونصه : هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى الشام انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ، ولا بيعة ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ماخرب منها ، ولا نمنع كنائسنا ان ينزلها أحد من المسلمين في ليل أو نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمه ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان أراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا ان أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق لشعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وان نجز مقادم رؤوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وان نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء من طرف المسلمين واسواقهم وان لا نضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيفا وان لا نرفع أصواتنا مع مواتانا ، وان لا نجاورهم بموتى ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

فكتب عليه عمر : ان أقص ما سألوه وألحق فيه حرفين أشترطهما عليهم مع ما أشترطوه على أنفسهم ، ان لا يشتروا شيئا من سبايا المسلمين ومن ضرب منهم عمدا فقد خلع عهده . »

أنظر : التيسير في احكام التسعير (خ) لاحمد بن سعيد المجيلدي
مجموع (ك) - رقم 1154 ، مجموع (د) رقم 2577
دار الوثائق بالرباط
مجموع المخطوطات بالمكتبة الوطنية ـ الجزائر رقم 1377 ، وطرسروت 1971

ملحق (9)

الحسبة على الأطباء ، ومدعي الطب

قال العقباني : في « مطولته » عن الحسبة :

« فيجب على كل حاكم تفقد هؤلاء وقمعهم ،ومنع من يتعاطى علم الطب ونحــوه من الجلوس للنــاس حتى يحضر مع من يوثق به من الاطباء والعلماء ويختبرونه بحضرته ، ويصح عنهم انه أهل للجلوس ، في ذلك الشأن ، فان من أقتحم على شيء من ذلك بغير استحقاق فقتل أحدا ، أو أتلف له عضوا على غير منهاج الطب فهو متعد يجب ضربه وسجنه ، ولزوم الدية ، قيل في ماله ، وقيل على عاقلته ، هذا اذا لم يؤد النظر الى أن يقاد منه وما أظن أن خدام الحكام القادرين على ازالة هؤلاء ، وصرف ضررهم - في سعة من دم قتيلهم أو جريحهم . ومن زعم معرفة الطب ، وهو جاهل فتكون الضرر على علاجه غاية لم يلزم الدية لان فعله من باب الخطأ لا من العمد ، اذا لم تظهر عنده آثار لقصد القتل العمد والعدوان ، وانما قيل بالدية في ماله على أحد القولين : لان ذلك وان لم يكن عمدا فهو شبه العمد . قال ابن رشد : ان الطبيب اذا عالج الرجل فسقاه فمات من سقيه ، أو كواه فمات من كيه أو قطع منه شيئا فمات من قطعه أو الحجام اذا ختن الصبي فمات من ذلك أو قلع ضرس الرجل فمات من ذلك ، فلا ضمان على واحد منهما في ماله ، ولا على عاقلته اذا لم يخطأ في فعلهما الا أن يكون قد تقدم السلطان الى الاطباء والحجامين الا يقدموا على شيء مما فيه غرر الا باذنه ففعلوا ذلك ، بغير اذنه ، فأتي على أيديهم فيه موت

أو ذهاب حاسة أو عضو ، فيكون عليهم الضمان في أموالهم وأما اذا أخطأ في فعلهما ، مثل أن يسقي الطبيب المريض ما لا يوافق مرضه فيموت من ذلك أو تزل يد الخاتن فيتجاوز في القطع أو يد الكاوي فيتجاوز الكي أو يكون مما لا يوافقه الكي فيموت منه أو يقطع الحجام غير الضرس التي أمر بها وما أشبه ذلك ، فان كان من أهل المعرفة ، فذلك خطأ ، يكون على العاقلة الا ان يكون أقل من الثلث فيكون ذلك في ماله. وأما ان كان لا يحسن فعليه العقوبة من الامام بالضرب والسجن. وأختلف في الدية فقيل أنها تكون عليه في ماله، ولا يكون على العاقلة من ذلك شيء ، وقيل ان ذلك خطأ يكون على العاقلة ، الا أن يكون أقل من الثلث فيكون في ماله . »

أنظر تحفة الناظر ورقات 304 ـ 306 .

ملحق (10)

علم الحسبة وأهميته في المغرب الأقصى

قال عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في منظومته المشهورة : « الاقنوم في مباديء العلوم » عن خطة الحسبة وشروط المحتسب :

علم به يزال غش الباعة	ينظر في الميزان والصناعة
وشرط قائم به الاسلام	والعدل لا يصده ملام
فظا برفق بالغا وذكرا	ذا هيبة وهمة موقرا
ولا يؤدب قبل تحقيق ولا	تأديب الا بعد اعلام جلا
وفي جميع ما يراه مصلحة	فليحتسب كل فساد أصلحه
أنكاره بحسب المواضع	والشخص والاحوال والمنافع
والسر والجهر له التطويف	والضرب والتوبيخ لا التنصيف
بعد التثبت مع التربص	دون تجسس على مخصص
في نفسه مستتر المعاصي	الا المجاهر بلا أختصاص
كذا اذا صوت الملاهي أرتفعا	وفاسق لفسقه قد جمعا
فعندئذ منكرهم يغير	وليك فظا لينا ويزجر
ويتوعد ويسجن كذا	أيضا يوبخ ويضرب البذا

أنظر الاقنوم ج 1 ورقة 96 مجموع (د 90) ـ دار الوثائق بالرباط

ملحق (11)

قضاة ولاية افريقية (القيروان) منذ عصر موسى بن نصير إلى قيام الدولة الأغلبية (80 — 190) هـ

1 ـ أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي ـ ولاية موسى بن نصير

2 ـ أبو المغيرة عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة ـ ولاية اسماعيل بن عبيد الله

3 ـ أبو سعيد جاعيل بن هاعان بن عمير البتور (قاض للجند) ـ ولاية بشر بن صفوان ، وعبيدة بن عبد الرحمن .

4 ـ عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ـ ولاية كلثوم بن عياض القشيري

5 ـ عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (للمرة الاولى) ـ ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري .

6 ـ ابو كريب جميل بن كريب المعافري (ت 139هـ) ـ ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري وابنه .

7 ـ عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (للمرة الثانية) ـ ولاية ابن الاشعث حتى ولاية يزيد بن حاتم .

8 ـ ماتع بن عبد الرحمن الرعيني ـ ولاية يزيد بن حاتم المهلبي

9 ـ عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بيزيد بن الطفيل ـ ولاية يزيد بن حاتم المهلبي .

10 ـ أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي (مدة يسيرة) ـ قدمه للخطة روح بن حاتم المهلبي .

11 ـ أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ـ ولاية روح بن حاتم المهلبي وأستمر قاضيا حتى ت 190 هـ في عهد ابراهيم بن الاغلب .

ـ ولاة افريقية في العصر الاموي .

ـ ولاة الاندلس في العصر الاموي .

ـ ثبت ببعض المعالم الاثرية .

ملحق (12)

1 - ولاة افريقية في العصر الاموي

نميز في عمال افريقية .

أ ـ قادة فتوح هم :

معاوية بن حديج السكونى

عقبة بن نافع الفهرى

ابو المهاجر دينار

عقبة بن نافع (للمرة الثانية)

زهير بن قيس البلوى

حسان بن النعمان الغسانى

موسى بن نصير اللخمى

عبد الله بن موسى

ب ـ ولاة عامين هم :

محمد بن يزيد القرشي

اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر

يزيد بن أبي مسلم الثقفي

محمد بن أوس الانصاري

بشر بن صفوان الكلبي

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي

عبيد الله بن الحبحاب السلولي — بدء الثورة الخارجية — معركة الاشراف سنة 122 هـ .
كلثوم بن عياض القشيري — معركة وادي سبو 123 هـ .
حنظله بن صفوان الكلبي — معركتا القرن والاصنــام
عبد الرحمن بن حبيب الفهري — وابنه حبيب

ج — ولاة من ذوي النزعة الخارجية هم :

عاصم بن جميل الورفجومي (صفري)
عبد الملك بن أبي الجعد اليفرني (صفري)
أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري (اباضي)
عبد الرحمن بن رستم (اباضي)

د ـ ولاة من الموالي هم :

أبو المهاجر دينــار
محمد بن يــزيد
اسماعيــل بن أبي المهاجــر
عبيد الله بن الحبحاب
يزيد بن أبي مسلــم

هـ — ولاة متغلبين (استيلاء)

عبد الرحمن بن حبيب وأسرته

و — ولاة من ذوي النزعة الكلبية (الجنوبية)

بشر بن صفوان
حنظلة بن صفوان

ز — ولاة من ذوي النزعة القيسية (الشمالية)

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي
كلثوم بن عياض القشــيري
عبد الرحمن بن حبيب

2 - ولاة الاندلس في العصر الاموي

نميز فيهم بين :

أ — قادة الفتح وهم :

طارق بن زياد
موسى بن نصير
عبد العزيز بن موسى

ب — ولاة عامين هم :

أيوب بن حبيب اللخمي
الحر بن عبد الرحمن الثقفي
السمح بن مالك الخولاني
عبد الرحمن الغافقي (للمرة الأولى)
عنبسة بن سحيم الكلبي
عذرة بن عبد الله الفهري
يحي بن سلامة العاملي
حذيفة بن الاحوص القيسي
عثمان بن أبي نسعة الخثعمي
الهيثم بن عبيد الكلابي
محمد بن عبد الله الاشجعي
عبد الرحمن الغافقي (للمرة الثانية وفيها توفي في معركة بلاط الشهداء 114 هـ — 732 م .
عبد الملك بن قطن الفهري
عقبة بن الحجاج السلولي
عبد الملك بن قطن (للمرة الثانية)
بلج بن بشر القشيري
ثعلبة بن سلامة العاملي
أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي
ثوابة بن سلامة الجذامي (متغلب)
يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالاشتراك مع الصميل بن حاتم

ملاحظة

النزعتان القيسية والكلبية ، بارزة في ولاة الأندلس ، بروزها في ولاة إفريقية

ملحق (13)

- ثبت ببعض المعالم الاثرية في عصر الفتح

(ماء) عين الفرس	(صحراء خاور)
معسكر القـــرن	(اقليم قمونية)
جبـل ممطـور	» »
آبـار حـديج	» »
القـيروان	» »
تـا كـيروان	» »
عيون أبي المهاجر	(تلمسان)
وادي سهـر	(قرب المسيلة)
سيدي عقبـة	(تهودة قديما و توجد في منطقة الزاب)
قبـور الشهداء	(درنـة)
وادي مسكيانـة	(قرب تبسـة)
قصـور حسان	(بـرقـة)
بئر الكاهنـة	(جبل العنق ـ دائرة العاتر)

خريطة حواضر المغرب الاسلامي

صور أثرية

1 ـ مسجد سيدي عقبة بسكرة

2 ـ مسجد القيروان ومنارته

3 ـ آثار طبنة (بريكة)

4 ـ جامع الزيتونة

ملحق رقم (14)

ولاية عبد الرحمن بن رستم

أخبرني غير واحد من الإباضية عن من تقدم من ابائهم قالوا لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وارادوا عمارتها إجتمع رؤساؤهم فقالوا قد علمتم انه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في إحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونودي اليه زماننا ويقيم فينا فقبلوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم لبعض أنتم رؤساء ولا نأمن يتقدم واحد على صاحبه فتفد نيته ولعل المقدم ان يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفد النيات ويكثر الإختلاف ويقل الإيتلاف ولكن هذا عبد الرحمان بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمان قاضيا وناظر أفقادوه أموركم فان عدل فذلك الذي اردتم وان سار فيكم بغير عدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه فاجمعوا رأيهم على ذلك ثم نهضوا اليه باجمعهم وقالوا ياعبد الرحمان رضيك الإمام في ابتدائنا ونحن الأن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا فقد علمت انه لا يصلح أمرنا الا امام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا فقال لهم ان أعطيتموني عهد الله وميثاقه لتطيبوا الى ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فاعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثل ماشرط عليهم وقدموه على أنفسهم والفوا اليه بأيديهم فاربهم بسيرة جميلة حميدة أولهم وأخرهم ولم يبقموا عليه في أحلامه حكما ولا في سيره سيرة وسارت بذلك الركبان الى كل البلدان وكانت له قصص حكوها لا يمكن ذكرها الا على وجه وان أتم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقصص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروات ولا من اخلاق ذوي الديانات وان كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذاهبهم مستقلين فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعد لهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولاحسن سيرهم لما نعلمه من برارتهم من والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من كنت مولاه فعلي مولاه .

أخبرني غير واحد من وجوه الإباضية عن سلفهم لما ولي عبد الرحمان بن رستم ماولي من أمور الناس شهر ميزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للارملة والضعيف ولايخاف في الله لومة لائم فطار ذلك في أطراف الأرض مشارقها ومغاربها حتى إتصل ذلك من إخوانهم من أهل البصرة وغيرها من البلدان فلما أعلموا ذلك من امره جمعوا أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم وقال بعضهم لبعض قد ظهر بالمغرب امام ملأه عدلا وسوف يملك المشرق ويملأه عدلا فانهضوا اليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التي سكنها فان كان على ما نقل لنا من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوها اليه وان كان على غير ذلك فانظروا الى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم أتونا بذلك كله فمضى القوم حتى أتوا المدينة ونزلوا المصلى الذي به اليوم قبر مسالة فاناخوا جمالهم ووضعوا أحمالهم وتقدموا مع القادمين من معهم حتى دخلوا من الباب المعروف بباب الصفا يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الإمام عبد الرحمان حتى وقفوا عليها واصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح به فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا هذه دار الإمام فقال نعم فقالوا له استأذن لنا منه واعلمه انا رسل اخوانه اليه من البصرة فرفع الغلام رأسه الى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم فقال قل للقوم يصبرون قليلا ثم أقبل على ماكان عليه من اصلاح عمله حتى أنقضى والقوم ينظرون اليه وهم شاكون فيه هل هوصاحبهم أم لا حتى نزل عن سطحه الى داره فغسل ما كان بيده من أثر الطين ثم توضأ وضوء الصلاة فاذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصيرة فوقه جلد وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل أخوانه اليه فأمر غلامه باحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح فأمر بتلك القرص فهشمت وأمر بالسمن فلتت به ثم قال علم اسم الله أدنوا وكلوا ثم أكل معهم فلما أنقضى طعامهم قال مامرادكم وما جاء بكم فقالوا له نحب أن تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك فقال أفعلوا فجلسوا .

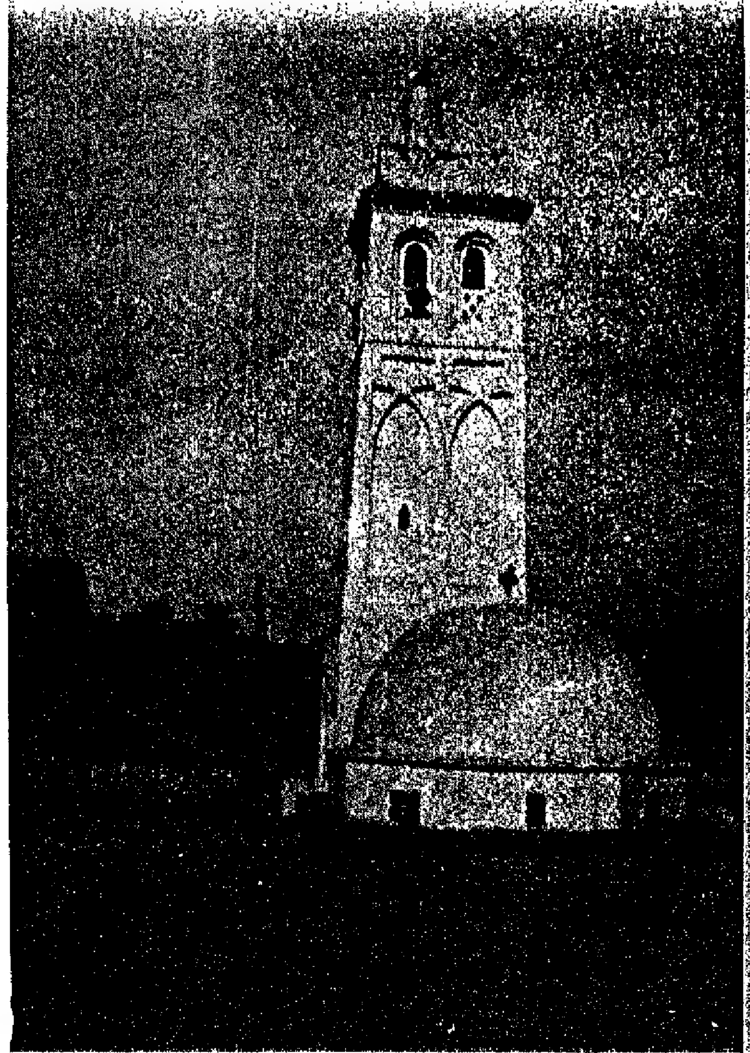
فقال بعضهم لبعض يكفينا من السؤال عنه مارأينا من اصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحيلة بيته فما نرى الا أن ندفع اليه المال ولا نشاور أحدا فيه وكان الذي معهم من المال ثلاثة أحمال فاجمع رأيهم على حمل المال اليه ورجعوا اليه

ثم أقبلوا عليه فقالوا أعزك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها اليك اخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح به شأنك فقال هذه الصلاة قد حضر وقتها ونحن نخرج الى المسجد الجامع فنصلي بالناس ونعلمهم بما جئتم به فقالوا الامر اليك فخرج وخرجوا حتى أتو المسجد الجامع فصلى بالناس فلما أنصرف من صلاته نادى مناد الا يتخلف من كل قبيلة وجوههم ففعل الناس ذلك فلما انفضى الناس وبقي من يفوض اليه الأمر من وجوههم قال للرسل أعلموا اخوانكم لما جئتم له فاعلموهم بمثل ما أعلموه ثم عطف على الناس فقال ماترون فقالوا ان هذا رزق ساقه الله الينا من طوع أخواننا بلا سؤل منا فزي ان ترسل الى هذا المال وتحضره بين يديك فتجعل منه ثلثا في الكراع وثلثا في السلاح وثلثا في فقراء الناس وضعفائهم فقال للرسل قد سمعتم مايقول اخوانكم فما تقولون قالوا نقول سمعا وطاعة فاحضروا المال فقال عبد الرحمن أريد أن تقيموا حتى يصرف المال في وجوهه ثم تنصرفون الى اخوانكم فتعلمونهم ذلك ثم جزأوا المال اثلاثا امتثال ماعقدوا عليه وذلك بمحضر من الرسل ثم قال للرسل أنصرفوا على بركة الله اذا شئتم وانه لما وصل المال واشتروا للقوم الكراع والسلاح وقوى الضعيف وانتعش الفقير حسنت أحوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم وامنوا ممن كان يغزوهم من عدوهم وراوا انهم قادرون على غيرهم ومن كانوا يخافون أن يغزوهم ثم شرعوا في العمارة والبناء واحيا الأموات وغرس البساتين واجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصي الأقطار فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتني بين أظهارهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وامانه على نفسه وماله حتى ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورجتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين واستعملت السبل الى بلد الودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة فاقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون فلما كان السنة الثالثة اجتمعت الاباضية بالمشرق وتراسلوا فيما بينهم وقدم القوم وجمعهم البصرة فقال بعضهم لبعض اذا اتصلت بهم الأخبار من كل الأقطار مع ماجائتهم به رسلهم مما عاينوه وشاهدوه أمامكم بالمغرب خلف من ابي بلال مرواس بن ادية ومن ابي حمزة الشاري فلا تدخروا عنه مالا

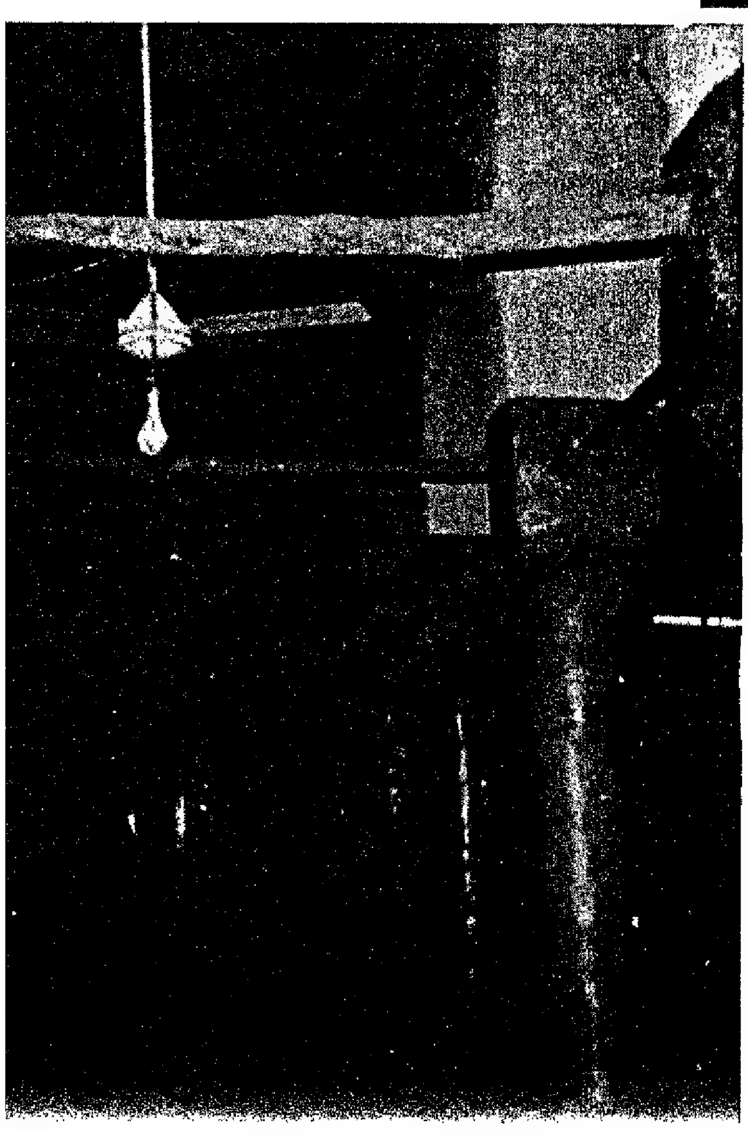
ولا تحسبوا عنه عطاء وابعثوا اليه بجميع ما بايديكم لتقوى به على دينه ودنياه فانكم تنالون بذلك شرفا عاجلا وغناء اجلا فاجمع رأيهم على أن يوجهوا اليه بعشرة أحمال من المال وارسلوا الى رسلهم الأولين واعلموهم بما جمعوه من المال وان ذلك كله في سر وخفاء من الغمال والاجناد لئلا بطلعوا عليهم فيهلكوهم وسالوهم كتمان ذلك فاجابتهم الرسل الى مادعوهم اليه حمل الاحمال وتوجيههم بها الى عبد الرفمان فلم تزل بذلك حتى أتت البلد ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولا ثم توجهت نحو عبد الرحمان فوجدوا الأمور قد تبدلت واحوال المدينة والأشياء قد حالت وذلك انهم نظروا الى قصور قد بنيت والى بساتين قد غرست والى ارحاء قد نصبت والى خيول قد ركبت والى حفدة قد اتخذت السور والعبيد والخدام قد كثرت فلما رأوا ذلك تحولت بنيانهم الى أن قصدوا قصر صاحبهم فلقوه علي ماعرفوا من التواضع فلم يعلموه بما أتوا به ولا ماحركهم اليه حتى لقوا رجالا ممن يثقون بهم بي اديانهم وسيند اليهم أحوالهم فسألوهم بنن أحوال عبد الرحمان هل تغيرت وعن امامه هل تبدلت فقالوا بل هو على ماعاينتموه عليه ماتغير ولا تبدل ثم أعلموهم بما جاءوا به من المال وعدد الأحمال فقالوا لهم ادفعوها اليه فانه لايصرفها الا في وجهها ومواضعها وما نحسبه يقبلها منكم فأخذوا بقولهم ثم أتوا عبد الرحمان فسلموا عليه واعلموه بما قدموا به وبحال من خلفوه من اخوانه فسر بذلك وسالهم عن أحوالهم هل هم مستضعفون وأم مستظهرون وهل في سائرهم فقراء أو أصحاب فاقة أو لا فاعلموه أنهم مسترون غير ظاهرين وانهم مستضعفون غير قادرين وان بجماعتهم مثل ما بجماعة الناس من الغناء والفقر ثم وعدهم أن يحضروا المسجد الجامع بعد صلاة الظهر ليعلموا اخوانهم بما قدموا به ففعلوا ذلك فلما انصرف الناس من صلاتهم نادي منادي عبد الرحمان ان يتخلف وجوه الناس وينصرف سائرهم ففعلوا ذلك وكان عبد الرحمان قد أمر الرسل باحضار المال الى المسجد الجامع ليقف عليه ويرى عدده ففعلوا ذلك فلما انصرف عوام الناس وتخلف وجوههم أمر بالاحمال فاحضرت ثم قال للرسل تكلموا فتكلمت الرسل الى الناس بمثل ما كلمت عبد الرحمان فقال عبد الرحمان للناس ماترون قالوا الأمر اليك فقال اذا أردتم الأمر الى فاني ارى أن ترد هذه الأموال الى أهلها فيدفعونها لمن يستحقها من فقرائهم وضعفائهم فانا انما كنا قبلنا ماقبلنا منهم في في أول ابدا أمرهم للحاجة التي كانت بنا اليه والفاقة التي لزمت عوام اخواننا فالان

انا مستغنون عن أموال غيرهم فشق كلام عبد الرحمان على الرسل وعلى جماعة من الناس فعاودوه على ذلك مره بعد أخرى بالايمان الغليظة فكرها على نفسه الا أقبل منها دينارا ولا درهما ولا أدخل في يدي شيئا من ذلك فلما استايس الرسل والناس من ذلك أمر برد الأموال الى أهلها وانصرفت الرسل بالأموال حتى وصلتها فعظم ذلك عند القوم حظ عبد الرحمان وزاد في قدره وراوا أنه لوكان طالبا دنيا لرغب في الأموال فعند ذلك رغب القوم في امامته وراوا أنها فرض عليهم ثم لم تزل الرسل تختلف وتطلع الأخبار عن الأحوال والبلد زائدة عمارتها في ذلك كله السيرة واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلاة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقائهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل ... من أهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أل المصدقات لايظلمون ولا يظلمون فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاه والبعير فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر مايستحقون على عملهم ثم نظر في باقي سائر المال فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من في البلد وفيما حول البلد ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما في الاهراء من الطعام ثم أمر بجميع مابقي من مال الصدقة فا شترى منه أكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك وياثر باكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضي وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين باموره مايكفيهم في سنتهم ثم أن فضل صدقة في مصالح المسلمين فلم تزل أموره كذالك وعلى ذلك والكلمة واحدة والدعوة مجتمعة ولاخارج يخرج عليه ولا طاعن يطعن عليه الى أن اخترمته المنية وانقضت أيام مدته وقد كنت وقفت على عدد أمارته كم كانت ولكن نسيتها مع مرور الأيام وكان قد نشأ له في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب وكان محمود الأفعال وكان قادرا للقيام بعده فلما انقضت أيامه صيرت الاباضية الأمر اليه بعده .

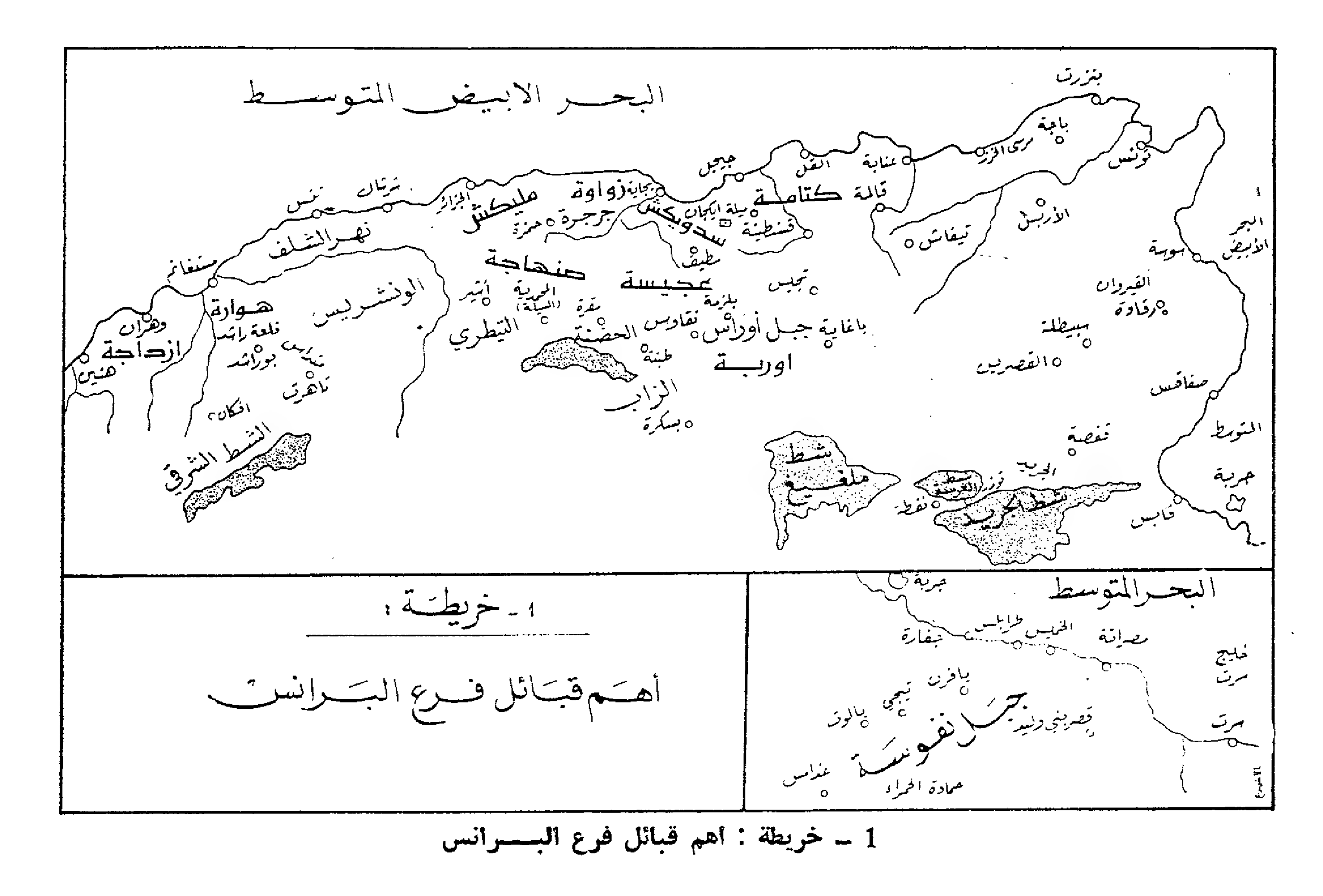
أنظر : تاريخ ابن الصغير المالكي (ق.3.هـ)



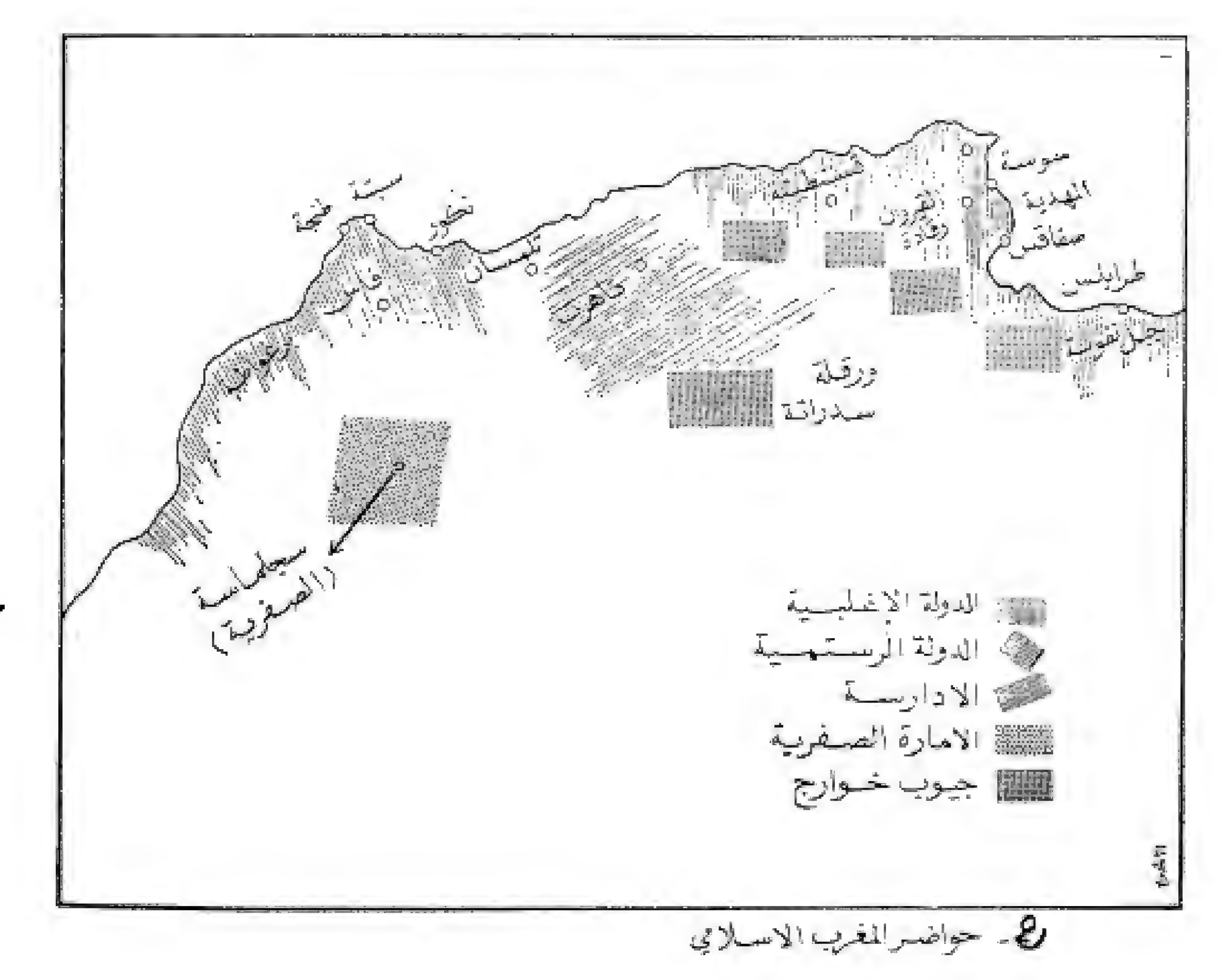
مسجد سيدي عقبة
بيت الصلاة



مسجد سيدي عقبة
المئذنة والضريح



1 - خريطة : أهم قبائل فرع البرانس



حواضر المغرب الاسلامي

فهرس الاعلام

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الشين .

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المغربية

— **الونشريسي** (أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني) : المعيار المعرب ، والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (ط) فاس 1305 هـ .

— **الجبنياني** (أبو اسحاق) : المناقب — تونس (ط) نشرها الهادي روجير ادريس .

العقباني (محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد) : تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر — مجموع 2577 (د) من ورقة 198 — 427 دار الوثائق الرباط .

— **المالكي** (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) : رياض النفوس ج 1 (ط) القاهرة 1951 . نشره حسين مؤنس .

— **أبو العرب** (محمد بن أحمد بن تميم التميمي) : طبقات علماء افريقية (ط) الجزائر 1914 م نشره الشيخ محمد بن أبي شنب .

— **البكري** (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (ط) الجزائر 1911 م نشره البارون دوسلان .

— **الادريسي** (أبو عبد الله محمد بن محمد) : وصف افريقية الشمالية والصحراوية (ط) الجزائر 1957 . نشره هنري بريس .

— **العبدري** (محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود) : الرحلة المغربية (ط) البعث ، قسنطينة 1964 نشرها أحمد بن جدو.

— **ابن عذاري** (أبو عبد الله محمد) : البيان المغرب في أخبار المغرب (ط) بيروت 1947 — 1950 نشر مكتبة صادر.

— **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن بكر) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط) القاهرة .

— **الدباغ** (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله) : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان (ط) تونس 1902 م 1320 هـ .

— **ابن أبي دينار**(محمد بن أبي القاسم الرعيني) : كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس (ط) تونس 1280 هـ .
— **السلاوي** (أحمد بن خالد الناصري) : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى (ط) القاهرة .
— **الرقيق** (أبواسحاق ابراهيم بن القاسم) : تاريخ افريقية والمغرب ط تونس 1968 .
— **المجيلدي** (أبو العباس أحمد بن سعيد) : التيسير في أحكام التعسير (خ) في مكتبة الجزائر ، ودار الوثائق بالرباط .

ثانيا : المصادر المشرقية القديمة :

— **ابن عبد الحكم** (عبد الرحمن بن عبد الله القرشى) : فتاح مصروالمغرب (ط) القاهرة 1961 نشره عبد المنعم عامر .
— **البلاذري** (أحمد بن يحي بن جابر) : فتوح البلدان (ط) القاهرة 1959 .
— **ابن قتيبة** (أبومحمد عبد الله بن مسلم) : الامامة والسياسة (ط) القاهرة 1963 .
— **اليعقوبي** (أحمد بن جعفربن وهب بن واضح) : تاريخ اليعقوبي (ط) بغداد
— **الواقدي** (محمد بن عامر) : فتوح افريقية (ط) تونس 1315 هـ .
— **الطبري** (أبوجعفرمحمد بن جرير) : تاريخ الامم والملوك (ط) القاهرة 1939 .
— **الاصطخري** (أبوابراهيم اسحاق بن محمد) : المسالك والممالك (ط) القاهرة 1961 .
— **ابن الاثير**(عزالدين أبوالحسن علي بن محمد) : الكامل في التاريخ (ط) القاهرة .
— **ابن تغري بردي** (أبو المحاسن جمال الدين يوسف) : النجوم الزاهرة (ط) القاهرة 1324 هـ .
— **الشهرستاني** (محمد بن عبد الكريم) : الملل والنحل (ط) القاهرة .
— **الماوردي** (علي بن حبيب البصري) : الاحكام السلطانية (ط) القاهرة 1909 .
— **المبرد** : الكامل

ثالثا : المراجع العربية الحديثة :

— **حسن ابراهيم حسن** :تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (ط) القاهرة 1957 .
— **حسين مؤنس** : فجر الاندلس (ط) القاهرة 1959 .
— **حسن محمود** : قيام دولة المرابطين (ط) القاهرة 1957 .
— **سيدة اسماعيل** كاشف : مصر في عصر الولاة (ط) القاهرة 1957 .
— **حسين مؤنس** : فتح العرب للمغرب (ط) القاهرة 1947 .
— **محمد ضياء الدين الريس** : النظريات السياسية الاسلامية (ط) القاهرة 1960 .

— **زكي محمد حسن** : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (ط) القاهرة 1945.
— **عبد الحميد العبادي** : المجمل في التاريخ الاندلس (ط) القاهرة 1958 .
— **جمال الدين سرور** : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية (ط) القاهرة 1960 .
— **عبد المنعم ماجدوالبنا** : الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي (ط) القاهرة 1960 .
— **دائرة المعارف الاسلامية** .
— **سعد زغلول عبد الحميد** : تاريخ المغرب العربي . دارالمعارف 1965 م .
— **السيد عبد العزيزسالم** : المغرب الكبيرج 2 ، العصرالاسلامي . القاهرة 1966 م .
— **دائرة معارف البستاني** .
— **حسن ابراهيم حسن** : النظم الاسلامية (ط) القاهرة 1959 .
— **حسن ابراهيم حسن** : انتشارالاسلام في القارة الافريقية (ط) القاهرة 1964 .

رابعا : المراجع المعربة :

— **فليب حتى** : تاريخ العرب (ط) بيروت 1953 . ترجمة مؤلفة .
— **آدم ميتز** : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع (ط) القاهرة 1957 . ترجمة محمد عبد الهادي أبي زيدة .
— **توماس أرنولد** : الدعوة الى الاسلام (ط) القاهرة 1947 ترجمة حسن ابراهيم وعابدين والنحراوي .
— **يوليوس فلهوزن** : تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية (ط) القاهرة 1958 . ترجمة أبي ريدة .
— **كارل بروكلمان** : تاريخ الشعوب الاسلامية (ط) بيروت . ترجمة البعلبكي وفارس .
— **لويس أميل سيديو** : تاريخ العرب العام .
— **غوستاف لوبون** : حضارة العرب (ط) القاهرة 1956 . ترجمة عادل زعيتر.

خامسا : المراجع المغربية الحديثة :

— **حسن حسني عبد الوهاب** : ورقات عن الحضارة العربية (ط) تونس 1965
— **عثمان الكعاك** : مراكزالثقافة في المغرب (ط) القاهرة 1958 .
— **الحبيب الجنحاني** : القيروان عبرعصورازدهارالحضارة . تونس .
— **سليمان زبيس** : بين الآثارالاسلامية في تونس تونس 1963 .

سادسا : المصادر الاباضية :

— **الدرجيني** (أبو العباس أحمد بن سعيد) : طبقات الاباضية (خ ميزاب) .

— **البرادي** (أبو القاسم ابراهيم) : الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات (خ ، ط) الازهار البارونية .

— **الشماخي** (أبو العباس أحمد) : كتاب السير (خ و ط حجرية) 1883 القاهرة .

— **الباروني** (سليمان) : الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية (ط) القاهرة .

— **علي يحي معمر** : الاباضية في موكب التاريخ (ط) القاهرة 1965 .

— **محمد علي دبوز** : تاريخ المغرب الكبيرج 3 القاهرة 1963 .

سابعا : المراجع العامة :

— **بروكلمان** : تاريخ آداب اللغة العربية (ط) (ملحق 2 ليدن 1937) .

— **محمد رضا كحالة** : معجم المؤلفين (ط) دمشق 1957 .

— **هورنشو** : علم التاريخ - ترجمة العبادي (ط) القاهرة 1944 .

— **سيدة اسماعيل** : مصادر التاريخ ومناهج البحث فيه (ط) القاهرة 1960 .

— **أحمد فكري** : المسجد الجامع بالقيروان - (ط) القاهرة 1936 .

— **احسان عباس** : العرب في صقيلية (ط) القاهرة 1959 .

— **توفيق المدني** : تاريخ المسلمين في صقيلية (ط) الجزائر 1934 .

— **عبد الهادي شعيرة** : ليبيا - الاسم ومدلولاته التاريخية (ط) بنغازي 1958 .

— **عبد الهادي شعيرة** : الصراع بين الغرب ، والبيزنطيين (ط) الاسكندرية 1947 .

— **الباز العريني** : تاريخ الدولة البيزنطية (ط) القاهرة 959ك .

ثامنا : المراجع الاجنبية :

فهرس عام بالموضوعات

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

تم بحمد الله وحسن عونه

للمؤلف :

1 ـ التيسير في أحكام التسعير .
2 ـ الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي.
3 ـ كتامة وتاريخ الخلافة الفاطمية ـ